صناعة الرجولة

في مدرسة محمد ﷺ

د. محمد عبدالمعطي محمد

الألوكة
www.alukah.net

صناعة الرجولة

في مدرسة محمد صلى الله عليه وسلم

تأملات

الفقير إلى عفو ربه

د. محمد عبد المعطي محمد

مقدمة منهجية

لماذا نكتب عن صناعة الرجولة ؟!

لأن هُوَيَّتنا الإسلامية في خطر...

إذا كان العالم قد خسر كثيرا حين انحط المسلمين، وسقط لواء حضارتهم.. والتي رسمت في وجدان التاريخ أرقى مظاهر الإنسانية، وأغنى قيم المدنية..

وإذا كانت هذه الخسارة بحيث جعلت المجال سانحاً، والساحة خاليةً أمام القيم الفاسدة، والأفكار المبيرة (المخربة) التي دشنها ونشرها الغرب بكل حقدٍ وتبجح في ربوع العالم.

وكان آخر مشروعاته في نشر هذا الفساد والخسران عن طريق ما يُدعى بال(عولمة)؛ والتي هي في الحقيقة (هيمنة) يراد بها نشر قيم وحضارة (الكاو بوى).. حضارة المادية المجرمة، والفردية القاسية.. حضارة المصلحة بلا رحمة.. والشهوات بلا حكمة.. والاستعباد بكل جحودٍ وخسة...

هذا المشروع (الاستخرابي) القذر قد تفطنت إليه أممٌ شتى فأخذت تعد العدة، وتجهز الدفاعات اللازمة لصد هذا الزحف القادم من هذا الذئب الغربي الأمريكي الصهيوني الماكر.

ويكفي أمتنا خزياً هذا السبات العميق المقيت الذي يتلببها، ويكتنف فكرها وعملها، فما زال بنا أذناب الغرب، وعبدته، والحاقدين على الإسلام يتهمون محاولات الإفاقة الشريفة بالمبالغة التي لا داعى لها في نظرية المؤامرة..

إنهم وبكل خسةٍ يثبطون العزائم، ويخوِّرون الهمم حتى يهمد ويسقط ما بقى حياً من جسد الأمة، ويكون لأسيادهم النصر التام في معركة الحق والباطل..

في الحقيقة (إن أعداء الإسلام يحرصون على هويتهم، وفي نفس الوقت يجتهدون في تذويب هويتنا الإسلامية؛ فما يحرمونه علينا يحلونه لأنفسهم.

فهذا (نيكسون) وهو من أخطر رؤساء أمريكا؛ لأنه رجل مفكر، وله أيدلوجية، وهو منظّر، وليس رئيساً عادياً، يقول في كتابه (انتهز الفرصة): (إننا لا نخشى الضربة النووية، ولكننا نخشى الإسلام والحرب العقائدية التي قد تقضي على الهوية الذاتية للغرب!).

وهذا معناه: أنهم ينظرون إلى موضوع الهوية الإسلامية أنها تهدد الهوية الغربية؛ فهي مسألة حياة أو موت بالنسبة إليهم.

ويقول أيضاً نيكسون(: إن العالم الإسلامي يشكل واحداً من أكبر التحديات لسياسة الولايات المتحدة الأمريكية الخارجية في القرن الحادي والعشرين).

ولقد بلغ من إعجاب (كلينتون) بالهوية الأمريكية، وبعبارة أخرى نقول: بلغ من اغتراره بهذه الهوية أن وجد في نفسه الجرأة بأن قال: (إن أمريكا تؤمن بأن قيمها صالحة لكل الجنس البشري، وإننا نستشعر أن علينا التزاماً مقدساً بتحويل العالم إلى صورتنا، قالها بالإنجليزية. (To transfer the world into our image)

أقول: ولكم أن تتخيلوا كيف تكون صورة هذا العالم الذي يكون نسخة من (الغابات المتحدة الأمريكية)!

ولنستمع معا إلى مساعد وزير الخارجية الأمريكية ومستشاره (جونسون) لشئون الشرِق الأوسط حتى سنة (١٩٦٧م) يقول: (إن الظروف التاريخية تؤكد أن أمريكا إنما هي جزء مكمل للعالم الغربي فلسفته وعقيدته ونظامه)،

أقول: وذلك يجعلها تقف معادية للعالم الشرِقي الإسلامي لفلسفته وعقيدته المتمثلة بالدين الإسلامي، ولا تستطيع أمريكا إلا أن تقف هذا الموقف في الصف المعادي للإسلام، وإلى جانب العالم الغربي والدولة الصهيونية؛ لأنها إن فعلت عكس ذلك فإنها تتنكر للغتها وفلسفتها وثقافتها ومؤسساتها.

إذاً فالصراع في الحقيقة هو صراع هوية وتذويب، ومنذ زمن قال أحد المسئولين في وزارة الخارجية الفرنسية: (ليست الشيوعية خطراً على أوروبا فيما يبدو لي؛ فهي حلقة لاحقة لحلقات سابقة، وإذا كان هناك خطر من الشيوعية فهو خطر سياسي عسكري فقط، ولكنه على أي حالٍ ليس خطراً

حضارياً تتعرض معه مقومات وجودنا الفكري والإنساني للزوال والفناء، إن الخطر الحقيقي الذي يهددنا تهديداً مباشراً عنيفاً هو الخطر الإسلامي؛ والمسلمون عالم مستقل كل الاستقلال عن عالمنا الغربي، فهم يملكون تراثهم الروحي الخاص، ويتمتعون بحضارة تاريخية ذات أصالة، وهم جديرون بأن يقيموا بها قواعد عالم جديد دون حاجة إلى الاستغراب، وفرصتهم في تحقيق أحلامهم هي اكتساب التقدم الصناعي الذي أحرزه الغرب، فإذا أصبح لهم علمهم، وإذا تهيأت لهم أسباب الإنتاج الصناعي في نطاقه الواسع انطلقوا في العالم يحملون تراثهم الحضاري الفتي، وانتشروا في الأرض يزيلون منها قواعد الروح الغربية، ويقذفون برسالتها إلى متاحف التاريخ.).

هذا كلام مسئول في وزارة الخارجية الفرنسية، فانظر كيف فهموا قضية الهوية!

هذه حقيقة كل ما يجري الآن، وما جرى من قبل، وما سيجري -والله أعلم- فيما بعد.

وقد حصل صراع سياسي في كندا بين المتحدثين بالإنجليزية وبين المتحدثين بالفرنسية الذين كانوا يريدون الاستقلال بهذه المقاطعة، وهذا كله صراع من أجل الهوية.

وفرنسا رفضت التوقيع على الجزء الثقافي من اتفاقية الجات، والذي يضمن للمواد الثقافية الأمريكية أن تباع بفرنسا بمعدلات اعتبرها الفرنسيون تهديداً صارخاً لهويتهم القومية، وطالبوا بتخفيض هذه المعدلات انطلاقاً من الحرص على الهوية، مع أنهم في الهوى سواء! .....)[1] ا. هـ.

---

١ انتهى من كلام د\محمد اسماعيل المقدم حفظه الله تعالى فى محاضرته عن الهوية الإسلامية، وراجع مشكورا الموضوع مبسوطا في كتابي (الخروج من التيه)

ولأن هذه طريقتهم في محونا...!

(فإنه لا يسوغ لنا، ولا يليق بنا أن نتلفت حيارى بحثًا عن الطريق، وبين أيدينا المعين الذي لا ينضب في كتاب الله تعالى، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، فنكون:

كالعِيس في البيداء يقتلها الظَّما... والماء فوق ظهورها محمولُ..)...

إن تقليد أغلب المسلمين والمسلمات لغيرهم إنما هو أمارة الانهزام الداخلي الذي ينعكس في هذه التبعية العمياء التي أودت بأصالتهم، وأفقدتهم " العزة الإسلامية"، وجعلتهم يهونون على ربهم، ويهونون على أنفسهم.

ف" ويل للمغلوب من الغالب"؛ ولله دَر العلامة ابن خلدون رحمه الله إذ عقد فصلًا خاصا في "مقدمته" (الفصل الثالث والعشرون) جعله بعنوان:

"المغلوب مولع أبدًا بالاقتداء بالغالب في شعاره وزيه ونحلته وسائر أحواله وعوائده"، وبين فيه أن الذي يقلد غيره إنما هو الضعيف والناقص والمغلوب والجاهل، فقال:

" ولذلك ترى المغلوب يتشبه أبدًا بالغالب في ملبسه ومركبه وسلاحه في اتخاذها وأشكالها، بل وفي سائر أحواله، وانظر ذلك في الأبناء مع آبائهم كيف تجدهم متشبهين بهم دائما، وما ذلك إلا لاعتقادهم الكمالَ فيهم، حتى إنه إذا كانت أمة تجاور أخرى، ولها الغلب عليها، فيسرى إليهم من هذا التشبه والاقتداء حظ كبير، كما هو في الأندلس لهذا العهد مع أمم الجلالقة أي (الأسبان)، فإنك تجدهم يتشبهون بهم في ملابسهم وشاراتهم والكثير من عوائدهم وأحْوالهم حتى في رسم التماثيل في الجدران والمصانع والبيوت، حتى لقد يَسْتَشْعِر من ذلك الناظرُ بعين الحكمة أنه من علامات الاستيلاء، فالأمر لله" اهـ.

وصدق ابن خلدون رحمه الله، فلقد توقع استيلاء الإفرنج على الأندلس الإسلامية، وخروج المسلمين منها قبل أن يقع ذلك بنحو مئتي سنة، ولم يكن له دليل على ذلك إلا مشاهدته تشبه المسلمين بالأعداء في ملابسهم وشاراتهم وعاداتهم وأحوالهم.

إن الاعتزاز بالإسلام، والفخر بأحكامه الإلهية، والاستعلاء بها على كل ما خالفها من نظم ومناهج، هو مفتاح عودتنا إلى الإسلام، وعودة الإسلام إلى حياتنا. "الإسلام يَعلُو، ولَا يُعلى عليه") [٢]

ولكى ندرك حجم المأساة نقرأ سويةً ما قاله (جان بول سارتر) في كتابه (المنبوذون في الأرض) مبينا أساليبهم في صناعة فكر ووجدان الشرق وخصوصاً المسلمين.. ليصنعوا نسخاً مستعبدةً من الطراز الغربي السخيف..

قال (: كنا نحضر أبناء رؤساء القبائل، وأبناء الأشراف، والأثرياء، والسادة من إفريقيا وآسيا، ونطوف بهم بضعة أيامٍ في لندن وباريس وأمستردام.. فتتغير ملا بسهم، ويلتقطون بعض أنماط الحياة الاجتماعية الجديدة.. ويرتدون السترات والسراويل، ويتعلمون لغتنا، وأساليب رِقصنا، وركوب عرباتنا.

وكنا نزوج بعضهم من أوروبا. ونلقنهم أساليب حياتنا على شكل جديد، وطرز جديدة من الزينة، واستهلاك أوروبى، وغذاء أوروبى..

كنا نضع في أعماقهم أوروبا، والرغبة في تحويل بلادهم إلى أوروبا..

ثم نرسلهم إلى بلادهم حيث يرددون ما نقوله بالحرف تماما مثل الثقب الذي يتدفق منه الماء في الحوض.

فهذه أصواتنا تخرج من أفواههم؛ وحينما كنا نصمت؛ كانت ثقوب الحوض تصمت أيضا؛ وحينما كنا نتحدث كنا نسمع انعكاسا صادقا وأمينا لأصواتنا من الحلوق التي صنعناها.

وكنا واثقين أن هؤلاء المفكرين لا يملكون كلمة واحدة يقولونها غير ما وضعنا في أفواههم)[٣] ا. هـ.

---

[٢] الدكتور محمد إسماعيل المقدم في كتابه الرائع عودة الحجاب (٢/٢٥-٢٧)

٢ نقلا عن كتاب (الإعلام الإسلامي في مواجهة الإعلام المادي) لفضيلة الأستاذ الدكتور محمود محمد عمارة، سلسلة البحوث الإسلامية الأزهر الشريف، السنة٣٩ الكتاب الثالث ١٤٢٩، هـ ٢٠٠٨م، ص١٢.

أقول أن هذا ما يؤيده الواقع في زمرة تعرض علينا النموذج الغربي كل يوم، وحتى ما يتقيؤه الغرب – على حسب تعبيرهم – ولا تعليق...!

ومن هاهنا لابد أن تتضح معاني.. الوجود والهدف..

يقول ربنا سبحانه وتعالى في كتابه العزيز " كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ (١١٠ آل عمران)"

(إن شطر الآية الأول يضع على كاهل الجماعة المسلمة في الأرض واجباً ثقيلاً، بقدر ما يكرم هذه الجماعة ويرفع مقامها، ويفردها بمكان خاص لا تبلغ إليه جماعة أخرى: «كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ، تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ.. »

وهذا ما ينبغي أن تدركه الأمة المسلمة لتعرف حقيقتها وقيمتها، وتعرف أنها أخرجت لتكون لها القيادة، بما أنها هي خير أمة. والله يريد أن تكون القيادة للخير لا للشر في هذه الأرض.

ومن ثم لا ينبغي لها أن تتلقى من غيرها من أمم الجاهلية. إنما ينبغي دائماً أن تعطي هذه الأمم مما لديها.

وأن يكون لديها دائماً ما تعطيه.

ما تعطيه من الاعتقاد الصحيح، والتصور الصحيح، والنظام الصحيح، والخلق الصحيح، والمعرفة الصحيحة، والعلم الصحيح..

هذا واجبها الذي يحتمه عليها مكانها، وتحتمه عليها غاية وجودها.

وأن تكون لها القوة التي تمكنها من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فهي خير أمة أخرجت للناس.

لا عن مجاملة أو محاباة، ولا عن مصادفة أو جزاف- تعالى الله عن ذلك كله علواً كبيراً- وليس توزيع الاختصاصات والكرامات كما كان أهل الكتاب يقولون: «نَحْنُ أَبْناءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ».. كلا!

إنما هو العمل الإيجابي لحفظ الحياة البشرية من المنكر، وإقامتها على المعروف، مع الإيمان الذي يحدد المعروف والمنكر:

«تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ»..

إنه التعرض للشر والتحريض على الخير وصيانة المجتمع من عوامل الفساد..

وكل هذا متعب شاق، ولكنه كذلك ضروري لإقامة المجتمع الصالح وصيانته، ولتحقيق الصورة التي يحب الله أن تكون عليها الحياة..

ولا بد من الإيمان بالله ليوضع الميزان الصحيح للقيم، والتعريف الصحيح للمعروف والمنكر.

فإن اصطلاح الجماعة وحده لا يكفي.

فقد يعم الفساد حتى تضطرب الموازين وتختل.

ولا بد من الرجوع إلى تصور ثابت للخير وللشر، وللفضيلة والرذيلة، وللمعروف والمنكر. يستند إلى قاعدة أخرى غير اصطلاح الناس في جيل من الأجيال.

وهذا ما يحققه الإيمان، بإقامة تصور صحيح للوجود وعلاقته بخالقه. وللإنسان وغاية وجوده ومركزه الحقيقي في هذا الكون..) [٤].

أقول: إن اختيار هذه الأمة لهذا الدور الكبير والشاق ليس تشريفا وتكريما بقدر ما هو تكليف تنقطع دونه الأعناق..

هو تكليفٌ استلزمه الإيمان العميق بالله، وبمنهجه في إصلاح الحياة، ويستلزم هو بدوره إثبات حقيقة هذا الإيمان على أرض الواقع عملا وقولا يقيمان منهج السماء على الأرض..

وهذا اعتقادنا ندين لله به، ولا نخشى في الله لومة لائم..

---

٤ في ظلال القرآن لسيد قطب ١/ ٤٤٦-٤٤٩ ط. الشروق مصر. بتصرف يسير وحذف.

(فإن المسلم لم يخلق ليندفع مع التيار، ويساير الركب البشري حيث اتجه وسار، بل خلق ليوجه العالم والمجتمع والمدينة، ويفرض على البشرية اتجاهه، ويملي عليها إرادته، لأنه صاحب الرسالة وصاحب العلم اليقين.

ولأنه المسؤول عن هذا العالم وسيره واتجاهه.

فليس مقامه مقام التقليد والإتباع إن مقامه مقام الإمامة والقيادة ومقام الإرشاد والتوجيه، ومقام الآمر الناهي.

وإذا تنكر له الزمام، وعصاه المجتمع وانحرف عن الجادة، لم يكن له أن يستسلم ويخضع ويضع أوزاره ويسالم الدهر، بل عليه أن يثور عليه وينازله، ويظل في صراع معه وعراك، حتى يقضي الله في أمره.

إن الخضوع والاستكانة للأحوال القاسرة والأوضاع القاهرة، والاعتذار بالقضاء والقدر من شأن الضعفاء والأقزام.

أما المؤمن القوي فهو بنفسه قضاء الله الغالب وقدره الذي لا يرد) [٥].

إن الرجال في الإسلام لا يعرفون اليأس من الحياة، ولا يهابون الموت، فحتى الموت – عينه– يصنعون منه حياةً؛ ولكنها حياةٌ أبدية في نعيمٍ لا ينقطع..

يقاتلون من أجل نشر النور، والحق، والعمار، والخير؛ ولا يبالون بأى ثمنٍ يدفعونه في طريقهم نحو تحرير العباد من رِق العباد، ومن رِق الشهوات، وإخراجهم إلى النور من داهم الظلمات..

ذلك لأن موتاً واحداً يخلِّف حيواتٍ لا تُحصى لقلوبٍ دخلها نور الإسلام..

ولنرجع إلى جوستاف لوبون وكتابه حضارة العرب لنسمعه يقول:

---

٥ من بحث للأستاذ أبي الحسن الندوي رحمه الله تعالى عنوانه: – شاعر الإسلام الدكتور محمد إقبال ص ٦٦ – ٦٨.

(إن حضارة العرب المسلمين قد أدخلت الأمم الأوربية الوحشية في عالم الإنسانية، فلقد كان العرب أساتذتنا ...

وإن جامعات الغرب لم تعرف لها مورداً علمياً سوى مؤلفات العرب.

فهم الذين مدّنوا أوربة مادةً وعقلاً وأخلاقاً، والتاريخ لا يعرف أمة أنتجت ما أنتجوه..

إن أوربة مَدينةٌ للعرب بحضارتها..

والحق إن أتباع محمد كانوا يذلّوننا بأفضلية حضارتهم السابقة، وإننا لم نتحرر من عقدتنا إلا بالأمس! وإن العرب هم أول من علّم العالم كيف تتفق حرية الفكر مع استقامة الدين..

فهم الذين علّموا الشعوب النصرانية؛ وإن شئت فقل حاولوا أن يعلموها التسامح الذي هو أثمن صفات الإنسان..

ولقد كانت أخلاق المسلمين في أدوار الإسلام الأولى أرقى كثيراً من أخلاق أمم الأرض قاطبة ...).

وبعد هذه الكلمات الصادحة بنور الحق من لسان رجلٍ هو الأكثر حرصاً على تاريخه وحضارته؛ يعترف فيها بأن الحرية والحضارة والتمدن والعلم كان كل ذلك وأكثر حينما كان الإسلام في الصدارة..

بعد هذا الحديث الشجى يؤسفني كل الأسف أن باتت حضارة الرجولة بين المسلمين – بل وفي العالم بالتبعية – طرفاً من أطراف حكايات التاريخ، وصرنا نرى ضوضاء المخنثين والمطالبين بحقوق الشواذ في كل مكان.

وما ذلك إلا لأن الرجال في الذكور قليل، والأبطال في الرجال أقل..

ذُلَّ المسلمون من بعد عزة، وصاروا في ذيل الأمم وقد كانوا رأسها..

وما ذلك إلا لأنهم تمردوا على مدرسة محمد صلى الله عليه وسلم ونبذوا تعاليمها وراء ظهورهم؛ وخدعهم الفرنجة ببريق مدارسهم..

فبعد أن قادوا الأمم في مدرستهم النبوية، صاروا التلاميذ الأغبى والمنبوذين في مدارس غيرهم.. مع أنهم –وباعترافهم– عالةٌ علينا، قد أخذوا مِنَّا الأخلاق والقيم والعلوم والفنون...

ولكن أين المشكلة؟

لقد تسهل الكلمات وتأخذنا المعاني البراقة، والتنظير المنمق؛ ولكن المسلمين اليوم في مأزقٍ حقيقيٍ، مأزق المفارِقة الحقيقية بين المنهج والتطبيق..

مأزق التباعد المستمر والمتعاظم بين الادعاء والحقيقة، النظرية والعمل..

بين الإيمان كمعنى والإثبات الواقعي لهذا الإيمان..

ولنفهم المشكلة نقول (إن مشكلة العالم الإسلامي اليوم ليست في عدم الدعاوى للإسلام بين غير المسلمين، ولا في اكتساب مسلمين جدد.

وإنما هذه المشكلة هي انصراف المسلمين عن الإسلام، وعن الشرِق إلى الغرب بحضارته وقيمه التي يدعو إليها وموازينه التي بها يزن الأمور.

ومن ثمَّ صرنا مسلمين بالاسم الولادة والموقع الجغرافي فحسب، وعزفنا عن الإسلام بالفعل، حتى أصبحنا ولا نعرفه في تشريعنا وتقاليدنا التي نأخذ هذه الأيام أنفسنا بها.

ولسنا في حاجة في هذا لضرب الأمثال التي نحسها ونلمسها جميعاً في رجال الحكم، وفي ممثلي البلاد الإسلامية في الشرِق والغرب، وفيمن يجب أن يكون القدوة الطيبة بحكم مناصبهم الدينية في مصر وغير مصر، والأمر لله من قبل ومن بعد.

ولكن الله الرحمن الرحيم ترك فينا بعد هذا، أو بسبب هذا، كتاباً لن يضل من اتبعه، وشريعته لن يشقى من عمل بها.... وليس لنا أن نطلب من أحد أن يؤمن بهذا الدين قبل أن نؤمن نحن أولاً به، ولن يكون هذا الإيمان إلا بالقدوة الطيبة الصالحة نقدمها للناس جميعاً.

إن العالم يتخذ من فشل المسلمين سياسياً واقتصادياً دليلاً حاسماً على عدم صلاح الإسلام لقيادة المسلمين بله العالم كله!

(هذا مع أن هذا العالم المسيحي نفسه حين كان المسلمون مسلمين حقاً من ناحية العقيدة والعمل على السواء، قد تزعزع عن مسيحيته عندما شاهد ما أحرزته سيوف المسلمين من نجاح منقطع النظير، إذ اعتقدوا- بحق – أن نجاح المسلمين هذا دليل قاطع على صدق دينهم، مادام الله لا يؤتي نصره إلا لعباده المختارين)[٦] كما يقول السير توماس أرنولد صاحب كتاب (الدعوة إلى الإسلام).

وليس ما نقول، من أثر القوى الطيبة الصالحة في الدعاوى للإسلام، بالقول الذي لا يرتكز على دليل وشواهد من التاريخ الصحيح.

إن صاحب كتاب الدعوة إلى الإسلام نفسه يذكر ما يأتي حرفياً:

(ويظهر أن أخلاق صلاح الدين، وحياته التي انطوت على البطولة، قد أحدثت في أذهان المسيحيين في عصره تأثيراً سحرياً خاصاً، حتى أن نفراً من الفرسان المسيحيين، قد بلغ من قوة انجذابهم إليه، أن هجروا ديانتهم المسيحية، وهجروا قومهم وانضموا إلى المسلمين.

وكذلك كانت الحال عندما طرح النصرانية فارس انكليزي من فرسان المعبد يدعى (روبرت أوف سانت ألبانس) Robert of St. Albans عام ١١٨٥ م واعتنق الإسلام، ثم تزوج بإحدى حفيدات صلاح الدين وبعد عامين غزا صلاح الدين (فلسطين) وهزم الجيش المسيحي هزيمة منكرة في واقعة (حطين) وكان جوي Guy ملك بيت المقدس بين الأسرى.

وحدث في مساء المعركة أن ترك الملك ستة من فرسانه، وفروا إلى معسكر صلاح الدين بمحض إرادتهم)ا. هـ.[٧]....

إن هذا الإسلام لا يصلح اليوم إلا بما صلح به في الأمس.

لا يصلحه إلا إيمان به يخالط شغاف قلب المؤمن، واستعذاب للتضحية في سبيله بما يعتز به المرء من مال ونفس، واعتزاز بما جاء به من تشاريع ومبادئ وتقاليد صالحة لإنهاض العالم وإسعاده، ودعوة له

٦انظر في هذا الكتاب ((الدعوة إلى الإسلام)) للسير توماس أرنولد الإنجليزي المعروف ص ٧ من الترجمة العربية للدكتور حسن إبراهيم وآخرين.

٧ ص ٨٢- ٨٣ من الكتاب المذكور في المرجع السابق.

بالعمل الصالح والقوى الطيبة، وعدم القضاء إلا بحكمه، وجعل الحياة في كل جوانبها لا تقوم إلا عليه)[٨]. فهل نعي الدرس أم نظل التلاميذ الأغبى في التاريخ الإنساني؟!

٨ من مقدمة الدكتور محمد يوسف موسى على كتاب (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين)باختصار، لأبى الحسن الندوى، وهو كتاب رائع، ط. الرابعة، مكتبة الإيمان – المنصورة – مصر، ص١٥.

ولماذا إذن نكفر بحضارتنا وأبطالنا، ونستورد نماذجهم ؟!

لماذا نكفر بحضارتنا وأبطالنا، ونستورد نماذجهم؟

بهذا السؤال القاسي.. وبروح النقد النصيح، والتي لا تكون أبداً نقضاً أو فضحاً مهما قست..

تلك الروح البنَّاءة التي تصنع الرجال، وتبنى فيهم البطولة بناءا إسلامياً خالصاً..

و التي لم تكن أبداً لمنفعة الإسلام والمسلمين فحسب، بل هي البطولة الإسلامية التي تخلص العالم من فساده في الاعتقاد والعمل..

ومن تخبطه في الفكر والهدف.. ومن تعاسته التي صاغتها أيدي الضلال، وبناها الشيطان بحيلته.. حديثنا عن صناعةٍ كادت أن تندثر ملامحها في قلوب أصحابها، فبات الأقزام هم الرجال، وعم مرض فقدان ذاكرة البطولة لدى المسلمين؛ فاستوردوا النماذج الفاسدة للفكر والأخلاق، وصارت المعيار والمثل..

إنه الغزو الذي استعبد الأفكار وخالط الشعور والوجدان في الأدب والثقافة والعلم والإعلام. لقد استخدموا التاريخ لرسم مصائدهم ونصب شباكهم.. بل إنهم – حقيقةً – غزوا التاريخ..

الغزو التاريخي

(إن الغزو التاريخي ليس غزوا بالدبابات، أو الطائرات، أو حتى بالأفكار كالغزو الثقافي، بل هو أخطر من ذلك بكثير.

فالغزو التاريخي لا يحارب الواقع فقط، وإنما يحارب الماضي الذي بُنى عليه الحاضر.

ونظرية الغزو التاريخي تتلخص بأن يدمر الغزاة أسباب وجودنا أصلا على ساحة التاريخ.

وذلك بالتشكيك والطعن برموز الأمة، فينتج عن ذلك الشك بالروايات التي نقلها لنا رموزنا، أو التي نقلت عنهم بالأساس، قبل أن يقوم الغزاة بتسليط الضوء على مراحل الضعف التي مرت بها الأمة، أو حتى اختلاق قصص وهمية تشوه صورة تاريخنا في أعيننا، ليقوم هؤلاء بتحويل أبطالنا إلى قتلة قذرين، وعلمائنا إلى أشخاص مجانين؛ وفى أحسن الأحوال إلى شطبهم جميعا من ذاكرة التاريخ نهائيا.

في نفس الوقت يقوم هؤلاء الغزاة بتمجيد أبطال وهميين في تاريخهم؛ أو حتى في تاريخنا..

فيتحول (عمرو بن العاص) صاحب رسول الله النقي العادل إلى مجرم حرب؛ بينما يتحول المجرم (نابليون بونابرت) إلى فاتح عظيم تخلده كتبنا الدراسية..

ويصبح (عباس بن فرناس) مخترع الطيران عالما مجنونا؛ بينما يُمجد (اينشتاين) صاحب مشروع القنبلة النووية التي قتلت آلاف من الأبرياء..

وفى أحسن الحالات يعمل هؤلاء الغزاة على شطب اسم بطل حقيقى قلما رأت الأرض بطلا مثله كالبطل (أحمد بن فضلان)، ليوضع مكانه اسم بطل خرافى مثل (السندباد، أو علاء الدين، أو حتى اللص على بابا).

فلا يتبقى بذلك في تاريخنا الممتد إلا قادة مجرمين، أو علماء مجانين، أو أبطالا وهميين؛ لم يصبحوا أبطالا إلا بمصابيح سحرية، أو بسط طائرة..

فمن خلال (مصباح علاء الدين) – ومن خلاله فقط– يمكن لك أن تصبح بطلا ومسلما في آن واحد! وبعد أن يزرع فيك الغزاة هذا الاعتقاد الخطير، فإن مفهوم القدوة يسقط من عينيك من دون أن تحس أنت بذلك، وعندها وبكل سهولة.. نسقط أنا وأنت كالثمار العفنة)[9] ا. هـ.

9من كتاب (١٠٠من عظماء امة الإسلام – جهاد التربانى ص٢٧ ط التقوى مصر).

فما الخلاص؟

إن خير الكلام كلام الله، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم، وبهذين الأصلين اهتدت الأمة قديما، وهما سبيل نجاتها في سائر الأزمان والأحوال. من تمسك بهما رشد واستقام، ومن ضل عنهما غوى وهوى.

ويزداد يقيني يوما بعد يوم أنه لا خلاص لهذه الأمة من هذا الواقع الذي تعيشه، والبؤس الذي تحياه، لتعود كما كانت خير أمة أخرجت للناس، إلا بأن تجعل القرآن الكريم سبيل نجاتها، وحبل خلاصها، وهاديها من حيرتها، ومنقذها من رقدتها، به تحيا، وفي ضوئه تسير، وعلى منهاجه تموت، (وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا)(الحشر: من الآية٧).

الخلاص الوحيد هو في الرجوع إلى مدرسة محمد صلى الله عليه وسلم؛ وهى مدرسة عقدية وتشريعية وتربوية على أعلى المستويات وأرقاها، ولذلك فلا عجب أن نرى أخلاق الجيل الأول هي أخلاق القرآن، التي هي أخلاق إمامنا وإمام ذلك الجيل محمد صلى الله عليه وسلم الذي كان خلقه القرآن. ولذلك قادوا الدنيا بأسرها. لا بسيوفهم ولا بأموالهم، ولكن بأخلاقهم المستمدة من دينهم، ومثلهم المأخوذة من كتاب ربهم وسنة نبيهم صلى الله عليه وسلم. وأمتنا اليوم أحوج ما تكون إلى منقذ لها مما هي فيه جائعة والزاد بين يديها، عطشى والماء فوق ظهورها محمول.

ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها، وما صلح أولها إلا بالكتاب والسنة، "تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي أبدا، كتاب الله وسنتي".

إذن فهو الكتاب والسنة.. وهو الانتماء لله سبحانه ورسوله عليه السلام.. ولهما فقط، مع البراءة من كل منهجٍ يعتمد سواهما أصلا ويسير على غير هدى الأجيال الأولى التي بينت عملياً منهج النبى في إقامة الدين على أرض الواقع...

إن إقامة دين الله تعالى الذي ارتضاه لنا في حياتنا وبعد مماتنا يحتاج منا إلى:

١. إيمانا يقينينا وصحيحا بالله ورسوله، على أساس من العلم ولوكان مجملا، ولكنه واضحا بسيطا على وفق أصول الرسول وصحبه الكرام في فهم الدين نقيا كما أنزل..

وذلك قوله عز وجل: "فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا اللَّهُ" (سورة محمد١٩)

قال ابن جرير: أي فاعلم يا محمد أنه لا معبود تنبغي أو تصلح له الألوهة ويجوز لك وللخلق عبادته، إلا الله الذي هو خالق الخلق، ومالك كل شيء. يدين له بالربوبية كل ما دونه.

{فاعلم أَنَّهُ لاَ إله إِلاَّ الله} أي إذا علمتَ أنَّ مدارَ السعادةِ هو التوحيدُ والطاعةُ ومناطَ الشقاوةِ هو الإشراكُ والعصيانُ فاثبت على ما أنت عليه من العلمِ بالوحدانيةِ والعملِ بموجبِه {واستغفر لِذَنبِكَ} وهو الذي رُبَّما يصدرُ عنه عليه الصلاة والسلام من تركِ الأَوْلى عُبِّر عنه بالذنبِ نظراً إلى منصبِه الجليلِ كيفَ لا وحسناتُ الأبرارِ سيئاتُ المقربينَ وإرشادٌ له عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ إلى التواضعِ وهضمِ النفسِ واستقصارِ العملِ {وَلِلْمُؤْمِنِينَ والمؤمنات} أي لذنوبِهم بالدعاءِ لهم وترغيبِهم فيما يستدعي غفرانَهم. [١٠]

قال الزجاج: هذه الفاء جواب الجزاء. ومعناه قد بينا ما يدل على توحيد الله، فاعلم أنه لا إله إلا الله، والنبي صلّى الله عليه وسلم قد علم أن الله تعالى واحد. إنما خاطبه والمراد به أمته. وقال: هذا الأمر للنبي صلّى الله عليه وسلم خاصة. ومعناه. فاثبت على إظهار قول لا إله إلا الله. يعني: ادع الناس إلى ذلك. [١١]

لما ذكر سبحانه حال المؤمنين وحال الكافرين قال: إذا علمت أن الأمر كما ذكر من سعادة هؤلاء وشقاوة هؤلاء، فاثبت على ما أنت عليه من العلم بوحدانية الله، وعلى التواضع وهضم النفس باستغفار ذنبك وذنوب من على دينك. والله يعلم أحوالكم وتصرفاتكم ومتقلبكم في معايشكم ومتاجركم، ويعلم حيث تستقرون في منازلكم أو متقلبكم في حياتكم ومثواكم في القبور. أو متقلبكم في أعمالكم ومثواكم من الجنة والنار. ومثله حقيقٌ بأن يُخشى ويُتقى، وأن يُستغفر ويُسترحم. وعن

---

١٠ تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (٨/ ٩).

١١ تفسير السمرقندي = بحر العلوم (٣/ ٣٠٢)

سفيان بن عيينة: أنه سئل عن فضل العلم فقال: ألم تسمع قوله حين بدأ بالعلم فقال "فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ " فأمر بالعمل بعد العلم وكذلك قال: "اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيا لَعِبٌ وَلَهْوٌ " إلى قوله سبحانه "سابِقُوا إِلى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ "، وكذلك قال: "وَاعْلَمُوا أَنَّما أَمْوالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ"، ثم قال سبحانه بعد "فَاحْذَرُوهُمْ "يبدأ بالعلم ثم يأمر بالعمل بعد. [١٢]

قال السعدي في تفسيره: العلم لا بد فيه من إقرار القلب ومعرفته، بمعنى ما طلب منه علمه، وتمامه أن يعمل بمقتضاه.

وهذا العلم الذي أمر الله به –وهو العلم بتوحيد الله– فرض عين على كل إنسان، لا يسقط عن أحد، كائنا من كان، بل كل مضطر إلى ذلك. والطريق إلى العلم بأنه لا إله إلا هو أمور: أحدها بل أعظمها: تدبر أسمائه وصفاته، وأفعاله الدالة على كماله وعظمته وجلالته (١) فإنها توجب بذل الجهد في التأله له، والتعبد للرب الكامل الذي له كل حمد ومجد وجلال وجمال.

الثاني: العلم بأنه تعالى المنفرد بالخلق والتدبير، فيعلم بذلك أنه المنفرد بالألوهية.

الثالث: العلم بأنه المنفرد بالنعم الظاهرة والباطنة، الدينية والدنيوية، فإن ذلك يوجب تعلق القلب به ومحبته، والتأله له وحده لا شريك له.

الرابع: ما نراه ونسمعه من الثواب لأوليائه القائمين بتوحيده من النصر والنعم العاجلة، ومن عقوبته لأعدائه المشركين به، فإن هذا داع إلى العلم، بأنه تعالى وحده المستحق للعبادة كلها.

الخامس: معرفة أوصاف الأوثان والأنداد التي عبدت مع الله، واتخذت آلهة، وأنها ناقصة من جميع الوجوه، فقيرة بالذات، لا تملك لنفسها ولا لعابديها نفعا ولا ضرا، ولا موتا ولا حياة ولا نشورا، ولا ينصرون من عبدهم، ولا ينفعونهم بمثقال ذرة، من جلب خير أو دفع شر، فإن العلم بذلك يوجب العلم بأنه لا إله إلا هو وبطلان إلهية ما سواه.

السادس: اتفاق كتب الله على ذلك، وتواطؤها عليه.

---

١٢ تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (٤/ ٣٢٤)

السابع: أن خواص الخلق، الذين هم أكمل الخليقة أخلاقا وعقولا ورأيا وصوابا، وعلما –وهم الرسل والأنبياء والعلماء الربانيون– قد شهدوا لله بذلك.

الثامن: ما أقامه الله من الأدلة الأفقية والنفسية، التي تدل على التوحيد أعظم دلالة، وتنادي عليه بلسان حالها بما أودعها من لطائف صنعته، وبديع حكمته، وغرائب خلقه.

فهذه الطرق التي أكثر الله من دعوة الخلق بها إلى أنه لا إله إلا الله، وأبداها في كتابه وأعادها عند تأمل العبد في بعضها، لا بد أن يكون عنده يقين وعلم بذلك، فكيف إذا اجتمعت وتواطأت واتفقت، وقامت أدلة التوحيد من كل جانب، فهناك يرسخ الإيمان والعلم بذلك في قلب العبد، بحيث يكون كالجبال الرواسي، لا تزلزله الشبه والخيالات، ولا يزداد –على تكرر الباطل والشبه– إلا نموا وكمالا.

هذا، وإن نظرت إلى الدليل العظيم، والأمر الكبير –وهو تدبر هذا القرآن العظيم، والتأمل في آياته– فإنه الباب الأعظم إلى العلم بالتوحيد ويحصل به من تفاصيله وجمله ما لا يحصل في غيره. [١٣]

٢. واعتزاز أبيٌّ بمنهج الله تعالى في إصلاح الحياة كما بلغَّه رسول الله صلى الله عليه وسلم بلا تزيّدٌ ولا تدخل هوائيٌّ من عقول قاصرةٍ تدعي انها تجدد الدين لمواجهة الحياة؛ ولا يدركون أن الحياة نفسها هي والحياء جميعا من خلق الله الذي وضع لها ما يصلحها...

٣. التربية الصادقة في ظل هذا المنهج والتواصي الجميل والحكيم والمثابر به، وحمله بأمانة للمجتمع في محاولة دؤوب لنشر الإيمان بمنهج الرسول بين جنبات الدنيا كلها، وإقامة حياة السماء على وجه الأرض...

٤. الصبر البطل على المعاناة والحروب المستمرة لحملة المنهج؛ حملة الحق.. إذ أن الباطل في حرب مستمرة مع الحق وحملته إلى يوم الدين، ولا تقوم دولة التمكين إلا على ساق الابتلاء وعمود الصبر...

---

١٣ تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص: ٧٨٧)

إن الخلاص في الرجوع إلى مدرسة محمد صلى الله عليه وسلم الإيمانية..

هذه المدرسة التي صنعت الرجال والأبطال!..

وإذا كان الحاقدين على الإسلام، والذين تواترت آراؤهم واعتقاداتهم في اعتباره – أي الإسلام- الخطر الأعظم على حضارتهم (اللا أخلاقية)؛ إذا كانوا أرادوا فرض رموزهم المزيفة، وأبطالهم الوهمية على عقولنا بكل وسيلةٍ فكريةٍ أو إعلاميةٍ أو أدبية..

وقد ساعدهم في ذلك إما جهل مخزٍ بروائع تاريخنا، ورجال نهضتنا، وأبطال حضارتنا، أو بتجهيلٍ متعمَّدٍ ممن يخشى عودة الإسلام..

ذلك الذي يخشى عودة الإسلام إما لأنه يهدم أركان دولة الظلمة من الحكام الفسدة وأشباههم، وإما لأنه يفضح الكفرة والحقدة من منافقي الأمة وطابورها الخامس.

لقد ألقى هؤلاء بجراثيمهم في جسد الأمة الهزيل، وقد ضعفت المناعة لبعد عهدنا بالإسلام الحق. واجتمع على هذا الضعف وجود بيئة النفاق والتلفيق والتشكيك والتزوير..

وهى بيئةٌ عفنة نمت فيها أمراضٌ كثيرةٌ ودمرت في أنسجة الحضارة الإسلامية الكثير..

و الآن صار الحل الأمثل؛ وإن كان الأصعب هو إعادة بناء المناعة الإيمانية، وكذا إنشاء جيلٍ جديدٍ من الرجال يتم تربيتهم في مدرسة محمد صلى الله عليه وسلم الخاصة للرجولة، ثم انتقاء نجباء هذه المدرسة لإعدادات البطولة التي تجعل من الأمة جسدا قويا يقاوم أى مرض، بل ويصف الدواء لأدواء العالم أجمع..

قال أبو داود رحمه الله تعالى في سننه بسند صحيح بطرقه: (باب في تداعي الأمم على الإسلام).

عن ثوبان رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: (يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها، فقال قائل: ومن قلةٍ نحن يومئذ؟! قال: بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفن الله في قلوبكم الوهن، فقال قائل: يا رسول الله! وما الوهن؟ قال: حب الدنيا وكراهية الموت().

باب تداعي الأمم على الإسلام، يعني: على أهل الإسلام، والمقصود من ذلك أن الكفار يتداعون على المسلمين، ويكون لهم القوة والغلبة، ويكون المسلمون معهم كالطعام الذي يتداعى عليه الأكلة من كل جانب.

قال الطيبي: وَالْمَعْنَى: كَمَا يَدْعُو أَكَلَةُ الطَّعَامِ بَعْضُهُمْ بَعْضًا (إِلَى قَصْعَتِهَا) أَيِ: الَّتِي يَتَنَاوَلُونَ مِنْهَا بِلَا مَانِعٍ وَلَا مُنَازِعٍ، فَيَأْكُلُونَهَا عَفْوًا صَفْوًا، كَذَلِكَ يَأْخُذُونَ مَا فِي أَيْدِيكُمْ بِلَا تَعَبٍ يَنَالُهُمْ، أَوْ ضَرَرٍ يَلْحَقُهُمْ، أَوْ بَأْسٍ يَمْنَعُهُمْ. (" كَغُثَاءِ السَّيْلِ "): هو مَا يَحْمِلُهُ السَّيْلُ مِنْ زَبَدٍ وَوَسَخٍ، شَبَّهَهُمْ بِهِ لِقِلَّةِ شَجَاعَتِهِمْ، وَدَنَاءَةِ قَدْرِهِمْ، وَخِفَّةِ أَحْلَامِهِمْ، وَخُلَاصَتُهُ: وَلَكِنَّكُمْ تَكُونُونَ مُتَفَرِّقِينَ، ضَعِيفِي الْحَالِ، خَفِيفِي الْبَالِ، مُشَتَّتِي الْآمَالِ.

قوله: (قال قائل: ومن قلة نحن يومئذ؟) يعني: هل يتداعون علينا لقلتنا؟ (قال لا، أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل) يعني: هذه الكثرة لا قيمة لها والسبب في ذلك هو عدم القيام بما أوجب الله عز وجل على المسلمين من إظهار الدين، فتتغلب عليهم الأعداء، ويصيب المسلمين من أعدائهم الذل بعد أن كان الكفار يهابون المسلمين، وهذا الحديث منطبق تماماً على هذا الزمان، والمسلمون اليوم عددهم كثير جداً، ولكنهم مشتغلون بالدنيا، وحريصون على الدنيا، وخائفون من الموت، فصاروا يخافون من أعدائهم، وأعداؤهم لا يخافون منهم.

إن الطبيب الحاذق يعالج الداء بدءا من أسبابه ودواعيه قبل أن ينظر في أعراضه ونواحيه..

ومحمد صلى الله عليه وسلم طبيب ربانى يصف الداء ويشخصه ويحدد أسبابه والعوامل المساعدة عليه ثم يرسم الطريق محددا للخروج من سكرات الضعف ويصف الدواء على أفضل ما يكون..

روى الطبراني في الكبير – بسند حسن- عن ابن عباس رضى الله عنه [١٤]– قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «خمس بخمس: ما نقض قوم العهد إلا سلط عليهم عدوهم، وما حكموا بغير ما أنزل

١٤وهو في صحيح الجامع للألباني(٣٢٤٠)، وكذا صحيح الترغيب (٧٦٣)..

وقد ذكر صاحب (البيان والتعريف في أسباب ورود الحديث الشريف ٣٨/٢) في الحديث قصة يذكر فيها لفظه بتمامه فقال:

الله إلا فشا فيهم الفقر، ولا ظهرت فيهم الفاحشة إلا فشا فيهم الموت (وفي رواية: والأوجاع التي لم تكن في الذين من قبلهم)، ولا طففوا المكيال إلا منعوا النبات وأخذوا بالسنين، ولا منعوا الزكاة إلا حبس عنهم القطر».

وقد صدق والله المصطفى صلى الله عليه وسلم – وحدث في امتنا ما كان يحذر.. والحديث الشريف لا يفتقر إلى مزيد تعليق فتنبه.

سَببه كَمَا فِي الْجَامِع الْكَبِير عَن عَطاء بن أبي رَبَاح قَالَ كنت جَالِسا مَعَ ابْن عمر فَأَتَاهُ رجل من أهل الْعرَاق فَسَأَلَهُ عَن إرْسَال الْعِمَامَة خَلفه فَقَالَ لَهُ ابْن عمر سأنبئك عَنهُ بِعلم إِن شَاءَ الله تَعَالَى كنت مَعَ رَسُول الله صلى الله عَلَيْهِ وَسلم عَاشر عشرَة رَهْط فِي مَسْجده فيهم أَبُو بكر الصّديق وَعمر بن الْخطاب وَعلي وَعُثْمَان وَعبد الرَّحْمَن بن عَوْف وَابْن جبل وَابْن مَسْعُود وَأَبُو مَسْعُود وَأَبُو سعيد الْخُدْرِيّ وَابْن عمر رَضِي الله عَنْهُم فَجَاءَهُ رجل من الْأَنْصَار فَسلم على النَّبِي صلى الله عَلَيْهِ وَسلم ثمَّ قَالَ: يَا رَسُول الله أَي الْمُؤمنِينَ أفضل ؟ قَالَ: أحْسنهم خلقا.

قَالَ: فَأَي الْمُؤمنِينَ أَكيس؟ قَالَ: أَكْثَرهم للْمَوْت ذكرا وَأَحْسَنهمْ لَهُ اسْتِعْدَادًا أُولَئِكَ هم الأكياس..

ثمَّ أمسك الْفَتى، وَأَقْبل علينا رَسُول الله صلى الله عَلَيْهِ وَسلم فَقَالَ: يَا معشر الْمُهَاجِرين خِصَال خمس، وَأَعُوذ بِاللَّه أَن تدركوهن: لَا تظهر الْفَاحِشَة فِي قوم قطّ حَتَّى يعلنوا بهَا إِلَّا فَشَا فيهم الطَّاعُون والأوجاع الَّتِي لم تكن مَضَت فِي أسلافهم الَّذين مضوا، وَلَا ينقصوا الْمِكْيَال وَالْمِيزَان إِلَّا أخذُوا بِالسِّنِينَ وَشدَّة المؤونة وجور السُّلْطَان عَلَيْهِم، وَلم يمنعوا زَكَاة أَمْوَالهم إِلَّا منعُوا الْقطر من السَّمَاء وَلَوْلَا الْبَهَائِم لم يمطروا، وَلم ينقضوا عهد الله وعهد رَسُوله إِلَّا سلط الله عَلَيْهِم عدوهم من غَيرهم فَأخذُوا بعض مَا كَانَ فِي أَيْديهم، وَلم تحكم أئمتهم بِغَيْر كتاب الله وَيَتَخَيَّرُوا فِيمَا أنزل الله إِلَّا جعل الله بأسهم بَينهم"..

ثمَّ أَمر النَّبِي صلى الله عَلَيْهِ وَسلم ابْن عَوْف أَن يتجهز لسرية يبعثها؛ فَأصْبح وَقد اعتم بعمامة من كرابيس سَوْدَاء، فأدناه إِلَيْهِ ثمَّ نقضهَا فعممه بِيَدِهِ وَأرْسل الْعِمَامَة خَلفه أَربع أَصَابِع أَو نَحْو ذَلِك فَقَالَ: هَكَذَا يَا ابْن عَوْف فاعتم فَإِنَّهُ أعرف وَأحسن.)ا.هـ..

وهنا لا بد من صناعة الرجال

قال ابن كثير بعد ذكره تفسير الآية: " فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (٣٦) رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ (٣٧النور)"... فَقَوْلُهُ: {رِجَال} فِيهِ إِشْعَارٌ بِهِمَمِهِمُ السَّامِيَةِ، وَنِيَّاتِهِمْ وَعَزَائِمِهِمُ الْعَالِيَةِ، الَّتِي بِهَا صَارُوا عُمَّارا لِلْمَسَاجِدِ، الَّتِي هِيَ بُيُوتُ اللَّهِ فِي أَرْضِهِ، وَمَوَاطِنُ عِبَادَتِهِ وَشُكْرِهِ، وَتَوْحِيدِهِ وَتَنْزِيهِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: {مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ} (الْأَحْزَابِ: ٢٣). ا. هـ.

وهنا لابد من صناعة الرجولة..

إنها الصناعة المقدسة والفريدة في الإسلام..

تلك الصناعة الربانية في مدرسة محمد صلى الله عليه وسلم تعنى أكثر ما تعنى بصناعة الرجال الذين يحملون المنهج غضا قويا على أكتافهم إلى سائر أصقاع الأرض..

إنه التفتيش عن الأبطال بين ركامٍ هائلٍ من تدني الأخلاق، وتدنس النفوس، وخور العزائم..

> وإنني لأذكر الحديث الذي رواه البخاري ومسلم والترمذي وابن ماجة عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «النَّاسُ كَإِبِلٍ مِائَةٍ، لَا تَكَادُ تَجِدُ فِيهَا رَاحِلَةً»[١٥]..

ولكن الإسلام دائما ما يراهن – وفي أحلك الظروف- على إخراج النجائب من الرواحل والتي تستطيع أن تبلغ بالرسالة ما شاء الله لها أن تبلغ وإن قلَّت..

---

١٥ (كإبل مائة لا تكاد تجد فيها راحلة) في النهاية: المعنى أن المرضي المنتجب من الناس في عزة وجوده كالنجيب من الإبل القوى على الأحمال والأسفار الذي لا يوجد في كثير من الإبل. يقع لفظ الراحلة على الذكر والأنثى. والهاء للمبالغة.]

وإن شئت أن تدلل على ذلك، فالتاريخ أعدل شاهد..

(فلقد وضع محمد صلى الله عليه وسلم مفتاح النبوة على قفل الطبيعة البشرية فانفتح على ما فيها من كنوز وعجائب وقوى ومواهب، أصاب الجاهلية في مقتلها، وأرغم العالم العنيد بحول الله على أن ينحو نحواً جديداً ويفتتح عهداً سعيداً، ذلك هو العهد الإسلامي الذي لا يزال غرة في جبين التاريخ. ..[١٦])

(ولقد انتصر محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم يوم صاغ من فكرة الإسلام شخوصا، وحول إيمانهم بالإسلام عملا، وطبع من المصحف عشراتٍ من النسخ ثم مئاتٍ وألوفاً، ولكنه لم يطبعها بالمداد على صحائف الورِق، إنما طبعها بالنور على صحائف القلوب، وأطلقها تعامل الناس وتأخذ منهم وتعطى، وتقول بالفعل والعمل ما هو الإسلام الذي جاء به محمد بن عبد الله (ﷺ) من عند الله ...[١٧])

(وبهذا الإيمان الواسع العميق والتعليم النبوي المتقن، وبهذه التربية الحكيمة الدقيقة وبشخصيته الفذة، وبفضل هذا الكتاب السماوي المعجز الذي لا تنقضي عجائبه ولا تخلق جدته، بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم في الإنسانية المحتضرة حياةً جديدةً..

عمد إلى الذخائر البشرية وهي أكداس من المواد الخام لا يعرف أحد غناءها، ولا يعرف محلها وقد أضاعتها الجاهلية والكفر والإخلاد إلى الأرض، فأوجد فيها بإذن الله الإيمان والعقيدة، وبعث فيها الروح الجديدة، وأثار من دفائنها وأشعل مواهبها، ثم وضع كل واحد في محله فكأنما خُلق له.

وكأنما كان المكان شاغراً لم يزل ينتظره ويتطلع إليه، وكأنما كان جماداً فتحول جسماً نامياً وإنساناً متصرفاً وكأنما كان ميتاً لا يتحرك فعاد حياً يملي على العالم إرادته، وكأنما كان أعمى لا يبصر الطريق فأصبح قائداً بصيراً يقود الأمم:

7ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، أبو الحسن الندوي، مكتبة الإيمان، المنصورة – مصر،ص١٠٤.

17من كلمات المفكر الاسلامى سيد قطب رحمه الله تعالى وعفا عنا وعنه.

{أَوَ مَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ منها}.

عمد إلى الأمة العربية الضائعة وإلى أناس من غيرها، فما لبث العالم أن رأى منهم نوابغ كانوا من عجائب الدهر وسوانح التاريخ...)[18]...

هؤلاء جميعا لم يكن ليذكرهم يومهم فضلا عن أن يذكرهم التاريخ ويباهى بهم..

ولنا أن نسأل: ماذا كان هؤلاء قبل الإسلام ؟.. لا شئ!!!..

ولكن الإسلام صنع منهم في مدرسة الحق رجالا يحملون النور للدنيا كلها..

هذبهم، ليهذب بهم ما أعوج في مسيرة الإنسانية والحياة.

وعلمهم الخير وأمرهم أن يزرعوه جنانا تحيط الأرض بالخضرة والجمال..

هذا إسلامنا يبنى الأبطال، ويهذب الرجولة في الرجال.. فأين نحن اليوم من الإسلام؟!

---

١٨ ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص١٠٢-١٠٣.

ولكن.. من أين ننطلق ؟!

و يجيئنا الجواب في كلماتٍ خالدةٍ للإمام المربي عبد الحميد بن باديس يقول:

(لن يصلح المسلمون حتى يصلح علماؤهم؛ فإنما العلماء من الأمة بمثابة القلب، إذا صلح صلح الجسد كله، وإذا فسد فسد الجسد كله.

وصلاح المسلمين إنما هو بفقههم الإسلام وعملهم له؛ وإنما يصل إليهم هذا على يد علمائهم.

فإذا كان علماؤهم أهل جمودٍ في العلم، وابتداعٍ في العمل، فكذلك المسلمون يكونون.

فإذا أردنا إصلاح المسلمين، فلنصلح علماءهم.

ولن يصلح العلماء إلا إذا صلح تعليمهم.

فالتعليم هو الذي يطبع المتعلم بالطابع الذي يكون عليه في مستقبل حياته، وما يتقبل من عمله لنفسه وغيره، فإذا أردنا أن نصلح العلماء فلنصلح التعليم.

ونعني بالتعليم ذلك التعليم الذي يكون به المسلم عالما من علماء الإسلام، يأخذ عنه الناس دينهم.

ولن يصلح هذا التعليم إلا إذا رجعنا به للتعليم النبوي في شكله وموضوعه، في مادت وصورته، فيما كان يعلم – صلى الله عليه وآله وسلم– وفي صورة تعليمه، فقد صح عنه– صلى الله عليه وآله وسلم– فيما رواه مسلم أنه قال: «إنما بعثت معلما... »[19].

روى مالك في الموطأ بسند صحيح، وروى غيره أيضا عن أبي هريرة– رضي الله عنه– أن رسول الله – صلى الله عليه وآله وسلم– خرج إلى المقبرة فقال:

«السلام عليكُم دارَ قوم مُؤمنِينَ، وإنَا إن شاء اللهُ بكمُ لاحقُونَ، وددتُ أني قد رأيت إخوانَنا».

فقالوا: يا رسول الله ألسنا بإخوانك؟

19مجلة الشهاب: الجزء ١١ – المجلد ١٠ رجب ١٣٥٣هـ– أكتوبر١٩٣٤م

قال «كلا، أنتُم أصحابي، وإخوانُنا الذينَ لم يأتوا بَعْدُ، وأنا فرطهم على الحوض».

فقالوا: يا رسول الله، كيف تعرف من يأتى بعدك من أمتك؟

قال: «أرأيتَ لو كان لرجل خيل غرٌ محجلة في خيل دُهْم بُهْم ألا يعرف خيلَه؟»

قالوا: بلى يا رسول الله.

قال: فإنهم يأتون يوم القيامة غُراً محجلين من أثَرِ الوضوء، وأنا فرطهم على الحوض[٢٠]. فلَيُذادُنَّ (أى يُدفَعون ويُبعَدون) رجالٌ عن حوضي كلما يُذاد البعير الضال، أناديهم: ألا هلم، ألا هلم، ألا هلم. فيقال: إنهم قد بدَّلوا بعدك. فأقول: فسحقا، فسحقا، فسحقا». صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم

ويكفينا تسميته- صلى الله عليه وآله وسلم- لمن لم يره من أمته بإخوانه، فنحن من إخوانه- صلى الله عليه واله وسلم- وكفى بهذه النسبة شرفا، فما على المسلم إلا أن يعمل بسنة نبيه- صلى الله عليه وآله وسلم- حتى تتحقق فيه هذه النسبة، وليس من الأدب ولا من الإيمان أن يستضعف المسلم هذه النسبة ويحاول تقويتها بنسبة أخرى إلى شخصٍ أو فكرٍ أو سمتٍ أو نهج آخر كائنا ما كان.

إن عنايته- صلى الله عليه وآله وسلم- بأمته في الآخرة خاصة بالثابتين على سنته منهم، فأما المبتدعون الذين بدلوا سنته وأحلوا محلها بدعتهم فإنه- صلى الله عليه وآله وسلم- يبعدهم عنه بقوله: (فسحقا، فسحقا، فسحقا). [٢١].

---

٢٠ قال الباجى في شرحه على موطأ مالك: [وأنا فرطهم على الحوض] يريد أن يتقدمهم إليه ويجدونه عنده. رواه ابن حبيب عن مالك. يقال فرطت القوم إذا تقدمتهم لترتاد لهم الماء وتهيء لهم الماء والرشاء.

٢١ يقول الشيخ العلامة ابن باديس رحمه الله تعالى:

ثم هذا الإبعاد معناه الحرمان من ماء الحوض في وقت شدة الحاجة إليه، فإن كان الابتداع والتبديل بالمروق من الدين فالإبعاد حرمان من الشفاعة أيضا، ويبقى ذلك المبتدع مخلدا في النار، وإن كان الابتداع لا يخرج من الدين، فالإبعاد عن الحوض لا يمنع المبتدع أن تناله الشفاعة، غير أن في الإبعاد عن الحوض عذابا بالظمأ وخزيا بالطرد. نسأل الله أن يحيينا على سنة رسوله الكريم، وأن لا يحرمنا من ماء حوضه العذب ولا من شفاعته المرجوة.

إن هذا هو الطريق.. وكل الطرق دونه خائبة بائرة..

وأتعجب كثيرا ممن ينسبون أنفسهم إلى جماعة كذا، وفرقة كذا، ومنهج كذا.. يردون على إبراهيم الخليل تسميتهم بأمر ربه (المسلمين)، ونسبتهم إلى أعظم رسولٍ وأجل رسالةٍ..

إن هذا هو الصراط المستقيم، وتلك هي السمات المميزة التي يعرفنا بها رسول الله صلى الله عليه وسلم. إن شرفنا الأوفى في أننا أتباعه، وإلا فلسنا سوى مشردين ضائعين هالكين بين أقذار الأمم، ومزابل التاريخ...!

> عن أنس رضى الله عنه – قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " آتِي بَابَ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَسْتَفْتِحُ فَيَقُولُ الْخَازِنُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَأَقُولُ: مُحَمَّدٌ. فيقولُ: بكَ أمرت أَن لا أفتح لأحد قبلك ". رَوَاهُ مُسلم وأحمد.

قَالَ الْجُنَيْد رَحمَه الله: يَقُول الله عز وَجل لرَسُوله صلى الله عَلَيْهِ وَسلم " وَعِزَّتِي وَجَلَالِي لَو أَتَوْنِي من كل طَرِيق أَو استفتحوا من كل بَاب لما فتحت لَهُم حَتَّى يدخلُوا خَلفك"

(فإن الله سبحانه غرس شجرة محبته ومعرفته وتوحيده في قلوب من اختارهم لربوبيته، واختصهم بنعمته، وفضلهم على سائر خليقته، فهى {كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَآءِ تُؤْتِيَ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا} (إبراهيم: ٢٤-٢٥).

فَكَذَلِكَ شَجَرَةُ الإيمان أَصلها ثابت في القلب وفروعها الكلم الطيب والعمل الصالح في السماءِ.

فلا تزال هذه الشجرة تخرج ثمرها كل وقت بإذن ربها من طيب القول وصالح العمل ما تقرُّ به عيون صاحب الأَصل وعيون حفظته وعيون أَهله وأَصحابه ومن قرب منه.

فإن من قَرَّت عينه بالله سبحانه قرت به كل عين، وأَنس به كل مستوحش، وطاب به كل خبيث، وفرح به كل حزين، وأَمن به كل خائف، وشهد به كل غائب، وذكَّرت رؤيته بالله، فإذا رؤى ذُكر الله، فاطمأَن قلبه إلى الله، وسكنت نفسه إلى الله، وخلصت محبته لله، وقصر خوفه على الله، وجعل رجاءَه كله لله. فإن سمع سمع بالله، وإن أَبْصر أَبصر بالله، وإن بطش بطش بالله، وإن مشى مشى بالله..

فبه يسمع، وبه يبصر، وبه يبطش، وبه يمشى، فإذا أَحب فللَّه وإذا أَبغض أبغض لله، وإذَا أَعطى فللَّه وإذَا منع فللَّه.

قد اتخذ الله وحده معبوده ومرجوه ومخوفه وغاية قصده ومنتهى طلبه.

واتخذ رسوله وحده دليله وإمامه وقائده وسائقه، فوحد الله بعبادته ومحبته وخوفه ورجائِهِ وإفراد رسوله بمتابعته والاقتداءِ به والتخلق بأَخلاقه والتأَدب بآدابه.

فله في كل وقت هجرتان:

هجرة إلى الله بالطلب والمحبة والعبودية والتوكل والإنابة والتسليم والتفويض والخوف والرجاءِ والإقبال عليه وصدق اللجإِ والافتقار في كل نفس إليه، وهجرة إلى رسوله في حركاته وسكناته الظاهرة والباطنة، بحيث تكون موافقة لشرعه الذى هو تفصيل محابّ الله ومرضاته، ولا يقبل الله من أَحد ديناً سواه، وكل عمل سواه فعيش النفس وحظها لا زاد المعاد) [٢٢]

الحقيقة أنه (لن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها)..

هذه الحقيقة الكبرى التي لطالما دشنها علماؤنا تحتاج منا لفهمٍ عميقٍ ودقيق؛ يخرجها من طيات الكتب إلى الواقع..

يخرجها غرساً في أرض الإيمان.. الإيمان بالله قبل كل شئ، والإيمان برسالتنا في الوجود.. والإيمان بأنفسنا وقدراتنا التي حبانا بها الله سبحانه في طريق الدعوة إليه..

وفي هذا الطريق نسترشد بمن سبقونا في درب الإيمان والهدى والخير والتمكين...

[٢٢] طريق الهجرتين وباب السعادتين (ص: ٧).

وهنا لابد من انتقاء رجال أشداء أوفياء لحمل الراية وتبليغ الرسالة، دستورهم يستمد قوته، وتأثيره، وجدواه، ومعناه من القرآن الكريم، وسنة النبى صلى الله عليه وسلم الأمين..

وهذه الأصول الأصيلة تضع للأمة {خارطة الطريق} نحو إقامة دولة الله في أرضه.. لا دولهم في أرض الله... تلك الخارطة التي غفل عنها كثير من المسلمين الذين يتشدقون بختم القرآن مرةً ومراتٍ في شهر رمضان..

وما ذلك إلا لأن القرآن صار في حياتنا زينةً لا منهجَ حياة..

وهذه الخطيئة هي ما جعلت الأفئدة والعقول والأرواح مهيأةً تماماً لتقبل الغث والسفيه من مذاهب الأرض..

هذا التصدير والغزو العقدي والثقافي والحضاري للقيم الغربية والغريبة عن مجتمعنا بعد تمهيدٍ وتمكينٍ ماكرٍ ومراوغٍ جعل منها قيماً سائغةً غير مستهجنةٍ في واقع مجتمعاتنا، وهو ما حذر منه القرآن برشيق عبارته يقول "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ (١٠٠)"..

والخطاب هنا للذين آمنوا..

الذين آمنوا بصلاحية منهجهم لإصلاح حياة الإنسان في كل زمان ومكان.. آمنوا بأسلافهم الذين رسموا لهم الطريق لإعمار الحياة، والارتقاء بالأحياء..

آمنوا بأنفسهم وقدراتهم على انتشال العالم من وحل الظلام..

آمنوا قبل أن يطلبوا من غيرهم الإيمان بهم..

هؤلاء الذين آمنوا يحذرهم القرآن من المحاولات المستمرة والدءوب من عدوهم الحضاري لغزو العقيدة والتاريخ والعقول بكل وسيلةٍ وبأى حيلةٍ..

وما ذلك إلا لأن الحسد أكل قلوبهم.. وعرفوا أن المسلمين انتصروا لما آمنوا بالإسلام وبأنفسهم..

ثم إن القرآن ليرسم طريق الخلاص والنجاة من هذا الغزو، ويستنكر على المسلمين في كل زمان كفرهم بمبادئهم وبإسلامهم، وهذا كتاب الله الهادي المنير يتلى فيهم، وفيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم خير قدوة وأعظم معلمٍ عرفته الدنيا..

إن الحل إذن هو الاعتصام بالله وبكتابه والاهتداء بسَنن رسوله، وبمن تربى في مدرسته وعلى يديه بمنهج القرآن العظيم..

أقول: بهذه التربية العميقة والفذة على أصفى وأرقى الاعتقاد ربى الإسلام رجاله..

ومن ههنا انطلقوا يحررون شعوب الأرض، ويدكون صروح الاستبداد والاستعباد، ويخرجون العباد من عبادة العباد إلى عبادة الرحمن الرحيم رب العالمين، شعارهم ودثارهم قوله تعالى " اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الأرض لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ " (الأعراف ١٢٨)....

إننا نستحق أن نعيد قراءة أنفسنا بتأنٍ وروية..

فإن المعرفة الحقيقية تبدأ دائماً بمعرفة الذات، ومحاولة كشف عوراتها؛ والتي ما فتأنا نسترها عن أعيننا حتى تكبرنا فوق فكرة العثرة والمحاولة.. الخطأ والتوبة.. الإدراك والاعتراف.. التدارك والإحسان..

صرنا ننسى أخطاءنا وتجاوزاتنا، والظلم المبين الذي ظلمنا به أنفسنا أولا ثم العالم الذي انتظر أمةً تحييه من مواته فإذا به بأمةٍ تجارى بهم الأهواء كما يتجارى داء الكلب بصاحبه[٢٣]..

---

٢٣ عن معاوية رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إن أهل الكتابين افترقوا في دينهم على ثنتين وسبعين ملة ، وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين ملة _ يعني الأهواء –كلها في النار إلا واحدة ، وهي الجماعة ، وإنه سيخرج في أمتي أقوام تجاري بهم تلك الأهواء ،كما يتجارى الكلب بصاحبه ,لا يبقى منه عرق ولا مفصل إلا دخله، والله _ يا معشر العرب _ لئن لم تقوموا بما جاء به نبيكم صلى الله عليه وسلم لغيركم من الناس أحرى ألا يقوم به ". صحيح أبي داود - الصفحة أو الرقم 4597 :حكم الألباني المحدث :حسن وهو في صحيح الجامع ٢٦٤١، وأشار العلامة احمد شاكر في مقدمة عمدة التفاسير إلى صحته..

أمةٌ لا تؤمن بنفسها وقد ضعف إيمانها بربها، ورسالتها في الوجود، فكيف يطلبون من غيرهم الإيمان بهم ؟!

أمةٌ نسيت تاريخها وضيعت حاضرها فلا معنى للمستقبل فيها..

أمةٌ صارت تستورد معانيها وثقافتها وتاريخها وحتى أخلاقها وآدابها من أعدائها فكيف النجاة لها ؟

قد أكون قاسيا بعض الشيء، ولكن قسوتي هي في الحقيقة غيرةٌ على ديني، وحضارتي وتراثي، وإيماني، وقد رأيت المخنثين يملأون حياتنا، ويقفزون في أفكارنا، ويسومون أحلامنا سوء العذاب..

رأيت الخائن، والمنافق، والعميل، والدسيس، والشهواني، والعلماني، والأهوائي، والمبتدع الضال، والتائه الحائر، والجاهل المهمَّش، والمقلِّد المضلَّل..

رأيت هؤلاء جميعاً ورأيت العلماء المحارَبين، وأهل الحق المطارَدين..

رأيتهم وأصواتهم لا تكاد تُسمع من ضجيج المخنثين المارِقين..

وحين رأيتهم تساءلت عن الخلاص..

خلاص النور من براثن الظلام.. فشق سمعي وبصري، وفتح قلبي، وأنار عقلي ضياء قوله تعالى في سورة الفتح " مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (٢٩)"..

فإذا أنا أمام منهجٍ متكامل أعد رجالاً ملأوا الدنيا عدلا كما ملئت جوراً، وأعادوا للرجولة معناها الحقيقي كما أرادها الله سبحانه نوراً يخرج الدنيا من الظلمات ويقيم شرع السماء على الأرض..

وهنا لمع في خاطري بريق فكرةٍ تضع بقعاً من الضوء على بعض أسس ومبادئ بناء الرجولة في الإسلام، لعلَّ استقرائنا لبعض هذه الأسس يفتح طريق قراءةٍ جديدةٍ لتراث رجالاتنا وأبطالنا، وينير لنا درب فهم تاريخنا والانطلاق في حاضرنا ومستقبلنا..

ولقد كنت من زمنٍ أملأ فمي ووجداني بأحاديث رجالٍ طالما ظننت التاريخ أمامهم صغيرا.

وطالما حلمت بمشروعٍ أضع فيه قدمي وأقدام غيري ممن لهم غيرة على هذا الدين الكريم، وبهم إيمانٌ بصلاحيته لإصلاح العالم..

أضع قدمي على طريق صناعة رجولة حقيقيةٍ تنجب أبطالاً يحملون مشاعل العودة للريادة بعد إفساد المفسدين، وظلم الظالمين..

وأنا هنا لست أسرد حكايات التاريخ سرداً – وقد ملأت كتب التاريخ الإسلامي والتي علاها التراب وشكت الازدراء والهجران — وإنما ألقى ببقع ضوءٍ على المبادئ الأصيلة في صناعة الرجال في الإسلام، وأشي ببعض مفاتيح قراءة تاريخ الإسلام، ومن ثم قراءة الذات، فقراءة الواقع، وفهمه، فإدراك سبل التعامل معه..

وهى المحاولة الأصعب لفتح آفاق المتلقي والذي أثق تماما بقدرته على ربط شتات أفكاري، ونسج صورةٍ متكاملةٍ وصحيحةٍ لطبيعة صناعة الأمة من خلال صناعة رجالها، وفهم تركيبة أبطالها..

وقد غلبتني الإشارة والتلميح عن الإفاضة والتصريح، وربما أبانت عما تفيض به العبارة من مبادئ تلك الصناعة الفريدة في الإسلام..

ضربت أمثلةً، وقد جلَّت تلك الأمثلة مواقف الرجال والأبطال في تاريخ الإسلام العظيم الذي جلَّ عن الحصر..

ولم يسعفني ترتيب، ثم رأيت اطراد الأفكار وتشابكها فلم أرد إخلال ما منَّ به الكبير المتعال.. ولعل هذا يدفع الملل، ويقدح في المتلقي زناد الدأب والمواصلة ليصل إلى الفكرة كاملةً في آخر بحثي هذا....

وهذا كتابي بين يدي أمتي محاولةٌ متواضعةٌ هزيلةٌ..

ولكنها لا تزال محاولةً لرسم معالم طريق العودة..

من كتاب الله، وسنة رسوله، وتتبُّعٌ استقرائي عميق لمسيرة رجالٍ تربوا على مبادئ الرجولة الحقة في هذه المدرسة الشامخة...

وإني قبل كل قارئٍ كريمٍ يشعر بتوقٍ لبطولة لم تكتمل؛ فيريد الالتحاق بمدرسة محمد صلى الله عليه وسلم الخاصة لصناعة الرجال..

أقول إنني قبل الجميع لمتشوقٌ لدخول أروقة هذه المدرسة والتمتع برحلةٍ فريدةٍ في ظلالها وفصولها عبر التاريخ[٢٤]..

نتعرف أسرار هذه الصناعة الربانية، ونخطو بأقدامنا أهم خطوات التمكين لنكون كما أراد ربنا " خير أمةٍ أُخرجت للناس "..

كتبه الفقير إلى عفو ربه

د/ محمد عبد المعطي محمد

تم تبييضه بحمد الله وتوفيقه غرة جماد أول ١٤٣٤هـ/١٣مارس ٢٠١٣م المنيا /مصر

٢٤لقد آثرت أن أجعل كتابي هذا في صناعة الرجولة في مدرسة محمد صلى الله عليه وسلم؛ ومن ثم أخرت الحديث عن صناعة البطولة في حياة المصطفى صلى الله عليه وسلم إلى مصنف آخر...وكذا كتاب آخر بعنوان (البطولة في حياة الانبياء) بإذن ربنا تعالى.

التوحيد دائما هو البداية والهدف.. محمد ورجاله ورسالتهم!

فإن تلك الرسالة المحمدية هي في أول وأقدس معانيها هي تحرير للإنسان من عبادة غير الله..

وهذه هي الأولى في مبادئ الإسلام.. وهذا هو الدرس الأول في حياة محمد صلى الله عليه وسلم ومدرسته؛ إنه الامل والإيمان الكامل بالنور والحياة..

إنه مَدَّ الحياة لتتصل بالربانية فتصير أكمل صور الحياة وأسعدها وأصفاها وأبعدها عن الظلام والظلم والمظلمين...

وحتى حينما يكون الموت ضرورةٌ فهو من أجل الحياة، ومن أجل اكتمالها وصفاء نورها..

والتاريخ (المنصف) يذكر أن محمدا صلى الله عليه وسلم لم يرفع سيفا قط إلا دفاعا عن النور في وجه الظلام أو دفاعا عن حاملي النور في وجه الظالمين المظلمين..

وإنني لأذكر رجلا جميلا من أتباع محمد صلى الله عليه وسلم هو ربعى ابن عامر – رضى الله عنه – حين جاء الفرس – إحدي قوتين هما الكبر في العالم حينها- يدعوهم للإسلام قبل القتال، وهو نهج محمد صلى الله عليه وسلم في قتاله؛ فلم يكن يقاتل ليقيم إمبراطورية ولا كان يقاتل لأجل المتاع والدنيا، وإنما قاتل محمد وقاتل أتباعه بعده لنشر الحق والخير والحياة.. وحينما جاءهم ربعى – رضى الله عنه – وَقَالُوا لَهُ: مَا جَاءَ بِكُمْ؟ فَقَالَ: اللَّهُ ابْتَعَثْنَا لِنُخْرِجَ مَنْ شَاءَ مِنْ عِبَادَةِ الْعِبَادِ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ، وَمِنْ ضِيقِ الدُّنْيَا إِلَى سِعَتِهَا، وَمِنْ جَوْرِ الْأَدْيَانِ إِلَى عَدْلِ الْإِسْلَامِ، فَأَرْسَلَنَا بِدِينِهِ إِلَى خَلْقِهِ لِنَدْعُوَهُمْ إِلَيْهِ، فَمَنْ قَبِلَ ذَلِكَ قَبِلْنَا مِنْهُ وَرَجَعْنَا عَنْهُ، وَمَنْ أَبَى قَاتَلْنَاهُ أَبَدًا حَتَّى نُفْضِيَ إِلَى مَوْعُودِ اللَّهِ. قَالُوا: وَمَا مَوْعُودُ اللَّهِ؟ قَالَ: الْجَنَّةُ لِمَنْ مَاتَ عَلَى قِتَالِ مَنْ أَبَى، وَالظَّفَرُ لِمَنْ بَقِيَ... وحينما سأله رستم – قائد الفرس حينها- وقد رأى مفاوضته رضى الله عنه – فقال له رستم: قال أسيّدهم أنت؟ قال: لا ولكن المسلمون كالجسد الواحد يجيز بعضهم عن بعض يجيز أدناهم على أعلاهم. فخلا رستم برؤساء قومه

وقال: رأيتم كلاما قط مثل كلام هذا الرجل؟ فأروه الاستخفاف بشأنه وثيابه. فقال: ويحكم إنما انظر إلى الرأي والكلام والسيرة والعرب تستخف اللّباس وتصون الأحساب.

ثم أرسل إلى سعد بن أبي وقاص رضى الله عنه — قائد المسلمين العظيم: أن ابعث إلينا ذلك الرجل، فبعث إليهم حذيفة بن محصن رضى الله عنه – ففعل كما فعل الأول (أى مثل ربعى) ولم ينزل عن فرسه، وتكلم وأجاب مثل الأول... وبعث في الغد عن آخر فجاءه المغيرة بن شعبة — رضى الله عنه – فلمّا وصل إليهم وهم على زيهم وبسطهم على أبهى أبهةٍ من مجلس رستم؛ فجاء المغيرة حتى جلس معه على سريره فأنزلوه، فقال: لا أرى قوما أسفه منكم، إنا معشر العرب لا نستعبد بعضا بعضا؛ فظننتكم كذلك، وكان أحسن بكم أن تخبروني أن بعضكم أرباب بعض؛ مع أني لم آتكم وإنما دعوتموني.. فقد علمت أنكم مغلوبون، ولم يقم ملك على هذه السيرة.

فقالت السفلة (أى العبيد والضعفاء): صدق والله العربيّ، وقالت الأساطين (أى الكبراء): لقد رمانا بكلام لا تزال عبيدنا ينزعون إليه (أى ان كلامه هيج في نفوس الضعفاء والعبيد نزعة الحرية واحترام الإنسانية الذي جاء به الإسلام، فتنبه).. ثم تكلم رستم فعظّم من شأن فارس وسلطانهم، وصغّر أمر العرب وقال: كانت عيشتكم سيئة، وكنتم تقصدونا في الجدب فنردّكم بشيء من التمر والشعير، ولم يحملكم على ما صنعتم إلا ما بكم من الجهد (أى لم يحرككم لحربنا إلا الفقر والطمع فيما عندنا)، ونحن نعطي أميركم كسوة وبغلا وألف درهم، وكل رجل منكم حمل تمر، وتنصرفون؛ فلست أشتهي قتلكم.

فتكلم المغيرة بن شعبة — رضى الله عنه – وخطب فقال: أما الّذي وصفتنا به من سوء الحال والضيق والاختلاف فنعرفه؛ ولا ننكره، والدنيا دول، والشدة بعدها الرخاء.. ولو شكرتم الله الذي آتاكم لكان شكركم قليلا عما أوتيتم. وقد أسلمكم ضعف الشكر إلى تغير الحال. وإن الله بعث فينا رسولا، ثم ذكر مثل ما تقدّم إلى التخيير بين الإسلام أو الجزية أو القتال.

فقال رستم: إذا تموتون دونها، فقال المغيرة: يدخل من قتل منا الجنة ويظفر من بقي منا بكم. فاستشاط غضبا وحلف أن لا يقع الصلح أبدا حتى أقتلكم أجمعين. وانصرف المغيرة وخلا رستم بأهل فارس وعرض عليهم مصالحة القوم، وحذّرهم عاقبة حربهم، فلجّوا. وبعث إليه سعد– رضى الله عنه –

يعرض عليه الإسلام ويرغّب (أى لهم في الإسلام)، فأجابه بمثل ما كان يقول لأولئك من الامتنان على العرب والتعريض بالمطامع، فلم يتفق شيء من رأيهم.) ا. هـ. [٢٥]

هؤلاء هم خريجو مدرسة محمد صلى الله عليه وسلم صنعهم على عينه – بإرشاد ربانى عظيم- ليكونوا النور والهدى للعالم التائه..

فهذا هو الإسلام، وغيره ليس بإسلام، وهو إذا حل في بيئة أحياها كما قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ} سورة الأنفال الآية٧٤..

(وإني لأتساءل ما هو الضيق الذي كان فيه الفرس، وما هي السعة التي فيها العرب ؟!

لقد أجمع التاريخ والمؤرخون على أن الفرس والروم كانوا يعيشون في رغد من العيش، ويتقلبون في أعطاف النعيم.. لقد اتسعت لهم الدنيا ولانت لهم الحياة. أما العرب فكانوا يعيشون في شظفٍ وفقر، والمدنية لم تكن تعقدت أمامهم بعد؛ فأين هي السعة؟!

إن ربعى بن عامر كان ينظر إلى هؤلاء الملوك والأمراء كما ينظر العاقل إلى دميً قد كُسيت ملابس فاخرة جميلة، وإلى تماثيل قد أحكمت صياغتها وتأنق صانعوها في إظهار قسماتها وملامحها، ولكنها تماثيل من حجر أو جبس لا حياة فيها، ولا حراك بها!

وكان ربعي كبقية المسلمين- يتمتع بالحرية التي عرّفه الإسلام بها، فتنقله من دنيا ضيقةٍ محدودةٍ خائفةٍ.. دنيا المعدّة والمادة، ودنيا الشهوات والأغراض، ودنيا الاستعباد، إلى دنيا القلب والروح والإيثار والمساواة والعدل والرحمة... وتلك هي السعة التي يتحدث عنها من تربى في مدرسة وحياة محمد صلى الله عليه وسلم)[٢٦]

(إن النماذج التي خرجها الإسلام من القادة والجنود قد اتصفوا بأخلاق حميدة وقيم سامية، فرفعت من المستوى الإنساني عند معتنقيها، فكان لها أثر كبير في إقبال أبناء البلاد المفتوحة على اعتناق

---

٢٥ البداية والنهاية ط الفكر (٧/ ٣٩- ٤٤)، وتاريخ ابن خلدون ٢/٥٢٩- ٥٣١. بتصرف يسير.

٢٦ كلمات ناصعة للشيخ العلامة أبي الحسن الندوي رحمه الله نقلا عن مقدمة محاضرة له نشرت في هدية مجلة الأزهر شهر ربيع الأول ١٤٣٠هـ بتقديم الدكتور محمد رجب بيومي رحمه الله.

الإسلام، فكم من أفواج من البربر دخلوا في الإسلام وقاتلوا في سبيله في عهد موسى بن نصير وكذلك في الهند، وبخاري وسمرقند وغير ذلك من البلدان فالمسلمون لم يفتحوا البلاد ليدمروها ويذلوا أهلها، وإنما ليعمروها ويعزوا أهلها، ويحرروهم من عبادة العباد إلى عبادة خالق العباد، ويخرجوهم من ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة، فهم أصحاب رسالة خالدة، تحمل للناس العدل والإنصاف وتحقق لهم الحرية والمساواة والكرامة الإنسانية، وبمجرد ما عرف الناس في البلاد المفتوحة أهداف المسلمين الحقيقية وتكشفت لهم حقيقة الإسلام أسرعوا إلى اعتناقه بأعداد كبيرة .كما سنعرفه فيما بعد . ولقد حرص المسلمون، على الوفاء بكل ما التزموا به ولم يكن هذا من حسن السياسة فقط فالوفاء بالعهد ليس تبرعاً من المسلمين يمنون به على الناس ولكنه مسئولية واجبة عليهم، قال تعالى ((وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا)) (الإسراء، الآية: ٣٤).)[٢٧]

ما زال نشر التوحيد نشرٌ للنور والعدل والمساواة والكرامة الإنسانية بين الناس جميعا، وتلك هي الرسالة الأولى للإسلام والمنهج الأهم في مدرسة محمد صلى الله عليه وسلم...

قال ابن القيم رحمه الله: (التَّوْحِيدُ أَوَّلُ دَعْوَةِ الرُّسُلِ، وَأَوَّلُ مَنَازِلِ الطَّرِيقِ، وَأَوَّلُ مَقَامٍ يَقُومُ فِيهِ السَّالِكُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى: قَالَ تَعَالَى: {لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ} (الأعراف: ٥٩) وَقَالَ هُودٌ لِقَوْمِهِ: {اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ} (الأعراف: ٦٥) وَقَالَ صَالِحٌ لِقَوْمِهِ: {اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ} (الأعراف: ٧٣) وَقَالَ شُعَيْبٌ لِقَوْمِهِ: {اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ} (الأعراف: ٨٥) وَقَالَ تَعَالَى: {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اُعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ} (النحل: ٣٦).

فَالتَّوْحِيدُ: مِفْتَاحُ دَعْوَةِ الرُّسُلِ، وَلِهَذَا قَالَ النَّبِيُّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – لِرَسُولِهِ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – وَقَدْ بَعَثَهُ إِلَى الْيَمَنِ – «إِنَّكَ تَأْتِي قَوْمًا أَهْلَ كِتَابٍ، فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ: عِبَادَةُ اللَّهِ وَحْدَهُ، فَإِذَا شَهِدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ فَرَضَ

٢٧ نقلا عن الدولة الأموية عوامل الازدهار وتداعيات الانهيار (٢/ ٥٨) للدكتور على محمد الصلابي.

عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ» وَذَكَرَ الْحَدِيثَ وَقَالَ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: «أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ»...) ا. هـ. [٢٨]

وما زال الإسلام يربى رجاله بطريقته الفذة يعلِّمهم صباح مساء.. يرددون بين يدي ربهم العزيز الحكيم في جميع صلواتهم " إياك نعبد وإياك نستعين "...

(قال الطبريّ – رحمه الله –: أي لك، اللهم، نخشع ونذلّ ونستكين. إقرارا لك بالربوبية لا لغيرك.

(قلت – أى القاسمي – رحمه الله: وفيه إعلام بما صدع به الإسلام من تحرير الأنفس لله تعالى وتخليصها لعبادته وحده. أعني: أن لا يشرك شيئا ما معه، لا في محبته كمحبته، ولا في خوفه، ولا في رجائه، ولا في التوكل عليه، ولا في العمل له، ولا في النذر له، ولا في الخضوع له، ولا في التذلل والتعظيم والسجود والتقرب، فإن كل ذلك إنما يستحقه فاطر الأرض والسموات وحده.

وذلك أن لفظ العبادة يتضمن كمال الذّل بكمال الحب.

فلا بد أن يكون العابد محبّا للإله المعبود كمال الحب، ولا بد أن يكون ذليلا له كمال الذل، وهما لا يصلحان إلا لله وحده.

فهو الإله المستحق للعبادة، الذي لا يستحقها إلّا هو، وهي كمال الحب والذل والإجلال والتوكل والدعاء بما لا يقدر عليه إلّا هو تعالى.

وقد أشار لذلك تقديم المفعول(إياك)، فإن فيه تنبيها على ما يجب للعبد من تخصيصه ربّه بالعبادة، وإسلامه وجهه لله وحده، لا كما كان عليه المشركون الذين ظهر النبي صلى الله عليه وسلّم عليهم، فقد كانوا متفرِقين في عبادتهم، متشاكسين في وجهتهم: منهم من يعبد الشمس والقمر، ومنهم من يعبد الملائكة، ومنهم من يعبد الأصنام، ومنهم من يعبد الأحبار والرهبان، ومنهم من يعبد الأشجار والأحجار... إلى غير ذلك، كما بينه القرآن الكريم....

٢٨مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (٣/ ٤١١).

وكما بيَّنه حديث أبي واقد الليثيّ قال: خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلّم إلى حنين ونحن حدثاء عهد بكفر، وللمشركين سدرة يعكفون عندها، وينوطون بها أسلحتهم يقال لها «ذات أنواط» فمررنا بسدرة فقلنا: يا رسول الله، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلّم: «الله أكبر، إنها السَنَن، قلتم- والذي نفسي بيده- كما قالت بنو إسرائيل لموسى: اجْعَلْ لَنا إِلهاً كَما لَهُمْ آلِهَةٌ قالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ- إلى قوله: وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعالَمِينَ (الأعراف: ١٣٨- ١٤٠) رواه الترمذيّ وصححه.

وأما عبادتهم للأحبار والرهبان ففي قوله تعالى: " اتَّخَذُوا أَحْبارَهُمْ وَرُهْبانَهُمْ أَرْباباً مِنْ دُونِ اللَّهِ (التوبة: ٣١)، وقد روى الإمام أحمد والترمذي عن عديّ بن حاتم أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلّم يقرأ هذه الآية اتَّخَذُوا أَحْبارَهُمْ وَرُهْبانَهُمْ أَرْباباً مِنْ دُونِ اللَّهِ.. " الآية، فقلت له: إنا لسنا نعبدهم، قال: «أليس يحرّمون ما أحلّ الله فتحرّمون، ويحلّون ما حرّم الله فتحلّونه؟» فقلت: بلى قال: «فتلك عبادتهم». فالعبادة أنواع وأصناف، ولا يتم الإيمان إلّا بتوحيدها كلها لله سبحانه...

قال شمس الدين بن القيم: ولهذا كان العبد مأمورا في كل صلاة أن يقول: " إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ "، والشيطان يأمر بالشرك، والنفس تطيعه في ذلك، فلا تزال النفس تلتفت إلى غير الله، إما خوفا منه، أو رجاء له، فلا يزال العبد مفتقرا إلى تخليص توحيده من شوائب الشرك، ولذا أخبر سبحانه عن المشركين أنهم ما قدروه حق قدره في ثلاثة مواضع من كتابه، وكيف يقدره حق قدره من جعل له عِدْلا وندا يحبه، ويخافه، ويرجوه، يذل ويخضع له، ويهرب من سخطه، ويؤثر مرضاته، والمؤثر لا يرضى بإيثاره). انتهى[٢٩]...

[29] نقلا عن تفسير القاسمي ٢٢٨/١، دار الكتب العلمية / بيروت.

خذها صريحةً دينك.. دينك.. لحمك.. دمك[٣٠]؛ هكذا سادوا!

يروي لنا البخاري في صحيحه عن خباب بن الأرت رضى الله عنه – وهو من المؤمنين الضعفاء المعذبين الذين كلُّوا تحت مختلف صنوف العذاب.. كان قد سُبي في الجاهلية فاشترته (أم أنمار)، وكان حدادا وكان النبي يألفه قبل النبوة، فلما شرّفه الله بها أسلم خباب، فكانت مولاته تعذبه بالنار فتأتي بالحديدة المحمّاة فتجعلها على ظهره ليكفر، فلا يزيده إلا إيمانا..

يَقُولُ خباب: «أَتَيْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَهُ فِي ظِلِّ الْكَعْبَةِ وَقَدْ لَقِينَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ شِدَّةً شَدِيدَةً، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ أَلَا تَدْعُو اللهَ لَنَا؟! فَقَعَدَ، وَهُوَ مُحْمَرٌّ وَجْهُهُ، فَقَالَ: إِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ لَيُمَشَّطُ أَحَدُهُمْ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ مَا دُونَ عَظْمِهِ مِنْ لَحْمٍ أَوْ عَصَبٍ مَا يَصْرِفُهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَيُوضَعُ الْمِنْشَارُ عَلَى مَفْرِقِ رَأْسِهِ فَيُشَقُّ بِاثْنَيْنِ مَا يَصْرِفُهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَلَيُتِمَّنَّ اللهُ هَذَا الْأَمْرَ حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ لَا يَخَافُ إِلَّا اللهَ عَزَّ وَجَلَّ وَالذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ»..

(ماذا عسى يفعل محمد صلى الله عليه وسلم لأولئك البائسين؟! إنه لا يستطيع أن يبسط حمايته على أحد منهم، لأنّه لا يملك من القوة ما يدفع به عن نفسه، وقد كان في صلاته يرمى عليه– وهو ساجد– بكرش الجزور أو رحم الشاة المذبوحة، وكانت الأنجاس تلقى أمام بيته، فلا يملك إلا الصبر.

إن محمدا صلوات الله وسلامه عليه لم يجمع أصحابه على مغنمٍ عاجلٍ أو آجل، إنه أزاح الغشاوة عن الأعين، فأبصرت الحقّ الذي حجبت عنه دهرا، مسح الران عن القلوب، فعرفت اليقين الذي فطرت عليه، وحرمتها الجاهلية منه، إنه وصل البشر بربهم، فربطهم بنسبهم العريق، وسببهم الوثيق، وكانوا قبلا– حيارى محسورين، إنه وازن للناس بين الخلود والفناء، فاثروا الدار الاخرة على الدار الزائلة، وخيّرهم بين أصنام حقيرة وإله عظيم، فازدروا الأوثان المنحوتة، وتوجّهوا للذي فطر السموات والأرض.

---

٩٢ جاء في الزهد لأحمد بن حنبل بسنده رقم ١٦٢٧ عَنِ الْحَسَنِ قَالَ: «ابْنَ آدَمَ دِينُكَ دِينُكَ فَإِنَّمَا هُوَ لَحْمُكَ وَدَمُكَ فَإِنْ يَسْلَمْ لَكَ دِينُكَ يَسْلَمْ لَكَ جِسْمُكَ وَدَمُكَ وَإِنْ تَكُنِ الْأُخْرَى فَنَعُوذُ بِاللَّهِ فَإِنَّهَا نَارٌ وَلَا تُطْفَأُ، وَجَسَدٌ لَا يَبْلَى وَنَفَسٌ لَا تَمُوتُ».

حسب محمّد صلى الله عليه وسلم أن قدّم هذا الخير الجزيل، وحسب أصحابه أن ساقته العناية لهم، فإذا أوذوا فليحتسبوا، وإذا حاربهم عبيد الرجس من الأوثان، فليلزموا ما عرفوا، والحرب القائمة بين الكفران والإيمان سينجلي غبارها يوما ما، ثم تنكشف عن شهداء وعن هلكى، وعن مؤمنين قائمين بأمر الله ومشركين مدحورين بإذن الله.

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يبثّ عناصر الثقة في قلوب رجاله، ويفيض عليهم ما أفاضه الله على فؤاده من أمل رحيب في انتصار الإسلام، وانتشار مبادئه، وزوال سلطان الطغاة أمام طلائعه المظفّرة في المشارق والمغارب، وقد اتخذ المستهزئون من هذه الثقة مادة لسخريتهم وضحكهم؛ كان الأسود بن المطّلب وجلساؤه إذا رأوا أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام يتغامزون بهم، ويقولون:

قد جاءكم ملوك الأرض الذين سيغلبون غدا على ملك كسرى وقيصر، ثم يصفّرون ويصفقون!!) [٣١].

ولا ينسى التاريخ أبدا كيف كان النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضي الله عنهم يتحمّلون الشدائد والأذى، والجوع والعطش، إظهاراً للدين المتين. وكيف هانت عليهم نفوسهم في الله لإعلاء كلمته.

عن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

" لقد أوذيت في الله وما يؤذى أحد، وأُخِفتُ في الله وما يخاف أحد، ولقد أتت علي ثلاثون من بين يوم وليلة وما لي ولبلال ما يأكله ذو كبد (أى إنسان أو حيوان) إلا ما يواري إبط بلال"

أخرجه أحمد والترمذي وابن ماجه وقال الترمذي: (حديث حسن صحيح)

أخرج الإمام أحمد، ابن ماجه عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: أول من أظهر الإسلام سبعة: رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر، وعمَّار وأمه سُميَّة، وصهيب، وبلال؛ والمقداد، رضي الله عنهم.

٣١ فقه السيرة للغزالي (ص: ١١٢)

فأما رسول الله صلى الله عليه وسلم فمنعه الله بعمِّه. وأما أبو بكر فمنعه الله بقومه. وأما سائرهم فأخذهم المشركون فألبسوهم أدْرُع الحديد وصهروهم في الشمس، فما منهم من أحد إلا وقد آتاهم على ما أرادوا إلا بلالاً، فإنه هانت عليه نفسه في الله. وهان على قومه، فأخذوه فأعطَوه الولدان، فجعلوا يطوفون به في شِعاب مكة، وهو يقول: أحد، أحد – كذا في البداية. نقلا عن حياة الصحابة.

وبمناسبة هذه السمة التي تميز الرجولة الإسلامية، وهى تلك الرفعة والعزة التي يرتقى إليها الرجل المسلم فيصير بطلا تهابه الجبال الشم..

بهذه المناسبة يعرض لنا التاريخ قصة نوع جديد وفريد من الرجولة والبطولة، ولنترك التاريخ يحكى منبهرا مثلنا تماما، فيقول:

(كَانَ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ حُذَافَةَ بِالشَّامِ، فَكَتَبَ عُمَرُ بْنُ الْخطاب إِلَى مُعَاوِيَة بن أبي سُفْيَان أغزو الرّوم، وَولي عَلَيْهِمْ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ حُذَافَةَ السَّهْمِيَّ، فَخَرَجَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ حُذَافَةَ عَلَى النَّاسِ، فَقِيلَ لَهُ (أى لقائد الروم هرقل) فِي طَرِيقِ الرُّومِ إِنَّ فِي نَاحِيَةِ كَذَا وَكَذَا رَجُلا مِنْ أَصْحَابِ هَذَا الرَّجُلِ (يعنى رجلا من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم، وهو عبد الله بن حذافة رضى الله عنه) فِيهِمْ.

فَحَمَلَتِ الرُّومُ عَلَى طَائِفَةٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، فَاقْتَطَعُوهُمْ (أى أخذوهم أسرى) وَمِنْهُمْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ حُذَافَةَ السَّهْمِيُّ، قَالَ فَلَمَّا دَخَلَ الرُّومُ عَلَى هِرِقلَ قَالُوا لَهُ: إِنَّ هَذَا الرَّجُلَ مِنْ قُرَيْشٍ يَعْنُونَ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ حُذَافَةَ، وَهُوَ ابْنُ عَمِّ مُحَمَّدٍ، فَدَفَعَهُ إِلَى رَجُلٍ فَقَالَ: أَجِعْهُ..

فَأَجَاعَهُ الرَّجُلُ فَكَانَ يَأْتِيهِ فِي كُلِّ يَوْمٍ بِلَحْمِ خِنْزِيرٍ فَيَضَعُهُ بَيْنَ يَدَيْهِ فَيَعْرِضُ عَنْهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ حُذَافَةَ، وَقَالَ رضى الله عنه: هَذَا طَعَامٌ لَا يَحِلُّ لَنَا أَكْلُهُ.

قَالَ: فَدَخَلَ الرَّجُلُ عَلَى هِرِقلَ، فَقَالَ لَهُ: أَتَيْتُهُ بِلَحْمِ خِنْزِيرٍ وَخَمْرٍ فَأَعْرَضَ عَنْهُ، وَقَالَ هَذَا طَعَامٌ لَا يَحِلُّ لَنَا أَكْلُهُ، فَإِنْ كَانَ لَكَ فِي الرَّجُلِ حَاجَةٌ فَأَطْعِمْهُ.. قَالَ هرِقل: فَاذْهَبْ فأطعمه شَيْئا، فذهب فَأَتَاهُ بِطَعَامٍ فَأَكَلَهُ، فَلَمَّا أُخْبِرَ هِرِقلُ بِذَلِكَ قَالَ قد بلوته بالضراء فابتليه بالسراء..

فَأَتَاهُ بالجواري وبألطاف وملاهي، فَلَمْ يَلْتَفِتْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ حُذَافَةَ إلى شيء مِنْ ذَلِكَ..

فَأَتَاهُ الرَّجُلُ فَأَخْبَرَهُ بِذَلِكَ، فَقَالَ لِلْجَوَارِي مَا كَانَ مِنْهُ إِلَيْكُنَّ حَرَكَةٌ؛ فَقُلْنَ لَا وَاللَّهِ مَا الْتَفَتَ إِلَيْنَا.. فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ هِرِقلُ فَأَتَاهُ، فَقَالَ لَهُ هِرِقلُ قَدْ بَلَوْتُكَ بِالسَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ فَصَبَرْتَ؛ فَهَلْ لَكَ أَنْ تُقَبِّلَ رَأْسِي وَتَنْجُوَ بِنَفْسِكَ، قَالَ (الرجل الأبيُّ البطل): لَا، قَالَ هرِقل: فَهَلْ لَكَ أَنْ تُقَبِّلَ رَأْسِي وَأَدْفَعَ لَكَ كُلَّ أَسِيرٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ عِنْدِي ؟ قَالَ: نَعَمْ.

فَقَبَّلَ رَأْسَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ حُذَافَةَ فَدَفَعَ إِلَيْهِ كُلَّ أَسِيرٍ عِنْدَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، فَقَدِمَ عَلَى عُمَرَ فَسَعَى بِهِ سَاعٍ إِلَى عُمَرَ، وَقَالَ إِنَّ هِرِقلَ قَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَعَهُ مَالا فَخَزنَهُ عَنْكَ، فَدَعَاهُ عُمَرُ فَقَالَ: أَيْنَ الْمَالُ الَّذِي بُعِثَ مَعَكَ إِلَيْنَا ؟ قَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مَا بَعَثَ إِلَيْكَ هِرِقلُ شَيْئًا..

فَكَتَبَ عُمَرُ إِلَى مُعَاوِيَةَ أَنِ اسْتَخْرِجْ لِي خَبَرَهُ وَافْحَصْ عَنْ أَمْرِهِ، فَاسْتَخْرَجَ مُعَاوِيَةُ خَبَرَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حُذَافَةَ وَكَتَبَ بِهِ إِلَى عُمَرَ، فَلَمَّا قَرَأَ عمر كتاب مُعَاوِيَة قَام إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حُذَافَةَ فَقَبَّلَ رَأْسَهُ، ثم قَالَ لَهُ عُمَرُ: يَرْحَمُكَ اللَّهُ مَا مَنَعَكَ إِذْ بَلَغَ بِكَ الْجَهْدُ مَا بَلَغَ أَنْ تَأْكُلَ لَحْمَ الْخِنْزِيرِ؟ فَقَالَ لَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ حُذَافَةَ: وَاللَّهِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ لَقَدْ علمت أَن ذَلِك موسوعا لي، وَلَكِنِّي كرهت أَن يشمت بِالإِسْلامِ وَأَهْلِهِ!)[٣٢]...

وجاء في أسد الغابة (عن ابن عباس، قال: " أسرت الروم عَبْد اللَّهِ بْن حذافة السهمي، صاحب النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال له الطاغية: تنصر وَإِلا ألقيتك في القِدر، لقدر (آنية كبيرة) من نحاس، قال: ما أفعل، فدعا بالقِدر النحاس فملئت زيتًا وأغليت، ودعا برجل من أسرى المسلمين فعرض عليه النصرانية، فأبى، فألقاه في البقرة، فإذا عظامه تلوح، وقال لعبد اللَّه: تنصر وَإِلا ألقيتك، قال: ما أفعل، فأمر به أن يلقى في البقرة فبكى، فقالوا: قد جزع، قد بكى، قال: ردوه، قال: لا ترى أني بكيت جزعًا مما تريد أن تصنع بي، ولكني بكيت حيث ليس لي إلا نفس واحدة يفعل بها هذا في اللَّه، كنت أحب أن يكون لي من الأنفس عدد كل شعرة في، ثم تسلط علي فتفعل بي هذا، قال: فأعجب منه وأحب أن يطلقه، فقال: قبل رأسي وأطلقك، قال: ما أفعل، قال: تنصر وأزوجك بنتي وأقاسمك ملكي، قال: ما أفعل، قال: قبل رأسي وأطلقك وأطلق معك ثمانين من المسلمين، قال: أما هذه

٣٢(ا.هـ. المحن، للإفريقي، أبو العرب (م: ٣٣٣هـ)، دار العلوم – الرياض،ط ١، ١٩٨٤م،١\٣٩٥) وذكرها مع زيادات أبو نعيم في معرفة الصحابة ٣\١٦١٥.

فنعم، فقبل رأسه، وأطلقه، وأطلق مع ثمانين من المسلمين، فلما قدموا عَلَى عمر بْن الخطاب قام إليه عمر فقبل رأسه، قال: فكان أصحاب رَسُول اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يمازحون عَبْد اللَّهِ فيقولون: قبلت رأس علج، فيقول لهم: أطلق اللَّه بتلك القبلة ثمانين من المسلمين ")[٣٣].

و جاء في سير أعلام النبلاء[٣٤]: (قَدِمَ بِالأُسَارَى عَلَى عُمَرَ، فَأَخْبَرَهُ خَبَرَهُ. فَقَالَ عُمَرُ: حَقٌّ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ أَنْ يُقَبِّلَ رَأْسَ ابْنِ حُذَافَةَ وَأَنَا أبدأ. فقبل رأسه... وَقَدْ رَوَى ابْنُ عَائِذٍ قِصَّةَ ابْنِ حُذَافَةَ فَقَالَ: حَدَّثَنَا الوَلِيْدُ بنُ مُحَمَّدٍ أَنَّ ابْنَ حُذَافَةَ أُسِرَ. فَذَكَرَ القِصَّةَ مُطَوَّلَةً وفيها: أطلق له ثلاث مئة أَسِيْرٍ وَأَجَازَهُ بِثَلاَثِيْنَ أَلْفِ دِيْنَارٍ وَثَلاَثِيْنَ وَصِيْفَةً وَثَلاَثِيْنَ وَصِيْفاً. وَلَعَلَّ هَذَا المِلِكَ قَدْ أَسْلَمَ سِرّاً. وَيَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ مُبَالَغَتُهُ فِي إِكْرَامِ ابْنِ حُذَافَةَ.)[٣٥] ا. هـ. ولا تعليق...

فأنظر رحمك الله كيف أن الرجال الذين رباهم محمد صلى الله عليه وسلم في مدرسته تعلموا وعلموا الدنيا كلها الثبات على الإيمان وتحمل الشدائد من اجل إعلاء كلمة النور والحق والتوحيد والحرية.. إنها أسمى الدروس في مدرسة الرسول: دينك.. دينك لحمك دمك....!!!!!

---

٣٣ أسد الغابة لابن الأثير ٣\٢١٣، ط العلمية

34سير أعلام النبلاء للذهبي (٣\٣٤٨ط دار الحديث، مصر)

٩١ جاء في البداية والنهاية لإبن كثير ٧/ ٢٤٧ دار إحياء التراث العربي:(عَبْدُ اللَّهِ بْنُ حُذَافَةَ بْنِ قَيْسٍ الْقُرَشِيُّ السَّهْمِيُّ، هَاجَرَ هُوَ وَأَخُوهُ قَيْسٌ إِلَى الحبشة، وكان من سادات الصحابة، وهو القائل: يا رسول الله من أبي؟ – وَكَانَ إِذَا لَاحَى الرِّجَالَ دُعِيَ لِغَيْرِ أَبِيهِ – فَقَالَ: أَبُوكَ حُذَافَةُ، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أرسله إِلَى كِسْرَى فَدَفَعَ كِتَابَهُ إِلَى عَظِيمِ بُصْرَى فَبَعَثَ مَعَهُ مَنْ يُوَصِّلُهُ إِلَى هِرِقلَ كَمَا تقدَّم، وَقَدْ أَسَرَتْهُ الرُّومُ فِي زَمَنِ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،....).فقد جمع الرجل بين فضائل لم تجتمع في كثير رجال، فقد أسلم قديمًا، وصحب رَسُول اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهاجر إِلَى أرض الحبشة الهجرة الثانية، قال أَبُو سَعِيد الخدري: إن عَبْد اللَّهِ شهد بدرًا، وشهد له رَسُول اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلم أنه ابن حذافة.وهى شهادة عظيمة بطهارة نسبه في جاهلية نجسة، وأرسله رَسُول اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بكتابه إِلَى كسرى يدعوه إِلَى الإسلام، فكان في ستة حملهم الرسول أمانة الرسالة لملوك الأرض بالإسلام.وكان فيه دعابة.. وله في مواقف الفروسية والبطولة الكثير.. راجع لذلك كتاب فتوح الشام وموقف أسره (ذكر غزوة مرج القبائل داخل الدروب) المجلد الثاني... فأين نحن من معرفة أبطالنا والكلمات مهما كثرت لا تعبر عن عشر معشار حقوقهم علينا، اللهم احشرنا مع محمد صلى الله عليه وسلم وصحبه...

من أسدٍ إلى أسد

روى ابن وضاح عن غير واحد أن أسد بن موسى كتب إلى أسد بن الفرات: (إعلم أي أخي إنما حملني على الكتاب إليك ما ذكر أهل بلادك من صالح ما أعطاك الله من إنصافك الناس، وحسن حالك مما أظهرت من السنة، وعيبك لأهل البدعة وكثرة ذكرك لهم، وطعنك عليهم، فقمعهم الله بك، وشد بك ظهر أهل السنة، وقواك عليهم بإظهار عيبهم والطعن عليهم فأذلهم الله بذلك، وصاروا ببدعتهم مستترين.

فأبشر أي أخي بثواب ذلك وأعتد به أفضل حسناتك من الصلاة والصيام والحج والجهاد. وأين تقع هذه الأعمال من إقامة كتاب الله وإحياء سنة رسوله، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من أحيا شيئا من سنتي كنت أنا وهو في الجنة كهاتين" وضم بين أصبعيه[٣٦]. وقال: "أيما داع دعا إلى هذا فاتبع عليه كان له مثل أجر من تبعه إلى يوم القيامة" فمن يدرك أجر هذا بشيء من عمله؟

وذُكر أيضا أن لله عند كل بدعة كيد بها الإسلام وليا لله يذب عنها، وينطق بعلاماتها.

فاغتنم يا أخي هذا الفضل وكن من أهله فإن النبي صلى الله عليه وسلم، قال لمعاذ رضى الله عنه حين بعثه إلى اليمن وأوصاه وقال: لأن يهدي الله بك رجلا خيرٌ لكَ من كذا وكذا- وأعظم القول فيه[٣٧]-

---

٣٦قلت:ضعف نحوه الألباني في الضعيفة برقم ٤٥٣٨- (من أحيا سنتي فقد أحبني، ومن أحبني كان معي في الجنة).قال الألباني: ضعيف.. وخيرٌ منه في معناه الحديث الصحيح لغيره –كما قال الألباني – عند ابن ماجة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " من أحيا سنة من سنتي فعمل بها الناس كان له مثل أجر من عمل بها لا ينقص من أجورهم شيئا ومن ابتدع بدعة فعمل بها كان عليه أوزار من عمل بها لا ينقص من أوزار من عمل بها شيئا".صحيح وضعيف ابن ماجة برقم (٢٠٩). وانظر رحمك الله كيف أن المرء يكسب ما لا يحصى كثرةً، وما يدركه عمل مثل عمره مراتٍ ومراتٍ بالدعوة الصادقة إلى السنة وقمع البدعة، وكذا حال الهلكى دعاة البدعة في كسب أوزارٍ لا تُحصى ببدعتهم.. فالسلامة والنجاء في لزوم سنة المصطفى صلى الله عليه وسلم..

٣٧روى البخاري ومسلم في الصحيحين عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، سَمِعَ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَقُولُ: يَوْمَ خَيْبَرَ: «لَأُعْطِيَنَّ الرَّايَةَ رَجُلًا يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَى يَدَيْهِ»، فَقَامُوا يَرْجُونَ لِذَلِكَ أَيُّهُمْ يُعْطَى، فَغَدَوْا وَكُلُّهُمْ يَرْجُو أَنْ يُعْطَى، فَقَالَ:

فاغتنم ذلك وادع إلى السنة حتى يكون لك في ذلك ألفة وجماعة يقومون مقامك إن حدث بك حادث، فيكونون أئمة بعدك فيكون ذلك ثواب لك إلى يوم القيامة كما جاء الأثر.

فاعمل على بصيرةٍ ونية وحِسْبةٍ (احتساب للأجر عند الله تعالى)، فيردَّ الله لك المبتدع المفتون الزائغ الحائر، فتكون خلفا من نبيك صلى الله عليه وسلم، فإنك إن تلقى الله بعملٍ يشبهه وإياك أن يكون لك من أهل البدع أخ أو جليس أو صاحب فإنه جاء الأثر (من جالس صاحب بدعة نزعت منه العصمة ووكل إلى نفسه ومن مشى إلى صاحب بدعة مشى في هدم الإسلام)[٣٨]. وجاء "ما من إله يعبد من دون الله أبغض إلى الله من صاحب هوى". وقد وقعت اللعنة من رسول الله صلى الله عليه وسلم على أهل البدع، وأن الله لا يقبل منهم صرفا ولا عدلا ولا فريضة ولا تطوعا، وكلما ازدادوا اجتهادا وصوما وصلاة ازدادوا من الله بعدا، فارفض مجالسهم وأذلهم وأبعدهم كما أبعدهم الله وأذلهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأئمة الهدى بعده".

هذا مثال من رسائل الأوائل يريك عناية السلف بالسنة والذب عنها، وبغضهم للبدعة ومحاربتهم لأهلها، ومن عرف مقام الأسدين المخاطِب والمخاطَب عرف مكانة تلك الرسالة.

فالمخاطِب (بالكسر) هو أسد بن موسى بن إبراهيم ابن الخليفة الوليد بن عبد المالك بن مروان. كان ثقة حافظا يلقب بأسد السنة. استشهد به البخاري واحتج به أبو داود والنسائى.

«أَيْنَ عَلِيٌّ؟»، فَقِيلَ: يَشْتَكِي عَيْنَيْهِ، فَأَمَرَ، فَدُعِيَ لَهُ، فَبَصَقَ فِي عَيْنَيْهِ، فَبَرَأَ مَكَانَهُ حَتَّى كَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ بِهِ شَيْءٌ، فَقَالَ: نُقَاتِلُهُمْ حَتَّى يَكُونُوا مِثْلَنَا؟ فَقَالَ: «عَلَى رِسْلِكَ، حَتَّى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الإِسْلاَمِ، وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ، فَوَاللَّهِ لَأَنْ يُهْدَى بِكَ رَجُلٌ وَاحِدٌ خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ» و(حمر النعم) هي الإبل الحمر وهي أنفس أموال العرب يضربون بها المثل في نفاسة الشيء وإنه ليس هناك أعظم منه]

٣٨ هو أثر رواه ابن وضاح في البدع عَنْ سُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ ، قَالَ: " مَنْ جَالَسَ صَاحِبَ بِدْعَةٍ لَمْ يَسْلَمْ مِنْ إِحْدَى ثَلَاثٍ: إِمَّا أَنْ يَكُونَ فِتْنَةً لِغَيْرِهِ ، وَإِمَّا أَنْ يَقَعَ فِي قَلْبِهِ شَيْءٌ فَيَزِلَّ بِهِ فَيُدْخِلَهُ اللَّهُ النَّارَ ، وَإِمَّا أَنْ يَقُولَ: وَاللَّهِ مَا أُبَالِي مَا تَكَلَّمُوا ، وَإِنِّي وَاثِقٌ بِنَفْسِي ، فَمَنْ أَمِنَ اللَّهَ عَلَى دِينِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ سَلَبَهُ إِيَّاهُ "

والمخاطَب (بالفتح) هو أسد بن الفرات بن سنان، تفقه بأصحاب مالك، ثم ارتحل فسمع من مالك موطأه وغيره، وأخذ عن أصحاب أبي حنيفة. قال في الديباج: "وكان ثقة لم يزن ببدعة". [٣٩]

روى الخطيب في شرف أصحاب الحديث: عن عبد الرحمن بن مهدي قال: سمعت مالك بن أنس رضي الله عنه يقول: سن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وولاة الأمر بعده سننا فالأخذ بها تصديق لكتاب الله عز وجل، واستكمال لطاعة الله وقوة على دين الله، من عمل بها مهتد ومن استنصر بها منصور ومن خالفها اتبع غير سبيل المؤمنين وولاه الله ما تولى...

– وجاء في الاعتصام: حكى ابن العربي عن الزبير بن بكار قال: سمعت مالك بن أنس وأتاه رجل فقال يا أبا عبد الله: من أين أحرم؟ قال من ذي الحليفة من حيث أحرم رسول الله – صلى الله عليه وسلم –، فقال: إني أريد أن أحرم من المسجد، فقال: لا تفعل. قال: فإني أريد أن أحرم من المسجد من عند القبر. قال: لا تفعل فإني أخشى عليك الفتنة. فقال: وأي فتنة هذه؟ إنما هي أميال أزيدها، قال: وأي فتنة أعظم من أن ترى أنك سبقت إلى فضيلة قصر عنها رسول الله – صلى الله عليه وسلم –؟ إني سمعت الله يقول: {فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}. اهـ

– وجاء في ذم الكلام عن ابن وهب قال: كنا عند مالك بن أنس فذكرت السنة فقال: السنة سفينة نوح من ركبها نجا ومن تخلف عنها غرق.

– وجاء في ذم الكلام عنه قال: من أراد النجاة فعليه بكتاب الله وسنة نبيه – صلى الله عليه وسلم – ..) ا. هـ. [٤٠]

---

٣٩ مجالس التذكير من حديث البشير النذير، عبد الحميد بن باديس، مطبوعات وزارة الشؤون الدينية، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ – ١٩٨٣م، ص١٨٨،١٨٧.

٤٠موسوعة مواقف السلف في العقيدة والمنهج والتربية، أبو سهل محمد بن عبد الرحمن المغراوي، المكتبة الإسلامية للنشر والتوزيع، القاهرة – مصر، ٢/٣.

قلتُ: هذه هي السنة الشريفة والمنهاج الرباني في ضبط حركة الإنسان على الأرض تنتقل من أسدٍ إلى أسدٍ ولا يحمل تبعاتها في زمن الغربة إلا الأسود ... إلا بالوقوف خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم إماما وقدوة وهاديا وسبيلا....

روى أحمد وأبو داود عن معاوية رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إن أهل الكتابين افترقوا في دينهم على ثنتين وسبعين ملة، وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين ملة ــ يعني الأهواء – كلها في النار إلا واحدة، وهي الجماعة، وإنه سيخرج في أمتي أقوام تجاري بهم تلك الأهواء، كما يتجارى الكلب بصاحبه، لا يبقى منه عرق ولا مفصل إلا دخله، والله ــ يا معشر العرب ــ لئن لم تقوموا بما جاء به نبيكم صلى الله عليه وسلم لغيركم من الناس أحرى ألا يقوم به ".[٤١]

---

٤١ جاء في مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (١/ ٢٦٠):

(ثِنْتَانِ وَسَبْعُونَ فِي النَّارِ وَوَاحِدَةٌ فِي الْجَنَّةِ، وَهِيَ الْجَمَاعَةُ)، أَيْ: أَهْلُ الْعِلْمِ وَالْفِقْهِ الَّذِينَ اجْتَمَعُوا عَلَى اتِّبَاعِ آثَارِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِي النَّقِيرِ وَالْقِطْمِيرِ، وَلَمْ يَبْتَدِعُوا بِالتَّحْرِيفِ وَالتَّغْيِيرِ.

قَالَ شُرَيْحٌ: إِنَّ السُّنَّةَ قَدْ سَبَقَتْ قِيَاسَكُمْ فَاتَّبِعْ وَلَا تَبْتَدِعْ فَإِنَّكَ لَمْ تَضِلَّ مَا أَخَذْتَ بِالْأَثَرِ، وَقَالَ الشَّعْبِيُّ: إِنَّمَا رَأْيِي بِمَنْزِلَةِ الْمَيْتَةِ إِذَا احْتَجْتَ إِلَيْهَا أَكَلْتَهَا، وَعَنْ سُفْيَانَ: لَوْ أَنَّ فَقِيهًا عَلَى رَأْسِ جَبَلٍ لَكَانَ هُوَ الْجَمَاعَةُ (وَإِنَّهُ سَيَخْرُجُ): وَفِي الْمَصَابِيحِ وَزَادَ فِي رِوَايَةٍ: وَإِنَّهُ سَيَخْرُجُ أَيْ يَظْهَرُ (فِي أُمَّتِي): وَفِي نُسْخَةٍ: مِنْ أُمَّتِي (أَقْوَامٌ)، أَيْ: جَمَاعَاتٌ (تَتَجَارَى): بِالتَّاءَيْنِ أَيْ تَدْخُلُ وَتَجْرِي وَتَسْرِي (بِهِمْ)، أَيْ: فِي مَفَاصِلِهِمْ (تِلْكَ الْأَهْوَاءُ): جَمْعُ هَوًى وَهُوَ مَيْلُ النَّفْسِ إِلَى مَا تَشْتَهِيهِ، وَالْمُرَادُ هُنَا الْبِدْعَةُ، فَوَضَعَهَا مَوْضِعَهَا وَضْعًا لِلسَّبَبِ مَوْضِعَ الْمُسَبَّبِ لِأَنَّ هَوَى الرَّجُلِ هُوَ الَّذِي يَحْمِلُهُ عَلَى إِبْدَاعِ الرَّأْيِ الْفَاسِدِ أَوِ الْعَمَلِ بِهِ، وَذِكْرُ الْأَهْوَاءِ بِصِيغَةِ الْجَمْعِ تَنْبِيهًا عَلَى اخْتِلَافِ أَنْوَاعِ الْهَوَى وَأَصْنَافِ الْبِدَعِ يُقَالُ: تَجَارُوا فِي الْحَدِيثِ إِذَا جَرَى كُلٌّ مِنْهُمْ مَعَ صَاحِبِهِ (كَمَا يَتَجَارَى الْكَلْبُ): بِفَتْحَتَيْنِ دَاءٌ مَخُوفٌ يَحْصُلُ مِنْ عَضِّ الْكَلْبِ الْمَجْنُونِ وَيَتَفَرَّقُ أَثَرُهُ (بِصَاحِبِهِ)، أَيْ: مَعَ صَاحِبِهِ إِلَى جَمِيعِ أَعْضَائِهِ، أَيْ: مِثْلُ جَرْيِ الْكَلْبِ فِي الْعُرُوقِ (لَا يَبْقَى مِنْهُ عِرْقٌ): بِكَسْرِ الْعَيْنِ (وَلَا مَفْصِلٌ إِلَّا دَخَلَهُ). فَكَذَلِكَ تَدْخُلُ الْبِدَعُ فِيهِمْ وَتُؤَثِّرُ فِي أَعْضَائِهِمْ، قِيلَ: الْكَلْبُ دَاءٌ يَعْرِضُ لِلْإِنْسَانِ مِنْ عَضَّةِ الْكَلْبِ الْكَلِبِ أَيِ الْمَكْلُوبِ، وَهُوَ الْمَجْنُونُ فَيُصِيبُهُ شِبْهُ الْجُنُونِ، وَلَا يَعَضُّ الْمَجْنُونُ أَحَدًا إِلَّا كَلِبَ أَيْ جُنَّ، وَيَعْرِضُ لَهُ أَعْرَاضٌ رَدِيئَةٌ تُشْبِهُ الْمَالِيخُولْيَا مُهْلِكَةٌ غَالِبًا، وَيَمْتَنِعُ مِنْ شُرْبِ الْمَاءِ حَتَّى يَمُوتَ عَطَشًا، وَأَجْمَعَتِ الْعَرَبُ أَنَّ دَوَاءَهُ قَطْرَةٌ مِنْ دَمٍ يُخْلَطُ بِمَاءٍ فَيُسْقَاهُ.

أما هؤلاء فرجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه...

قلت ولا أزال: إن الرجال في الإسلام لا يعرفون اليأس من الحياة، وحتى الموت – عينه– يصنعون منه حياةً؛ ولكنها حياةٌ أبديةٌ في نعيمٍ لا ينقطع.. يقاتلون من أجل نشر النور والحق ولا يبالون بالموت.. ذلك لأن موتاً واحداً يخلِّف حيواتٍ لا تُحصى لقلوب دخلها نور الإسلام.. وإذا كنت أطلت النفس قليلا في محاولة لفهم حركية الطابور الخامس (المنافقون) في أيامنا هذه وجهودهم المخزية في الحرب على الإسلام؛ فإن ذلك كله لكشف وفضح نوعٍ من المخنثين يحيون بيننا، ولكى تتضح لنا النماذج الحقيقية للرجولة فإنه بضدها تتميز الأشياء. جاء في حديث صحيح [٤٢] عن أبي حذيفة – «تكون دعاة على أبواب جهنم من أجابهم إليها قذفوه فيها هم قوم من جلدتنا يتكلمون بألسنتنا فالزم جماعة المسلمين وإمامهم فإن لم تكن جماعة ولا إمام فاعتزل تلك الفرِق كلها ولو أن تعض بأصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت كذلك».

لكن الأمر يختلف تماما حين نتحدث عن مدرسة الرجولة الإسلامية الخاصة التي ترتفع فوق الأعذار، ليأخذ رجالها دورهم اللائق بهم في ركب الحياة، لأنهم بدئوا بالدرس المحمدي الأعلى في بناء النفوس القوية والعزائم الفتية والهمم العالية...

قال صلى الله عليه وسلم: " المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير. احرص على ما ينفعك، واستعن بالله عز وجل، ولا تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كان كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل، فإن (لو) تفتح عمل الشيطان"[٤٣]...

جاء في عيون الأثر: (أَنَّ عَمْرَو بْنَ الْجَمُوحِ كَانَ رَجُلا أَعْرَجَ شَدِيدَ الْعَرَجِ، وَكَانَ لَهُ بَنُونَ أَرْبَعَة مِثْل الأَسَدِ، يَشْهَدُونَ الْمَشَاهِدَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ أُحُدٍ أَرَادُوا حَبْسَهُ (أى منعه، وَقَالُوا: أَنْتَ رَجُلٌ أَعْرَجُ، وَلَا حَرَجَ عَلَيْك، وَقَدْ ذَهَبَ بَنُوك مَعَ النّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. قَالَ: بَخٍ! يَذْهَبُونَ إلَى الْجَنّةِ وَأَجْلِسُ أَنَا عِنْدَكُمْ!)، فَأَتَى رَسُول اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: إنَّ بَنِيَّ يُرِيدُونَ أَنْ يَحْبِسُونِي عَنْ هَذَا الْوَجْهِ وَالْخُرُوجِ مَعَكَ فِيهِ، فَوَاللَّهِ إنِّي لأَرْجُو أَنْ أَطَأَ بِعَرَجَتِي هَذِهِ فِي الْجَنَّةِ،

٤٢صحيح الجامع الصغير وزيادته برقم ٢٩٩٤ – ١٣٧١

43 (صحيح) انظر تحقيق كتاب الإيمان لابن تيمية للألبانى ص١٢١).

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَمَّا أَنْتَ فَقَدْ عَذَرَكَ اللَّهُ، فَلا جِهَادَ عَلَيْكَ» وَقَالَ لِبَنِيهِ: «مَا عَلَيْكُمْ أَنْ لا تَمْنَعُوهُ، لَعَلَّ اللَّهَ يَرْزُقُهُ شَهَادَةً» فَخَرَجَ مَعَهُ، فَقُتِلَ يَوْمَ أُحُدٍ، وَذَكَرَ أَبُو عُمَرَ بن عبد البر فِي خَبَرِهِ قَالَ: فَأَخَذَ سِلاحَهُ وَوَلَّى، فَلَمَّا وَلَّى أَقْبَلَ عَلَى الْقِبْلَةِ وَقَالَ: اللَّهُمَّ ارْزُقْنِي الشَّهَادَةَ، وَلا تَرُدَّنِي إِلَى أَهْلِي خَائِبًا. وَفِيهِ: ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّ مِنْكُمْ مَنْ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لأَبَرَّهُ، مِنْهُمْ عَمْرُو بْنُ الْجَمُوحِ، وَلَقَدْ رَأَيْتُهُ يَطَأُ فِي الْجَنَّةِ بِعَرَجَتِهِ، وَقِيلَ: حَمَلَ هُوَ وَابْنُهُ (خَلادٌ) حين انكشف المسلمون فقتلا جميعا.)[٤٤]..

(واستشهد ابنه خلّاد بن عمرو، وعبد الله بن عمرو بن حرام والد جابر فحملتهم هند بنت عمرو بن حرام زوجة عمرو بن الجموح على بعير لها تريد بهم المدينة، فلقيتها أم المؤمنين عائشة رضي الله عنهما- وقد خرجت في نسوة تستروح الخبر، ولم يضرب الحجاب يومئذ، فقالت لها: هل عندك خبر؟ ما وراءك؟ قالت: أمّا رسول الله صلى الله عليه وسلم فصالح وكلّ مصيبة بعده جلل. واتّخذ الله من المؤمنين شهداء وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنالُوا خَيْراً، وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتالَ وَكانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزاً (الأحزاب ٢٥) قالت عائشة:

من هؤلاء؟ قالت: أخي وابني خلّاد، وزوجي عمرو بن الجموح. قالت: وأين تذهبين بهم؟ قالت: إلى المدينة أقبرهم فيها، ثم قالت: حل حل، تزجر بعيرها، فبرك، فقالت لها عائشة: لما عليه؟ قالت: ما ذاك به لربّما حمل ما يحمل بعيران، ولكن أراه لغير ذلك، وزجرته فقام وبرك، فوجّهته راجعة إلى أحد،

فأسرع فرجعت إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبرته بذلك، فقال: إنّ الجمل مأمور، هل قال عمرو شيئا؟ قالت: إن عمرا لما توجّه إلى أحد قال: اللهم لا تردّني إلى أهلي خائبا وارزقني الشهادة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «فلذلك الجمل لا يمضي، إنّ منكم- معشر الأنصار- من لو أقسم على الله لأبره. منهم عمرو بن الجموح، ولقد رأيته (يطأ) بعرجته في الجنّة، يا هند، ما زالت الملائكة مظلّة على أخيك من لدن قتل إلى الساعة ينتظرون أين يدفن»، ثم مكث رسول الله صلى الله عليه

٤٤عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير، ابن سيد الناس،، دار القلم – بيروت،٢/٢٧.

وسلم حتى قبرهم، ثم قال: «يا هند، قد ترافقوا في الجنة» قالت: يا رسول الله، ادع الله عسى أن يجعلني معهم.)[٤٥].. ا. هـ.

ثم إن الكلمات لتتوقف في الحلق؛ تعجز أن تصف هذا المعنى العالي للرجولة التي – كما قلت– تمتزج بطريقةٍ عجيبةٍ بالبطولة في رجالٍ يتسامون فوق ذواتهم.. يقفون على قمم جبال البطولة؛ حانين رؤوسهم لخالقهم؛ مُكَبِّرين بإسمه؛ يحملون أغلى التضحيات على أكفهم؛ يرون أنفسهم مقصرين...

بالنسبة لعمرو بن الجموح (ر.) لم يكن الموقف ليصنع رجلا، أو ليبرزه، ولم يكن الرجل فيه وليد الصدفة، والبطولة بنت اللحظة.. لقد كان – ودائما – الرجل والبطل منذ صنعه الإسلام على عينه، وأعده لصنع المواقف والمآثر.. لقد خلف بالفعل أربعة أسود يصولون بسيوفهم رفعةً للإسلام؛ وهم لا شك في موازينه يوم القيامة، وهو الأعرج لا حرج عليه في الجهاد.. ولكنه المبدأ عند الرجل يرتسم في قوله: (بَخٍ! يَذْهَبُونَ إِلَى الْجَنّةِ وَأَجْلِسُ أَنَا عِنْدَكُمْ!، يَقُولُ: اللهُمّ لَا تَرُدّنِي إِلَى أَهْلِي خائباً!).. وكأنه ذاهب إلى رحلة ممتعة يحس فيها جمال الحياة ويشم زهرة الدنيا! إنها حرارة السيوف، ومقاساة الطعنات.. تطاير الرؤوس.. وانفصال الأيدي والأرجل.. وإنه العازم المصمم بلا خوف أو تردد.. أى بطلٍ هذا الشيخ الكبير المبتلى المعذور يقول (وَاَللهِ إنّي لَأَرْجُو أَنْ أَطَأَ بِعَرْجَتِي هَذِهِ الْجَنّةَ!).. دعوى قعوده هي عينها دافع جهاده.. إن الرجل وقد ضعفت رجلاه عن حمله ولكن عزيمته تحمل الجبال وتنقلها من مكانها. وليس الأمر عند تربى في مدرسة محمد صلى الله عليه وسلم – فلتة من فلتات التاريخ؛ ولكنه نهج منتظم يصنع الأبطال كل حين.. فقد روى لنا الْبَغَوِيّ فِي (الصَّحَابَة): أَن النُّعْمَان بن قوقل – رضى الله عنه – قَالَ يَوْم أحد: أَقْسَمت عَلَيْك يَا رب أَن لَا تغيب الشَّمْس حَتَّى أَطَأ بعرجتي فِي الْجنَّة، فاستشهد ذَلِك الْيَوْم، فَقَالَ النَّبِي، صلى الله عَلَيْهِ وَسلم: (لقد رَأَيْته فِي الْجنَّة) وفي رواية «إن النعمانَ ظَنَّ باللهِ عزَّ وجلّ ظناً فوجدَه عند ظنِّه، ولقد رأيتُه يطأُ في خُضرِها ما به عرج» [٤٦].. وهذا آخر يقسم الله فيبره.. وما ذلك إلا بركة صدقهم وإخلاصهم في الذب عن الحق اعتقاداً وقولا وعملاً... ولعله بعينه الرجل الذي التف بالصدق حين التزم الإسلام ديناً، فلم يجاوز قوله عمله قيد أنملة فنجا.. فعن جابر: أن النعمان بن قوقل جَاءَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: يا

45.سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد ٢١٤/٤ دار الكتب العلمية بيروت

46فتح الباري ٤٢/٦، وعمدة القاري ١٤٢/١٤.

رَسُول اللَّهِ، أرأيت إن صليت المكتوبات، وصمت رمضان، وحرمت الحرام، وحللت الحلال، لَمْ أزد عَلَى ذَلِكَ شيئا، أدخل الجنة؟ قال: نعم. قال: فو الله لا أزيد عليه شيئا)[٤٧].. وكم – والله – للصدق ذلك الخُلُق المضيَّع في أزمنة أنصاف الرجال.. كم له من كرامات.. قَالَ السهيليّ: « أَنه لما خرج عمرو بن الجموح – رضى الله عنه – قَالَ: اللَّهمّ لَا تردني، فاستشهد، فَجعله بنوه على بعير ليحملوه إِلَى الْمَدِينَة، فاستصعب عَلَيْهِم الْبَعِير، فَكَانَ إِذا وجهوه إِلَى كل جِهَة سارع إِلَّا جِهَة الْمَدِينَة، فَكَانَ يَأْبَى الرُّجُوع إِلَيْهَا، فَلَمَّا لم يقدروا عَلَيْهِ، ذكرُوا قَوْله: اللَّهمّ لَا تردني إِلَيْهَا، فدفنوه فِي مصرعه»[٤٨].. وكأن الرجل الصادق قد ضمن له ربه – بإيمانه وإخلاصه – ألا يرده إلى أهله خائبا، بل أن يطأ خضر الجنة يرتع فيها برجله صحيحةً كما صحح في سبيل الله تعالى – إيمانه وعمله.. وقال ابن الجوزي في المنتظم: (وَنقل أَن عَمْرو بن الجموح وَعبد الله بن عَمْرو ابْن حرَام دفنا فِي قبر وَاحِد فخرب السَّيْل قبرهما فحفر عَنْهُمَا بعد أَرْبَعِينَ سنة فوجدا لم يتغيرا كَأَنَّمَا مَاتَا بالْأَمْس).. هؤلاء هم شهداء الرحمن سبحانه جاوزوا بصدقهم إغراء الحياة أحياءاً، فجاوز الله بهم نواميسها أمواتاً؛ " بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٧٠) يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ (١٧١آل عمران)".. وَقَدْ قَالَ الْإِمَامُ أَبُو الْحُسَيْنِ مُسْلِمُ بْنُ الْحَجَّاجِ الْقُشَيْرِيُّ فِي صَحِيحِهِ: بسنده، عَنْ مَسْرُوقٍ قَالَ: سَأَلْنَا عَبْدَ اللَّهِ ابن مسعود عَنْ هَذِهِ الْآيَةِ: {وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ} فَقَالَ: أَمَا إِنَّا قَدْ سَأَلْنَا عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ: "أَرْوَاحُهُمْ فِي جَوْفِ طَيْرٍ خُضْرٍ لَهَا قَنَادِيلُ مُعَلَّقَةٌ بِالْعَرْشِ، تَسْرَحُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ شَاءَتْ، ثُمَّ تَأْوِي إِلَى تِلْكَ الْقَنَادِيلِ، فَاطَّلَعَ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ اطِّلاعَةً فَقَالَ: هَلْ تَشْتَهُونَ شَيْئًا؟ فَقَالُوا: أَيَّ شَيْءٍ نَشْتَهِي وَنَحْنُ نَسْرَحُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ شِئْنَا؟ فَفَعَلَ ذَلِكَ بِهِمْ ثَلاثَ مَرَّاتٍ، فَلَمَّا رَأَوْا أَنَّهُمْ لَنْ يُتْرَكُوا مِنْ أَنْ يُسْأَلُوا قَالُوا: يَا رَبِّ، نُرِيدُ أَنْ تَرُدَّ أَرْوَاحَنَا فِي أَجْسَادِنَا حَتَّى نُقْتَلَ فِي سَبِيلِكَ مَرَّةً أُخْرَى، فَلَمَّا رَأَى أَنْ لَيْسَ لَهُمْ حَاجَةٌ تُرِكُوا"... قَالَ أَبُو بَكْرِ بْنُ مَرْدُويَه: بسنده، عن جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: نَظَرَ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ذَاتَ يَوْمٍ فَقَالَ: "يَا جَابِرُ، مَا لِي أَرَاكَ مُهْتَما؟ " قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، اسْتُشْهِدَ أَبِي وَتَرَكَ دَينا وَعِيَالًا.

---

٤٧ أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب «بيان الإيمان الّذي يدخل به الجنة... »: ١/ ٣٤، من طريق أبى الزبير عن جابر. وكذلك أخرجه الإمام أحمد في مسندة من هذه الطريق: ٣/ ٣٤٨.

48. الروض الأنف على سيرة ابن هشام للسهيلي ٦/١٥دار احياء التراث الاسلامى بيروت

قَالَ: فَقَالَ: "أَلَا أُخْبِرُكَ؟ مَا كَلَّمَ اللهُ أَحَدًا قَطُّ إِلَّا مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ، وَإِنَّهُ كَلَّمَ أَبَاكَ كِفَاحًا –قَالَ عَلِيٌّ بن المديني: الكفَاح: الْمُوَاجَهَةُ – فَقَالَ: سَلْنِي أعْطكَ. قَالَ: أَسْأَلُكَ أنْ أُرَدَّ إِلَى الدُّنْيَا فَأُقْتَلَ فِيْكَ ثَانِيَةً فَقَالَ الرَّبُّ عَزَّ وَجَلَّ: إِنَّهُ سَبَقَ مِنِّي الْقَوْلُ أَنَّهُمْ إِلَيْهَا لَا يُرْجَعُونَ. قَالَ: أيْ رَبِّ: فَأَبْلِغْ مَنْ وَرَائِي. فَأَنزلَ اللهُ (عَزَّ وجَلَّ) {وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا} الْآيَةَ... قَالَ الْبُخَارِيُّ: بسنده، عن جابر قَالَ: لَمَّا قُتِل أَبِي جعلتُ أَبْكِي وأكشفُ الثَّوْبَ عَنْ وَجْهِهِ، فَجَعَلَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلم ينْهَونِي وَالنَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمْ يَنْه، وَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "لَا تَبْكِهِ –أَوْ: مَا تَبْكِيهِ –مَا زَالَتِ الْملائِكَةُ تُظِلُّهُ بِأَجْنِحَتِها حَتَّى رُفِعَ". [٤٩].. ألم أقل لك كم للصدق من كراماتٍ .. وليس كما يدعي أهل البدع والخرافات.. (وقد وقع منه صلى الله عليه وسلم مثل ذلك لأنس بن النضر عم أنس بن مالك خادم النبي صلى الله عليه وسلم «فإنه لما كسرت أخته الربيع ثنية جارية من الأنصار فطلب أهلها القصاص، وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بكسر ثنية الربيع قال أخوها أنس المذكور والله لا تكسر ثنية الربيع، وصار كلما يقول صلى الله عليه وسلم: كتاب الله القصاص، يقول والله لا تكسر ثنية الربيع، فرضي القوم بالدية، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبرّه» وقال صلى الله عليه وسلم ذلك في حق البراء بن مالك أخي أنس بن مالك رضي الله عنهما. فعن أنس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال «ربّ أشعث أغبر لا يؤبه به لو أقسم على الله لأبرّه منهم البراء بن مالك» ومصداق ذلك ما وقع له رضي الله عنه في مقاتلة الفرس، فإن الفرس غلبوا المسلمين فقالوا له: يا براء أقسم على ربك، فقال: أقسم عليك يا رب لما منحتنا أكتافهم وألحقتني بنبيك محمد صلى الله عليه وسلم، فحمل رضي الله عنه وحمل المسلمون معه فقتل عظيم الفرس وانهزم الفرس، ثم قتل البراء رضي الله عنه.)[٥٠].. فلله، كم شيد أهل الصدق في التاريخ صروحاً لم تكن لغيرهم، وصنعوا للرجولة معنى لم يكن لها يوماً.. قوةً وصلابة في الحق، وصموداً في وجه كل باطلٍ حتى يطهر الله تعالى منه الأرض جميعا.. فهلا يعتبر أنصاف الرجال، ومدعي الرجولة، ولا أقول المخنثون...

49.راجع تفسير ابن كثير ١٦١/٢ دار طيبة

50 السيرة الحلبية ٣٢٩/٢.

ورجل آخر منهم في هذا الزمان

هكذا الرجولة تصنع من مكائد الظروف مصائد للبطولات.. فهذا رجل قعيد فقد كلتا رجليه وهو طفل صغير، وضعف بصره.. هو ليس من عصور الصحابة ولا من المريخ.. إنه الشيخ(أحمد ياسين) المجاهد العظيم الذي قضى عمره في جهاد القتلة الصهاينة المغتصبين لأرض فلسطين ومَن وراءهم مِن الغرب الفاسد المفسد، وأمريكا الشيطان الأكبر اللعين.. هو رجل فريد في هذا الزمان؛ فإنه مشلول لا يتحرك منه سوى رأسه حتى إن كأس الماء يوضع في فيه؛ لأنه لا يستطيع أن يشرب بنفسه؛ ومع ذلك فقد استعمل ما أبقى الله له، فعمل ودرّس، وأدار حركة ناشئة في ظروف عصيبة، وكوّن أول الخلايا الجهادية، فقام اليهود بسجنه وهو المشلول المعاق.. سجنوه أكثر من مرة لسنين عدة، وهو يمثل إحراجاً وإزعاجاً لهم، وكان مطلب إخراجه مع كل عملية لكتائب عز الدين القسام، وقد رفض عروضاً عديدة للخروج من السجن مع الإبعاد، وأصر على العودة إلى وطنه.. لقد جمع الرجل بين العلم والدين والجهاد.. وكون (حركة مجاهدي حماس) وهى أكبر كيانٍ لتنغيص الحياة على اليهود المحاربين لله سبحانه وتعالى في أرض فلسطين، ومات شهيدا- بإذن الله - بعد صلاته الفجر بأيدي المحتل الظالم، والخونة من المخنثين الضائعين[٥٩].!.. وذلك حينما استهدفت طائرات الأباتشي (الأمريكية!!!) ذلك الشيخ المقعد بعد صلاة الفجر من يوم ٢٠٠٤/٣/٢٢م، وهو ما كان محل نقد ومقت كل دول العالم عدا (الإدارة الأمريكية اليمينية المتطرفة) والعداء من أولئك للإسلام والمسلمين أصبح معروفاً ومألوفاً، وهذا ما نلمسه في إعلامهم وعلى ألسنة مفكريهم ورجال دينهم ومنظريهم

٥٩هؤلاء المخنثين الذين باعوا الإسلام بأخس الدراهم في بلاد صارت الآن أحوج ما كانت يوماً إلى إعادة إسلامها المسلوب، فقد قرأت من فترة أنه (كشفت صحيفة صنداي تايمز البريطانية أن مساعدات قدمها الاتحاد الأوروبي من أجل الفقراء استخدمت لمزيد من الترفيه عن أغنياء موالين لياسر عرفات؛ فبدلاً من استخدام الأموال في مشروعات إسكانية رخيصة في قطاع غزة الفقير والمكتظ بالسكان وفي الضفة الغربية؛ ذهبت لبناء شقق فاخرة منحت لـ (عائدين) وهو اللفظ الذي يُطلق على الموالين الذين كانوا في المنفى مع الرئيس عرفات ويعملون الآن في السلطة، وتكلفت الشقة الواحدة ٣٣ ألف جنيه إسترليني، واعترف المدققون في الاتحاد الأوروبي بأن (٢٠) مليون دولار أنفقت دون أي سيطرة اقتصادية ولا يمكن استعادتها.) [جريدة الخليج، عدد: (٧١٣٤)]نقلا عن مجلة البيان عدد ١٣٤/ص٣٦. فانظر إلى أى حد ذهبت الخنوثة ببعضهم أن يستمتع على أشلاء شعب يموت جوعاً ويُغتصب كل يوم...!

صباح مساء، والشيء من معدنه لا يُستغرب، وصدق الله العظيم: (وَلَن تَرْضَى عَنكَ اليَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ) (البقرة: ١٢٠)؛ فهذه حقيقة الديمقراطية الأمريكية التي يدعون لها، ويطالبون حكومات وشعوب المنطقة بتطبيقها فيما يسمى بمشروع الشرق الأوسط الكبير، وهذه الإدارة الأمريكية تغض الطرف عن إجرام الصهيونية وجبروتها بقتل الأطفال والنساء والعجزة وهدم البيوت وتجريف الأراضي الزراعية.. فأين الديمقراطية، والعدالة الدولية.. و.... الخ من شعاراتٍ زائفةٍ عاهرةٍ.. تباع في سوق النخاسة بأبخس ثمن ؟!

حقاً.. إن أعظم إنجاز صنعه (الشيخ المجاهد أحمد ياسين رحمه الله تعالى) وأبلغه أنَّه – وأمثاله، وقدوته من المجاهدين قبله – نقل المعركة مع اليهود من أوحال الشعارات القومية والوطنية، ومتاهات المزايدات السياسية، إلى رياض الكتاب والسنة. فانتقل الناس من مصطلحات الثورة والنضال إلى مصطلحات (الجهاد في سبيل الله)، فأصبح الشباب يهتف بالتكبير، ويتربى على الصلاة والإقبال على الطاعة، ويردد آيات (آل عمران والأنفال)، ويتعلق فؤاده بالبذل والتضحية لدين الله، ويتشوق إلى الشهادة في سبيله. نقلة كبيرة في العقيدة القتالية، انعكست بجلاء على طبيعة المعركة وموازينها؛ فمن عمر قلبه بالإيمان والتوكل على الله وحده: وجد قوة وثباتاً وإقبالاً على الموت لا تصنعه الشعارات الثورية، ولا تبنيه التربية الحزبية المادية.

شخصية الشيخ أحمد ياسين – رحمه الله – كان لها أثر كبير في هذه النقلة النوعية، وحسبي أن أقف على ثلاث صفات في شخصيته الفذة:

الصفة الأولى: كان الشيخ عابداً، صوَّاماً، قوّاماً، تالياً للقرآن، يلهج لسانه بالذكر والتسبيح؛ وفي يوم استشهاده يصر على البكور إلى صلاة الفجر رغم مرضه الشديد، وكانت حقنة الجلوكوز في يده! وبالعزائم والقلوب المخبتة تقاد الشعوب. قال الله تعالى: (وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ) (السجدة: ٢٤). وما أحوج العمل الإسلامي للقادة الربانيين، عبَّاد الليل، الذين يعرفون برِقة القلب، وطهارة النفس..! الصفة الثانية: أنه لم يكن رأساً لحزب أو قائداً لجماعة، فانتماؤه للإخوان المسلمين، وقيادته لحركة حماس، لم تجعله رجلاً حزبياً مغلقاً ينطلق لنصرة جماعته، بل أحسبه والله حسيبه رجل أمة صادق اللهجة، اتسع أفقه لتربية الناس جميعاً على الولاء لدين الله، والتناصر لخدمة قضيتهم الكبرى.. وهذه التي لا يقوى عليها إلا الخُلَّص من أولياء الله. وما عرفت أن

الإسلاميين بمختلف توجهاتهم أجمعوا في العقود الأخيرة على أحد كما أجمعوا على الشيخ ابن باز والشيخ أحمد ياسين – رحمهما الله –.

الصفة الثالثة: كان الشيخ – رحمه الله – رجل عامة عاش مع الناس بهمومهم وآلامهم، وكان يشاطرهم أحزانهم وفقرهم، لم يتميز عنهم بمال أو جاه.. رجل معطاء سخي النفس يتفقد الناس بالصلة، فتح للناس صدره وداره، وكان له أثر كبير في علاج مشكلاتهم وخلافاتهم؛ فأحبوه، والتفوا حوله[٥٢].

إنَّ الإمامة في الدين ليست منصباً أو منحة أو جاهاً يتزين به الإنسان، بل هي منزلة ربانية جليلة لا تؤخذ إلا بحقها. قال الله تعالى: (قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ) (البقرة: ١٢٤).

روي أنّ عمر بن الخطاب لما استبطأ فتح مصر بعث إلى عمرو بن العاص أربعة رجال – رضي الله عنهم أجمعين – وأعلمه أنّ الرجل منهم مقام الألف. وهكذا هم الرجال الذين يُستشعر فضلُهم وقدرُهم وفقدُهم، قد ترى أحدهم في هيئة متواضعة، وجسد ضعيف متهالك، لكنه يكشف لك عند الشدائد عن قلب أسد، وفعل بطل!! ترى الرجل النحيل فتزدريه... وفي أثوابه أسدٌ هصورُ. وإننا نحسب أنّ الشيخ أحمد ياسين – رحمه الله – واحد من هؤلاء ببذله وجهاده وعطائه، الذي لم يتوقف على الرغم من تتابع المحن والمصائب، وتراكم الأمراض والنوائب. فلم يكن الشيخ يومًا مبعثًا للعطف أو الرحمة؛ إذْ كان مُقْعدًا حرَّكتْ همَّتُه أمَّتَه، وكم فينا من قويٍّ صحيح قعدتْ به همّتُه، ورضيت بالدون نفسُه!! لقد كان رمزًا لهذه الأمة، أو مثالاً حيًّا يجسِّد حالها. فهو وإنْ كان كبير السن، إلا أنه ظلّ كبيرًا في عقله وقوله وفعله، ثابتًا على مبادئه وعقيدته، وصنع ما لم يصنعه الشباب الأشدّاء، فظلّ متجدِّد الحيوية والنشاط. والأمّة وإنْ كانت كبيرة في عمرها إلا أنّها لا زالت كبيرة في قدرها ومقامها، ولا تزال مبادئها وقيمها ماثلة حاضرة؛ لم تشِخْ أو تهرَم،

52من مجلة البيان عدد١٩٩/ص٣٢.

وصنعت في النفوس ما لم تفعله مئات المذاهب والأفكار الشابّة، فظلّت الأمة وستظلّ بإذن الله متجدِّدة النشاط والحيوية، ولا تزال طائفة منها يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة[٥٣].

والشيخ وإنْ كان مريض البدن ضعيف الإمكانات إلا أنه لم يعجز عن بعث روح العزّة والكرامة في نفوس قومه وأمّته. ومثله الأمّة التي وإنْ كانت مريضة ضعيفة إلا أنها لا تزال تنجب الأبطال البررة، وتبعث في نفوس أبنائها القوة والرفعة. والشيخ وإنْ كان محاصرًا في بلده المحتلّ، ومُقعدًا لا يقوى على الحراك، إلا أنه مات وهو يمثِّل هاجسًا مقلقًا، ورعبًا لأعدائه مُفزعًا، ولم يَحُلْ دون خوفهم وقلقهم جيوش وعتاد وأسلحة دمار. وفي المقابل فإنّ الأمة وإنْ كانت محاصرةً في كثير من بقاعها، مقعدةً عن جُلّ وأجلّ أعمالها، إلا أنها لا تزال تمثِّل لأعدائها عدوًّا قويًّا مرعبًا، توجَّه من أجله الحشود، وتبذل من أجله الجهود. لقد علَّمنا الشيخ ألا نحقر أنفسنا، وأنّ بيد كل منا سلاحاً يملكه، قد يكون مختلفاً عن كل سلاح آخر، وأنّ لكل منا دوراً يحسنه، قد لا يحسنه غيره، وأنّ أحدنا لن يكون ضعيفاً ما لم يكن هو مَنْ أضعفَ نفسَه، بإضعاف عزيمته وهمّته. وذكَّرنا بأنّ الخير في هذه الأمة لا يُدرى أين يكون، ولا أين طرفاه، وأنّ المؤمن كالغيث ينفع حيث حلّ. كان الشيخ كبيرًا في حياته، فاستحق نهاية تليق بمقامه، بشهادة أعدائه. فلم تكن الرَّصاصة القاتلة كافية، بل وجّهوا إليه وهو الشيخ الأعزل، الذي لا يقوى على تحريك أصبع واحد من أصابع قدميه أو يديه!! طائراتٍ تحمل من السلاح ما يكفي لتدمير مبان شاهقة؛ فهم يرون الشيخ ذا قامة عالية ونفس حرّة شامخة، توازي تلك المباني القوية الشاهقة. ولئن ظنّ اليهود أنهم بمثل هذه الفعلة قد قضوا على المقاومة والجهاد، فإننا على يقين راسخ بأنهم في ظنهم وتوهّماتهم وأمانيهم كباسطِ كفيه إلى الماء ليبلغ فاه، وما هو ببالغه؛ ذلك أنّ هذه الأمة لا تموت بموت رجالها، بل إنّ الله يهيّئ لها من الخلف ما يجدِّد به ذكرَ السلف، ويرزقها من حيث لا تحتسب ولا يحتسب أعداؤها:

إِذا ماتَ مِنّا سَيِّدٌ قامَ بَعدَهُ... نَظيرٌ لَهُ يُغني غِناهُ وَيُخلِفُ

٣٢انظر: صحيح البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، وصحيح مسلم، كتاب الإيمان.

وحين يغتال العدو بطلاً صنديدًا تنبعث روحه ومبادئه في نفوس الكثيرين، ويصبح قتله وبالاً على المجرمين القاتلين، ويعرفه حقَّ المعرفة من لم يكن يعرفه، ويُعجب به من لم يكن يوليه عنايتَه، ويظلّ رمزًا في نفوس الناس لكل مبدأ من مبادئه؛ فتحيا مبادئه، ويكون الأعداء وسيلة لنشرها، من حيث أرادوا وأدها. وأخيرًا فلا حزن ولا جزع، وكما قال عمر: قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار، والله غالب على أمره، وهو المستعان... وانقلها درراً من فم هذا البطل من أبطال الإسلام.. أنهي بها الحديث عنه؛ والذي لا يطاوعني للانتهاء.. يقول الرجل: «السر يكمن في الإرادة، وإيمان الإنسان بالمبدأ الذي يسير عليه، فالدنيوي يقول: لو أن الدنيا ذهبت فقد خسرت كل شيء، لكن الإنسان المؤمن الذي يؤمن أنه ذاهب إلى جنة عرضها السموات والأرض يريد أن ينتقل من دنيا فانية إلى الراحة والطمأنينة والاستقرار عند رب العالمين، فهو ينتظر هذا اليوم، ويستبسل ويقاتل من أجل الفوز في هذا اليوم، ويثبت في الميدان حتى آخر رمق في حياته[٥٤]» توقيع: الشيخ أحمد ياسين.

فأين من ملكوا الصحة والمال والفراغ والعقول من قضية الإسلام.. كان شيخي دائما ما يقول أن السبب الأول في انهزامنا بعد عزة؛ هو أن الدين في حياتنا رفاهية، أو واجب يومى، وإن ارتقى قليلا فهو حاجة نقضيها كباقي حاجاتنا.. ولو كان الدين كما كان في حياة سلفنا الصالح قضية حياةٍ أو موت، لما انهزمنا وذهبت ريحنا... هؤلاء الذين نتحدث عنهم كانوا قلةً في العَدد والعُدد.. فقراءَ.. منبوذين من أوطانهم، ومحاربين من مواطنيهم؛ بل وذويهم.. ولكن المعادلة ترجح بكفة الإيمان والصبر واليقين، لتبرز جيلا فريدا للبطولة والرجولة.. يظل النبراس والملهم لأجيال الرجولة بعدُ في أمةٍ نبيها وقائدها الرجل الأعظم والبطل المقدم محمد صلى الله عليه وسلم...

و في هذا المعنى من معاني الرجولة أذكر أنه في غزوة أحد (انتهى أنس بن النضر- عم أنس بن مالك- إلى جماعة من الصحابة، قد ألقوا بأيديهم، فقال لهم: ما يجلسكم؟ قالوا: قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقال لهم: ما تصنعون بالحياة بعده؟ قوموا فموتوا على ما مات عليه رسول الله صلى الله

---

56 المرجع نفسه ١٩٩/٣٤.

عليه وسلم. ثم استقبل الناس، ولقى سعد بن معاذ، فقال: يا سعد، إني والله لأجد ريح الجنة من قبل أحد. فقاتل حتى قتل رضوان الله عليه، وجد به سبعون ضربة.)[55] ا. هـ.

ثم نعود ليطالعنا معنى أغرب من معاني الرجولة في الصحابية الجليلة (هِنْدَ بِنْتَ عَمْرِو بْنِ حرام) أخت الصحابي (عبد الله بن عمرو ابن حَرَامٍ) وزوجة (عمرو بن الجموح).. وكأن الرجولة حينئذ تكسر حدود الجنس، كما كسرت حدود القدرات والظروف، لتجد امرأةً بألف رجل – كما يقولون.. فإن تلك الصحابية المتخرجة من مدرسة محمد الخاصة للرجولة– وعلى ما في كل النساء من عاطفية – تراها تسمو فوق حزنها لمقتل ابنها وزوجها وأخيها؛ وهى تحملهم جثثا هامدة على بعير يكاد يكل بهم.. تراها تحمل هما أكبر.. هم الحق والخير والفلاح.. هم رسالة الإسلام وسلامة رسول الإسلام.. (أَمّا رَسُولُ اللهِ فَصَالِحٌ، وَكُلّ مُصِيبَةٍ بَعْدَهُ جَلَلٌ. وَاتّخَذَ الله من المؤمنين شهداء، " وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنالُوا خَيْراً وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتالَ وَكانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزاً").. انظروا هذه البطلة تستدعى النص القرآني تعلن به يقينها بكل سلاسة ونقاء وثبات.. فأين نحن من امرأة.... بألف رجل!؟

نساءٌ..!! الواحدة بألف رجل وأكثر!!!؟

لعل المقام يدعوني أن أستطرد مثبتا أن أهم وأول المناهج التي يتلقاها مثل هؤلاء الأبطال – رجالا كانوا أو نساءاً – في مدرسة محمد صلى الله عليه وسلم كانت وستظل هي القرآن العظيم.. ذلك القرآن الذي يعلم كثيرا من مدعي الرجولة معنى الرجولة والبطولة الحقة.. يضرب لهم القدوة والمثل بامرأة، ولكنها ليست كأى امرأة.. إنها واحدة من خير نساء العالمين.. فليست العبرة بالجنس رجلا كان أو امرأة، ولكن العبرة في الوجود الفاعل والحقيقي وقيمة الانسان على الأرض.. وليس الأمر رجل وامرأة، ولكن إنسان وإنسان.. قيمة وقيمة.. فعَنْ أَبِي مُوسَى عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «كَمُلَ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النساءِ إلا مريمُ بنتُ عِمْرَانَ وَآسِيَةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ وَفَضْلُ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.. إننا نتحدث عن التي قال الله تعالى فيها "وَضَرَبَ اللَّهُ

55(ا.هـ. من جوامع السيرة لابن حزم ط.العلمية ١\١٢٨)

مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (١١التحريم)".. يقول تعالى ذكره: وضرب الله مثلا للذين صدقوا الله ووحدوه، امرأة فرعون التي آمنت بالله ووحدته، وصدّقت رسوله موسى، وهي تحت عدوّ من أعداء الله كافر، فلم يضرّها كفر زوجها، إذ كانت مؤمنة بالله، وكان من قضاء الله في خلقه أن لا تزر وازرة وزر أخرى، وأن لكلّ نفس ما كسبت، إذ قالت: (رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ)، فاستجاب الله لها فبنى لها بيتًا في الجنة.... عن سلمان الفارسي، قال: كانت امرأة فرعون تعذّب بالشمس، فإذا انصرف عنها أظلتها الملائكة بأجنحتها، وكانت ترى بيتها في الجنة[٥٦].

... وعن القاسم بن أبي بَزَّة، قال: كانت امرأة فرعون تسأل من غلب؟ فيقال: غلب موسى وهارون. فتقول: آمنت بربّ موسى وهارون؛ فأرسل إليها فرعون، فقال: انظروا أعظم صخرة تجدونها، فإن مضت على قولها فألقوها عليها، وإن رجعت عن قولها فهي امرأته؛ فلما أتوها رفعت بصرها إلى السماء، فأبصرت بيتها في السماء، فمضت على قولها، فانتزع الله روحها، وألقيت الصخرة على جسد ليس فيه روح.

وعن قتادة، قوله: (وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلا لِلَّذِينَ آمَنُوا اِمْرَأَةَ فِرْعَوْنَ) وكان أعتى أهل الأرض على الله، وأبعده من الله، فو الله ما ضرّ امرأته كُفر زوجها حين أطاعت ربها، لتعلموا أن الله حكم عدل، لا يؤاخذ عبده إلا بذنبه. وقوله: (وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ) وتقول: وأنقذني من عذاب فرعون، ومن أن أعمل عمله، وذلك كفره بالله. وقوله: (وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) تقول: وأخلصني وأنقذني من عمل القوم الكافرين بك، ومن عذابهم. [٥٧]..

وعن أبي هريرة رضى الله عنه: (– " إن فرعون أوتد لامرأته أربعة أوتاد في يديها ورجليها، فكان إذا تفرِقوا عنها ظللتها الملائكة، فقالت: (رب ابن لي عندك بيتا في الجنة ونجني من فرعون وعمله ونجني

٥٦قال الالباني في الصحيحة ٣٦/٦ تحت الحديث٢٥٠٨(رقم رواه الحاكم (٢ / ٤٩٦) وقال: " صحيح على شرط الشيخين ". ووافقه الذهبي، وهو كما قالا).

٥٧من تفسير الطبري ٤٩٩/٢٣.

من القوم الظالمين)، فكشف لها عن بيتها في الجنة "[٥٨]. وعن أبي رافع قال: " وتد فرعون لامرأته أربعة أوتاد. ثم حمل على بطنها رحى عظيمة حتى ماتت ". [٥٩]

قال القشيري[٦٠] رحمه الله تعالى: (قالوا: صغرت همّتها حيث طلبت بيتا في الجنة، وكان من حقّها أن تطلب الكثير.. ولا كما توهّموا: فإنها قالت: ربّ ابن لى عندك، فطلبت جوار القربة، ولبيت في الجوار (أى جوار الله تعالى) أفضل من ألف قصر في غير الجوار. ومن المعلوم أنّ العنديّة هنا عنديّة القربة والكرامة.. ولكنه على كل حال بيت له مزية على غيره، وله خصوصية. وفي معناه أنشدوا:

إني لأحسد جاركم لجواركم... طوبى لمن أضحى لدارك جارا

يا ليت جارك باعني من داره.... .... شبرا لأعطيه بشبرٍ دارا) ا. هـ.

(وفي الآية دليل على أن الاستعاذة بالله تعالى والالتجاء إليه عز وجل ومسألة الخلاص منه تعالى عند المحن والنوازل من سير الصالحين وسنن الأنبياء والمرسلين، وهو في القرآن كثير.

قال صاحب الظلال رحمه الله تعالى: ودعاء امرأة فرعون وموقفها مثل للاستعلاء على عرض الحياة الدنيا في أزهى صورة. فقد كانت امرأة فرعون أعظم ملوك الأرض يومئذ. في قصر فرعون أمتع مكان تجد فيه امرأة ما تشتهي.. ولكنها استعلت على هذا بالإيمان. ولم تعرض عن هذا العرض فحسب، بل اعتبرته شرا ودنسا وبلاء تستعيذ بالله منه. وتتفلت من عقابيله، وتطلب النجاة منه!

وهي امرأة واحدة في مملكة عريضة قوية.. وهذا فضل آخر عظيم. فالمرأة أشد شعورا وحساسية بوطأة المجتمع وتصوراته. ولكن هذه المرأة.. وحدها.. في وسط ضغط المجتمع، وضغط القصر، وضغط الملك، وضغط الحاشية، والمقام الملوكي. في وسط هذا كله رفعت رأسها إلى السماء.. وحدها.. في خضم هذا الكفر الطاغي!

---

٥٨ قال الألباني في الصحيحة٢٥٠٨ أخرجه أبو يعلى في " مسنده " (٤ / ١٥٢١ - ١٥٢٢): حدثنا هدبة أخبرنا حماد بن سلمة عن ثابت عن أبي رافع عن أبي هريرة أن فرعون... إلخ. هكذا وقع فيه موقوفا عليه غير مرفوع، وهو في حكم المرفوع، لأنه لا يقال بمجرد الرأي، مع احتمال كونه من الإسرائيليات. قلت: وإسناده صحيح على شرط مسلم..

٥٩وهذا صحيح. لكنه مع وقفه مرسل (قاله الألباني)

٦٠من لطائف الإشارات للقشيري ٣٠٩,/٣

وهي نموذج عال في التجرد لله من كل هذه المؤثرات وكل هذه الأواصر، وكل هذه المعوقات، وكل هذه الهواتف. ومن ثم استحقت هذه الإشارة في كتاب الله الخالد. الذي تتردد كلماته في جنبات الكون وهي تتنزل من الملأ الأعلى..

" وقوله تعالى: وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ (١٢)"..

(ومريم ابنة عمران).. إنها كذلك مثل للتجرد لله منذ نشأتها التي قصها الله في سور أخرى. ويذكر هنا تطهرها: (التي أحصنت فرجها).. يبرئها مما رمتها به يهود الفاجرة(!فنفخنا فيه من روحنا). ومن هذه النفخة كان عيسى عليه السلام، كما هو مفصل في السورة المفصلة لهذا المولد "سورة مريم" فلا نستطرد معه هنا تمشيا مع ظل النص الحاضر، الذي يستهدف تصوير طهارة مريم وإيمانها الكامل وطاعتها: (وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين)...

" وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرانَ" عطف على " امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ"، أي وضرب مثلا للذين آمنوا حالتها وما أوتيت من كرامة الدنيا والآخرة والاصطفاء مع كون أكثر قومها كفارا، .... "الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَها" صانته ومنعته من الرجال، وقيل: منعته عن دنس المعصية... "فَنَفَخْنا فِيهِ"[٦١]، جاء في تفسير أبي السعود: قوله تعالى{ وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ }(الأنبياء ٩١) أي اذكر خبرَ التي أحصنتْه على الإطلاق من الحلال والحرام والتعبيرُ عنها بالموصول (التي) لتفخيم شأنِها وتنزيهها عما زعموه في حقها.. وقال البقاعي في نظم الدرر: {والتي أحصنت فرجها}

---

٤٦ قال أبو جعفر: والذي هو أولى القولين عندنا بتأويل ذلك قول من قال: أحصنت فرجها من الفاحشة، لأن ذلك هو الأغلب من معنييه عليه، والأظهر في ظاهر الكلام (تفسير الطبرى١٨/٥٢٢).. عند الألوسي باختصار: النافخ رسوله تعالى وهو جبريل عليه السلام فالإسناد مجازي، وقيل: الكلام على حذف مضاف أي فنفخ رسولنا، والضمير فِيهِ للفرج، واشتهر أن جبريل عليه السلام نفخ في جيبها فوصل أثر ذلك إلى الفرج. وروي ذلك عن قتادة، وقال الفراء: ذكر المفسرون أن الفرج جيب درعها وهو محتمل.. لأن الفرج معناه في اللغة كل فرجة بين الشيئين، وموضع جيب درع المرأة مشقوق فهو فرج، وهذا أبلغ في الثناء عليها لأنها إذا منعت جيب درعها فهي للنفس أمنع، وفي مجمع البيان عن الفراء أن المراد منعت جيب درعها عن جبريل عليه السلام، وكان ذلك على ما قيل: قولها " إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا [مريم: ١٨] وأفاد كلام البعض أن أحصنت فرجها على ما نقل أولا عن الفراء كناية عن العفة نحو قولهم: هو نقي الجيب طاهر الذيل...

أي حفظته من الحلال والحرام حفظاً يحق له أن يُذكَر ويُتحدَّث به، لأنه غاية في العفة والصيانة، والتخلي عن الملاذ إلى الانقطاع إلى الله تعالى بالعبادة، مع ما جمعت إلى ذلك من الأمانة والاجتهاد في متانة الديانة)..

والإضافة في قولها تعالى: "مِنْ رُوحِنا " للتشريف، والمراد من روحٍ خلقناه بلا توسط أصل، (وأنقل عن القرطبي رحمه الله تعالى ما قَالَ السُّهَيْلِيُّ: فَلَا يَذْهَبَنَّ وَهْمُكَ إِلَى غَيْرِ هَذَا، فَإِنَّهُ مِنْ لَطِيفِ الْكِنَايَةِ لِأَنَّ الْقُرْآنَ أَنْزَهُ مَعْنًى، وَأَوْزَنُ لَفْظًا، وَأَلْطَفُ إِشَارَةً، وَأَحْسَنُ عِبَارَةً مِنْ أَنْ يُرِيدَ مَا يَذْهَبُ إِلَيْهِ وَهَمُ الْجَاهِلِ، لَا سِيَّمَا وَالنَّفْخُ مِنْ رُوحِ الْقُدُسِ بِأَمْرِ الْقُدُّوسِ، فَأَضِفِ الْقُدُسَ إِلَى الْقُدُّوسِ، وَنَزِّهِ الْمُقَدَّسَةَ الْمُطَهَّرَةَ عَنِ الظَّنِّ الْكَاذِبِ وَالْحَدْسِ. " فَنَفَخْنا فِيها مِنْ رُوحِنا" يَعْنِي أَمَرْنَا جِبْرِيلَ حَتَّى نَفَخَ فِي دِرْعِهَا، فَأَحْدَثْنَا بِذَلِكَ النَّفْخِ الْمَسِيحَ فِي بَطْنِهَا.)[٦٢]. وقوله تعالى"وَصَدَّقَتْ" آمنت.. "بِكَلِماتِ رَبِّها وكتبه"... قوله تعالى "وَكانَتْ مِنَ الْقانِتِينَ" أي من عداد المواظبين على الطاعة- فمن- للتبعيض، والتذكير للتغليب، والإشعار بأن طاعتها لم تقصر عن طاعة الرجال حتى عدت من جملتهم فهو أبلغ من قولنا: وكانت من القانتات، أو قانتة، .... وهي على ما في بعض الأخبار سيدة النساء ومن أكملهن، ... وفي الصحيح " كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا أربع: آسية بنت مزاحم امرأة فرعون ومريم ابنة عمران وخديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد صلّى الله تعالى عليه وسلم وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام ".. وخص الثريد- وهو خبز يجعل في مرق وعليه لحم- كما قيل: إذا ما الخبز تأدمه بلحم... فذاك أمانة الله الثريد، لا اللحم فقط كما قيل لأن العرب لا يؤثرون عليه شيئا حتى سموه بحبوحة الجنة، والسر فيه على ما قال الطيبي: إن الثريد مع اللحم جامع بين الغذاء واللذة والقوة وسهولة التناول وقلة المئونة في المضغ وسرعة المرور في المريء، فضرب به مثلا ليؤذن بأنها رضي الله تعالى عنها أعطيت مع حسن الخلق حلاوة المنطق وفصاحة اللهجة وجودة القريحة ورزانة الرأي ورصانة العقل والتحبب للبعل فهي تصلح للبعل والتحدث والاستئناس بها والإصغاء إليها، وحسبك أنها عقلت من النبي صلّى الله عليه وسلم ما لم يعقل غيرها من النساء وروت ما لم يرو مثلها من الرجال، وعلى مزيد فضلها في هذه السورة الكريمة من عتابها وعتاب صاحبتها حفصة رضي الله تعالى عنهما ما لا يخفى، ثم لا يخفى أن فاطمة رضي الله تعالى عنها من

٦٢تفسير القرطبي ٣٣٨/١١.

حيث البضعية(وهى بضعة رسوا الله صلى الله عليه وسلم) لا يعد لها في الفضل أحد، وتمام الكلام في ذلك في محله[٦٣].

هذان نموذجان لبطولة الإيمان واليقين والصبر في الإسلام يؤكدان أول ما يؤكدان أن الرجولة بمعناها الدلالى في الإسلام ليست حكرا على الذكور، والذين ربما تجد فيهم الكثير من المخنثين الذين لا هم لهم إلا سافل الهمم، وتافه الأهداف والغايات.. إن المنهج الاسلامي الحقيقي لا يصنع إلا الأبطال، فإذا ما قابلت السفهاء والمخنثين فاعلم أن داخلهم خواء من قيم الإسلام وتعاليمه.. إن البيئة العاتية في الطغيان والكفر في عقر دار فرعون تحولها امرأةٌ مؤمنةٌ حقَ الإيمان إلى صرحٍ عالٍ ونموذجٍ فريدٍ من البطولة والتضحية من أجل العقيدة، ولعل هذا هو سبب الإصرار العجيب في الذكر الحكيم على تسمية (آسية بنت مزاحم) القديسة المؤمنة، بكنيتها (امرأة فرعون)؛ ليتعلم المؤمنون الدرس الأهم في عمق الرجولة الإسلامية، وهو أن الإسلام يصنع البطولات من النساء كما هي من الرجال ولا فرق.. والنقطة الثانية في الدرس السامي أن الإسلام يزرع بالإيمان النور في قلب الظلام يشقه شقاً؛ ولا يبالي بسطوة الظلام أياً كانت.. هذه الدروس الراقية في مدرسة محمد صلى الله عليه وسلم للبطولة والرجولة يسوقها الله سبحانه في قرآنه في شخص الطاهرة النقية (امرأة فرعون).. وكما أقول امرأةٌ بألف رجل!!!!!

أما النموذج الثاني فهو للتي أحصنت فرجها.. بطولةٌ من نوعٍ آخر.. إنها بطولة العفة والطهارة؛ والارتقاء بالمرأة التي أرادها الغرب- وفقط- فرجاً مدنَّساً في غرفة النوم، ومهيجاً للغرائز الحيوانية الساقطة، وواجهة إعلانٍ مبتذلةٍ لأتفه المنتجات.. أرادها (ديكوراً) ومختبرا لأحدث (تقاليعه وموضاته)، ومختبراً لتجاربه في إفساد الحياة الاجتماعية والإنسانية... ولكن الإسلام جاء ليعرض عليها دور البطولة في الحياة الإنسانية.. دور الأم.. ذلك البحر الخضم من المشاعر الدافئة والقيم النبيلة للبناء والتعمير.. فهى كما وصفها الشاعر: الأم مدرسة إذا أعددتها.... .. أعددت شعبا طيب الأعراقِ

٦٣راجع تفسير الالوسي ٢٥٨/١٤ و تفسير القرطبى. والفرج ما بين الرجلين وكني به عن السوءة، وكثر حتى صار كالصريح، ومنه ما هنا عند الأكثرين...

وليعرض عليها دور الزوجة الصالحة.. ذلك الدور العظيم في حياة أى رجل ناجح.. ألا ترى أن امرأةً مثل أم المؤمنين خديجة عليها السلام قد سطرت اسمها في التاريخ ببطولتها في احتضان أعظم دعوةٍ في تاريخ الدنيا.. تحتضن بدفء حنانها ورعايتها لزوجها صلى الله عليه وسلم وليد الإسلام بين ذراعيها، فاستحقت أن يبلغها أشرف رسل الملائكة جبريل عليه السلام، وأشرف رسل البشر صلى الله عليه وسلم أشرف رسالة بالسلام من الله عز وجل.. روى البخاري في صحيحه عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: " أَتَى جِبْرِيلُ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ: هَذِهِ خَدِيجَةُ قَدْ أَتَتْ مَعَهَا إِنَاءٌ فِيهِ إِدَامٌ، أَوْ طَعَامٌ أَوْ شَرَابٌ، فَإِذَا هِيَ أَتَتْكَ فَاقْرَأْ عَلَيْهَا السَّلاَمَ مِنْ رَبِّهَا وَمِنِّي وَبَشِّرْهَا بِبَيْتٍ فِي الجَنَّةِ مِنْ قَصَبٍ لاَ صَخَبَ فِيهِ، وَلاَ نَصَبَ "متفق عليه[٤٨]..

وما هذه المنزلة إلا لدورها الجليل في مؤازرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وحكمتها في تثبيته.. وتدبر معي هذا المعنى في الحديث الذي رواه البخاري في صحيحه عَنْ عَائِشَةَ أُمِّ المُؤْمِنِينَ أَنَّهَا قَالَتْ: أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الوَحْيِ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ فِي النَّوْمِ، فَكَانَ لاَ يَرَى رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ، ثُمَّ حُبِّبَ إِلَيْهِ الخَلاَءُ، وَكَانَ يَخْلُو بِغَارِ حِرَاءٍ فَيَتَحَنَّثُ فِيهِ – وَهُوَ التَّعَبُّدُ – اللَّيَالِيَ ذَوَاتِ العَدَدِ قَبْلَ أَنْ يَنْزِعَ إِلَى أَهْلِهِ، وَيَتَزَوَّدُ لِذَلِكَ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى خَدِيجَةَ فَيَتَزَوَّدُ لِمِثْلِهَا، حَتَّى جَاءَهُ الحَقُّ وَهُوَ فِي غَارِ حِرَاءٍ، فَجَاءَهُ المَلَكُ فَقَالَ: اقْرَأْ، قَالَ: «مَا أَنَا بِقَارِئٍ»، قَالَ: " فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الجَهْدَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ: اقْرَأْ، قُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ، فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّانِيَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الجَهْدَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ: اقْرَأْ، فَقُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ، فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّالِثَةَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ. خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ. اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ} (العلق: ٢) " فَرَجَعَ بِهَا رَسُولُ

٤٨[جاء في شرح محمد فؤاد عبد الباقي] [(سمعت أبا هريرة) هذا الحديث من مراسيل الصحابة وهو حجة عند الجماهير وخالف فيه الأستاذ أبو إسحاق الأسفرايني لأن أبا هريرة لم يدرك أيام خديجة فهو محمول على أنه سمعه من النبي صلى الله عليه وسلم (قد أتتك) معناه توجهت إليك (فإذا هي أتتك) أي وصلتك (فاقرأ عليها السلام) أي سلم عليها (من قصب) قال الجمهور العلماء المراد به قصب اللؤلؤ المجوف كالقصر المنيف وقيل قصر من ذهب منظوم بالجوهر قال أهل اللغة القصب من الجوهر ما استطال منه في تجويف قالوا ويقال لكل مجوف قصب وقد جاء في الحديث مفسرا ببيت من اللؤلؤ مجياة، وفسروه بمجوفه، قال الخطابي وغيره المراد بالبيت هنا القصر (صخب) الصخب الصوت المختلط المرتفع (نصب) النصب المشقة والتعب ويقال فيه نصب ونصب لغتان حكاهما القاضي وغيره كالحزن والحزن والفتح أشهر وأفصح وبه جاء القرآن وقد نصب الرجل ينصب إذا أعيا].

اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَرْجُفُ فُؤَادُهُ، فَدَخَلَ عَلَى خَدِيجَةَ بِنْتِ خُوَيْلِدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فَقَالَ: «زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي» فَزَمَّلُوهُ حَتَّى ذَهَبَ عَنْهُ الرَّوْعُ، فَقَالَ لِخَدِيجَةَ وَأَخْبَرَهَا الخَبَرَ: «لَقَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي» فَقَالَتْ خَدِيجَةُ: كَلَّا وَاللَّهِ مَا يُخْزِيكَ اللَّهُ أَبَدًا، إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَحْمِلُ الكَلَّ، وَتَكْسِبُ المَعْدُومَ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الحَقِّ، فَانْطَلَقَتْ بِهِ خَدِيجَةُ حَتَّى أَتَتْ بِهِ وَرَقَةَ بْنَ نَوْفَلِ بْنِ أَسَدِ بْنِ عَبْدِ العُزَّى ابْنَ عَمِّ خَدِيجَةَ وَكَانَ امْرَأً تَنَصَّرَ فِي الجَاهِلِيَّةِ، وَكَانَ يَكْتُبُ الكِتَابَ العِبْرَانِيَّ، فَيَكْتُبُ مِنَ الإِنْجِيلِ بِالعِبْرَانِيَّةِ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَكْتُبَ، وَكَانَ شَيْخًا كَبِيرًا قَدْ عَمِيَ، فَقَالَتْ لَهُ خَدِيجَةُ: يَا ابْنَ عَمِّ، اسْمَعْ مِنَ ابْنِ أَخِيكَ، فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ: يَا ابْنَ أَخِي مَاذَا تَرَى؟ فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَبَرَ مَا رَأَى، فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ: هَذَا النَّامُوسُ الَّذِي نَزَّلَ اللَّهُ عَلَى مُوسَى، يَا لَيْتَنِي فِيهَا جَذَعًا، لَيْتَنِي أَكُونُ حَيًّا إِذْ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَوَ مُخْرِجِيَّ هُمْ»، قَالَ: نَعَمْ، لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمِثْلِ مَا جِئْتَ بِهِ إِلَّا عُودِيَ، وَإِنْ يُدْرِكْنِي يَوْمُكَ أَنْصُرْكَ نَصْرًا مُؤَزَّرًا. ثُمَّ لَمْ يَنْشَبْ وَرَقَةُ أَنْ تُوُفِّيَ، وَفَتَرَ الوَحْيُ) متفق عليه[٦٥].

٤٩[تعليق مصطفى البغا] أخرجه البخاري برقم ٣ (١/٤) و أخرجه مسلم في الإيمان باب بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم رقم ١٦٠..

(الصالحة) الصادقة وهي التي يجري في اليقظة ما يوافقها. (فلق الصبح) ضياؤه ونوره ويقال هذا في الشيء الواضح البين. (الخلاء) الانفراد. (بغار حراء) الغار هو النقب في الجبل وحراء اسم لجبل معروف في مكة. (ينزع) يرجع. (ما أنا بقارىء) لا أعرف القراءة ولا أحسنها. (فغطني) ضمني وعصرني حتى حبس نفسي ومثله غتني. (الجهد) غاية وسعي. (أرسلني) أطلقني. (علق) جمع علقة وهي المني بعد أن يتحول إلى دم غليظ متجمد والآيات المذكورة أول ما نزل من القرآن الكريم وهي أوائل سورة العلق. (يرجف فؤاده) يخفق قلبه ويتحرك بشدة. (زملوني) لفوني وغطوني. (الروع) الفزع. (ما يخزيك) لا يذلك ولا يضيعك. (لتصل الرحم) تكرم القرابة وتواسيهم. (تحمل الكل) تقو بشأن من لا يستقل بأمره ليتم وغيره وتتوسع بمن فيه ثقل وغلاظة. (تكسب المعودم) تتبرع بالمال لمن عدمه وتعطي الناس ما لا يجدونه عند غيرك. (تقري الضيف) تهيء له القرى وهو ما يقدم للضيف من طعام وشراب. (نوائب الحق) النوائب جمع نائبة وهي ما ينزل بالإنسان من المهمات وأضيفت إلى الحق لأنها تكون في الحق والباطل. (تنصر) ترك عبادة الأوثان واعتنق النصرانية. (الناموس) هو صاحب السر والمراد جبريل عليه السلام سمي بذلك لاختصاصه بالوحي. (فيها) في حين ظهور نبوتك. (جذع) شاب والجذع في الأصل الصغير من البهائم ثم استعير للشاب من الإنسان. (يومك) يوم إخراجك أو يوم ظهور نبوتك وانتشار دينك. (مؤزرا) قويا من الأزر وهو القوة. (ينشب) يلبث. (فتر الوحي) تأخر عن النزول مدة من الزمن].

ولا تعليق[٦٦] غير الذي سبق إلى وهلتك من معنى البطولة في خديجة عليها السلام.. فأين نساءنا من عظمة أمهم أم المؤمنين خديجة، بل أين الرجال.. ؟!

ونعود فنقول إن هذا الارتقاء بالمرأة يرسمه لنا القرآن في مثل فريد عن (مريم ابنة عمران) التي أعلى القرآن من شأنها فصارت الاسم النسائي الوحيد المذكور في القرآن، بل إن واحدة من أعذب سوره الكريمة بإسمها.. ذلك لأنها أحصنت فرجها.. فصارت المثل في البطولة والعفة.. حقاً امرأة بألف رجل.... .!

٥٠ آمل أن يمن الله سبحانه على بكتاب كامل عن(أكمل نساء العالمين) لنأخذ منهم القدوة والمثل.

حتى أطفالهم رجال!! فأين من يدعون الرجولة اليوم ؟!

بل إنني لأتعجب أكثر حين ألمح أن الرجولة في الإسلام تتعدى حدود العمر الزمنى كذلك.. فقد صنع الإسلام من الغلمان رجالا.. رباهم أن يقفوا وينافسوا الشرف والسؤدد صغارا.. يقولون بلسان حالهم ما قال عمرو بن كلثوم الشاعر البطل:

وقد علم القبائلُ من معدّ... إذا قُبَبٌ بأبطحها بُنِينا

بأنّا العاصمون إذا قدرنا... وإنا المهلكون إذا ابتلينا

وأنّا المانعون لما أردنا.... .. وأنَّا النازلون بحيث شينا

وأنّا التاركون إذا سخطنا... وأنّا الآخذون إذا رضينا

ونشرب إن وردنا الماء صفواً... ويشرب غيرنا كدراً وطينا

إذا ما الملك سام الناس خسفاً... أبنيا أن نُقِرَّ الذلّ فينا

لنا الدنيا ومن أمسى عليها... ونبطش حين نبطش قادرينا

بغاةٌ ظالمين وما ظلمنا.... .... ولكنا سنبدأ ظالمينا

ملأنا البر حتى ضاق عنا... وكذاك البحر نملاؤه سفينا

إذا بلغ الرضيع لنا فطاما... تخرُّ له الجبابرُ ساجدينا[٦٧]

وحين أرى هؤلاء الذين خرت لهم الجبابر ساجدين أراهم- وبكل بساطةللذين لم يتعلموا الدرس- صناعة نبوية خالصة امتزجت فيها العقيدة بالشخصية، واستعلاء الإيمان بعظمة الرحمة المحمدية،

٦٧جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب (٢/ ٦٧).

فصنعت هذا الكيان الفريد.. ولا أدل من هذا الموقف الجليل الذي يرويه البخاري رحمه الله فيقول بسنده- (عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: أُتِيَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِقَدَحٍ، فَشَرِبَ مِنْهُ، وَعَنْ يَمِينِهِ غُلاَمٌ أَصْغَرُ القَوْمِ، وَالأَشْيَاخُ عَنْ يَسَارِهِ، فَقَالَ: «يَا غُلاَمُ أَتَأْذَنُ لِي أَنْ أُعْطِيَهُ الأَشْيَاخَ»، قَالَ: مَا كُنْتُ لِأُوثِرَ بِفَضْلِي مِنْكَ أَحَدًا يَا رَسُولَ اللَّهِ(أى أنه لم يرد أن ينال أحد بركة الشرب خلف رسول الله سواه)، فَأَعْطَاهُ إِيَّاهُ "[٦٨]).. إن هذا الدرس النبوي الكريم يظهر كيف ربى النبي أولاده على الرجولة صغارا.. رباهم أولا: على الأدب واستئذان الكبير وحفظ منزلته، حتى ولو كان الحق عند الصغير. ثم ارتقى بهم إلى الدرس الثاني؛ وهو احترام الشباب ووضعه مكانه في بناء الوجود والفاعلية والإيجابية.. فالرسول الحكيم جعل الغلام ذو كيان يُستأذن مع وجود الكبار. وهذه هي القيمة الحقيقية للشباب والصغار في البناء الإسلامي، فقد روى الترمذي بسند صحيح عَنْ سَيَّارٍ، قَالَ: كُنْتُ أَمْشِي مَعَ ثَابِتٍ البُنَانِيِّ، فَمَرَّ عَلَى صِبْيَانٍ فَسَلَّمَ عَلَيْهِمْ فَقَالَ ثَابِتٌ: كُنْتُ مَعَ أَنَسٍ، فَمَرَّ عَلَى صِبْيَانٍ فَسَلَّمَ عَلَيْهِمْ، وَقَالَ أَنَسٌ: «كُنْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَمَرَّ عَلَى صِبْيَانٍ فَسَلَّمَ عَلَيْهِمْ»[٦٩]... ثم يعلمنا الدرس الأكبر (لا تؤثر بمكانك من رسول الله أحدا، فلست أقل من أحد إن أحببته بصدق واتبعته)،

ولقد وعى بناة الرجولة؛ صحب محمد صلى الله عليه وسلم – هذه الدروس جيدا وبدأوا بدورهم بناءا شامخا للرجولة على أسس مدرسة الرسول.. فقد روى البخاري في صحيحه: أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يدخل ابن عباس رضي الله عنهما وهو غلام حدث مع أشياخ بدر، قال ابن عباس: فكأن بعضهم وجد في نفسه فقال: لمَ تدخل هذا معنا، ولنا أبناء مثله؟! فقال عمر: إنه من حيث علمتم -يعني: أن هذا ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن آل البيت- فدعاه ذات يوم فأدخله معهم، وانظر إلى ذكاء ابن عباس كيف كان يراقب ويحلل ويختزن المواقف في ذهنه، فدعاه

---

٦٨ البخاري ٢٣٥١، و أخرجه مسلم في الأشربة باب استحباب إدارة الماء واللبن ونحوهما عن يمين المبتدئ رقم ٢٠٣٠، (غلام) هو الفضل بن عباس رضي الله عنهما، وقال في التمهيد (وَالْغُلَامُ الْمَذْكُورُ فِي هَذَا الْحَدِيثِ هُوَ ابْنُ عَبَّاسٍ).
(الأشياخ) منهم خالد بن الوليد رضي الله عنه جمع شيخ وهو من طعن في السن. (لأوثر) لأقدم على نفسي. (بفضلي) بما فضل لي]

٦٩ رواه الترمذي رقم ٢٦٩٦ت. شاكر، و قال «هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ رَوَاهُ غَيْرُ وَاحِدٍ عَنْ ثَابِتٍ، وَرُوِيَ مِنْ غَيْرِ وَجْهٍ عَنْ أَنَسٍ» وهو في الصحيحين. راجع كتابنا – بإذن الله تعالى –كيف ربى النبى أبناءه؟

يوماً ففهم وتفرس أنه دعاه حتى يختبره أمامهم، ويظهر فضله في العلم عليهم، يقول ابن عباس في الرواية: فما رأيت أنه دعاني يومئذٍ إلا ليريهم علمي، قال عمر: ما تقولون في قول الله تعالى: {إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ} (النصر: ١)؟ فقال بعضهم: أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا، وسكت بعضهم فلم يقل شيئاً، فقال لي: أكذاك تقول يا ابن عباس؟! فقلت: لا، قال: ما تقول؟ قلت: هو أجل رسول الله صلى الله عليه وسلم أعلمه له –يعني: أن هذه الآية فيها نعي رسول الله عليه الصلاة والسلام إلى نفسه– قال: (إذا جاء نصر الله والفتح) وذلك علامة أجلك، {فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا} (النصر: ٣) يعني: تهيأ للقاء ربك، فقال عمر: ما أعلم منها إلا ما تقول).. هكذا كان أمير المؤمنين يقوي ثقة ابن عباس بنفسه. وهكذا علمهم رسول الله الشجاعة والجرأة في أخذ نصيبهم من عظمة هذا الدين وبالقوة، لا بالضعف والبكاء والتباكي على صدر الأمم المتحدة، كما يفعل كبارنا اليوم.. فهل علمت أن صغارهم بألف من كبارنا، أم تقرأ هذه القصة لتعرف....

روى البخاري – بسنده– (عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ، قَالَ: «إِنِّي لَوَاقِفٌ يَوْمَ بَدْرٍ فِي الصَّفِّ فَنَظَرْتُ عَنْ يَمِينِي وَشِمَالِي فَإِذَا أَنَا بَيْنَ غُلَامَيْنِ مِنَ الْأَنْصَارِ حَدِيثَةٌ أَسْنَانُهُمَا، فَتَمَنَّيْتُ أَنْ أَكُونَ بَيْنَ أَضْلَعَ (أى أقوى) مِنْهُمَا فَغَمَزَنِي أَحَدُهُمَا، فَقَالَ يَا عَمِّ أَتَعْرِفُ أَبَا جَهْلٍ؟ قُلْتُ نَعَمْ، وَمَا حَاجَتُكَ إِلَيْهِ. قَالَ أُخْبِرْتُ أَنَّهُ يَسُبُّ رَسُولَ اللَّه صلى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنْ رَأَيْتُهُ لَا يُفَارِق سَوَادِي سَوَادَهُ حَتَّى يَمُوتَ الْأَعْجَلُ مِنَّا (يقسم على قتله) فَتَعَجَّبْتُ لِذَلِكَ، فَغَمَزَنِي الْآخَرُ؛ فَقَالَ لِي مِثْلَهَا؛ فَلَمْ أَنْشِبْ (فلم ألبث) أَنْ نَظَرْتُ إِلَى أَبِي جَهْلٍ يَجُولُ فِي النَّاسِ، فَقُلْتُ: أَلَا تَرَيَانِ، هَذَا صَاحِبُكُمَا الَّذِي تَسْأَلَانِ عَنْهُ، فَابْتَدَرَاهُ (أسرعا إليه) بِسَيْفَيْهِمَا فَضَرَبَاهُ حَتَّى قَتَلَاهُ، ثُمَّ انْصَرَفَا إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَخْبَرَاهُ، فَقَالَ: أَيُّكُمَا قَتَلَهُ؟ قَالَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا: أَنَا قَتَلْتُهُ، قَالَ هَلْ مَسَحْتُمَا سَيْفَيْكُمَا؟ قَالَا: لَا. قَالَ: فَنَظَرَ فِي السَّيْفَيْنِ، فَقَالَ: كِلَاكُمَا قَتَلَهُ، وَقَضَى بِسَلَبِهِ (أى حكم بالغنيمة منه) لِمُعَاذِ بْنِ عَمْرٍو، وَالْآخَرُ معاذ بن عَفْرَاءَ»[٧٠].... هكذا ربى الإسلام رجالا، ولم ينتظر هؤلاء حكم الأيام لتكشف عن رجولتهم فأعلنوها مدويةً لا تلوى على أحد.. لم يهابوا السنان والطعان..

---

٧٠ رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي الصَّحِيحِ عَنْ مُسَدَّدٍ .وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ عَنْ يَحْيَى بْنِ يَحْيَى، كِلَاهُمَا عَنْ يُوسُفَ بْنِ يَعْقُوبَ بْنِ الْمَاجِشُونِ.دلائل النبوة للبيهقى، العلمية،٣\٨٤)

بل لم يهابوا حتى ما تعلنه البديهة من أن مطاردة هذا الأبي جهل وهو من هو في حروب العرب ووقائعهم.. مطاردة رجل خطير كهذا هي عمليةٌ استشهاديةٌ بكل المقاييس.. ولكنها الرجولة يُرضعها الإسلام بنيه، وربما صاروا أبطالا قبل الفصال.. ولكن لماذا ؟ قلت لك إنه المبدأ والثبات، وليس الموقف من يزكى الرجولة في الإسلام.. (أُخْبِرْتُ أَنَّهُ يَسُبُّ رَسُولَ اللَّه صلى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنْ رَأَيْتُهُ لَا يُفَارِق سَوَادِي سَوَادَهُ حَتَّى يَمُوتَ الْأَعْجَلُ مِنَّا).. إنه الدفاع عن الإيمان، ولكن على أرض معركة حقيقة، الكلمات لا تكفى، والدموع لم تُخلق للرجال إلا قهرا.. وساحات المعارك كثيرة في العلم والحرب والاقتصاد والثقافة و... ، ولكن مَن اليوم يريد الجهاد ؟!، فقد أهين محمد (صلى الله عليه وسلم) وسُب الإسلام بالقول والفعل.. ولكنا تربينا على الانتماء لغير محمد، ورب محمد، ودين محمد صلى الله عليه وسلم.. المهم الأسرة، والقبيلة، والوطن، والقومية.. والأكثر سخريةً؛ النادي الذي تشجعه، والمطرب الذي تحبه.. أما السلف الصالح.. جيل العزة فأسرته المؤمنين، وقبيلته مفردات دينه؛ وهدايات رسوله، ووطنه الحق، وقوميته الفضيلة.. واسمعها وارتجف بها (عن أبي هريرة عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: " من مات ولم يَغْزُ، ولم يحدثْ نفسه بالغزو؛ مات على شُعْبَة من النفاق "[٧١]. قال القرطبي في شرح هذا الحديث: فيه ما يدل على أن من لم يتمكن من عمل الخير فينبغي له أن يعزم على فعله إذا تمكن منه وان ينويه، .. فأما إذا أخلى نفسه عن ذلك العمل ظاهرا وباطنا عن نيته، فذلك حال المنافق الذي لا يعمل الخير ولا ينويه. وخصوصا الجهاد الذي اعز الله به الإسلام واظهر به الدين حتى علا كل الأديان، ولو كره الكافرون. وقوله (شعبة من النفاق) اى خلق من أخلاق المنافقين ا. هـ. من المفهم شرح صحيح مسلم.

٧١مختصر مسلم للالبانى ١٠٧٣، صحيح أبى داود ٢٢٦٠)...، راجع المفهم للقرطبي ٣/٥٩٤ دار التوفيقية، مصر

نماذج من علو همة الشباب[٧٢]

(لقد كان صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين آمنوا به وعزروه ونصوره واتبعوا النور الذي أنزل معه شباباً.

هذا أسامه بن زيد رضي الله تعالى عنهما أمّره رسول الله صلى الله عليه وسلم على الجيش وكان عمره ثماني عشرة سنة.

وهذا عتاب بن أسيد رضي الله تعالى عنه استعمله النبي صلى الله عليه وسلم على مكة لما صار إلى حنين وعمره نيف وعشرون سنة.

وهناك نماذج أخرى لشباب الصحابة الذين أبلوا أحسن البلاء في حمل رسالة الإسلام ونشر نوره في العالمين.

فالشباب –كما ذكرنا– هو القوة الروحية والقوة البدنية، وهو فترة القدرة على إنجاز جسام المهام، فينبغي للإنسان أن يغتنمها كما نصحنا النبي صلى الله عليه وآله وسلم؛ لأن هذه القدرات تضمحل بعد ذلك بمرور الوقت.

والصحابة رضي الله عنهم حينما تطالع سيرتهم في الجهاد تشعر بمدى القوة التي كانوا عليها رضي الله تعالى عنهم.

وبعض الناس يتصورون أن الصحابة كانوا ناساً عباداً يذكرون الله سبحانه وتعالى ويخلون في الخلوات ويصلون ويصومون ويتصدقون فقط، وأنهم كانوا ينصرون فقط بالمدد الرباني، ولا شك في أن هذا من أهم أسباب النصر، لكن الصحابة كانوا يأخذون بأسباب القوة، فالصحابة رضي الله عنهم ما كانوا بالصورة التي تريد الصوفية أن تزرعها في قلوبنا لنتصور بها السلف الصالح.

---

٧٢ هذه الجمل المباركة نقلتها من كتاب الشيخ محمد بن اسماعيل المقدم (علو الهمة) بحذف وتصرف يسير؛ دون تغيير لأى من معالم روحه، وإنما على سبيل الإختصار لضيق المقام، والله وحده العليم الرحيم.

.. ، والرسول عليه الصلاة والسلام يقول: (المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير)

فبعض الأخوة كنت في مناقشة معهم حول هذا، فقال لي أحدهم: هل الصحابة كانوا يجرون أو يمارسون شيئاً من هذه الرياضات؟ فقلت له: هل أنت غافل عن أن حياة الصحابة كلها عبارة عن حركة وركض وجهاد؟! فالصحابة رضي الله تعالى عنهم والأجيال التي فتحت الدنيا فتحتها بالأخذ بالأسباب التي منها الاهتمام بهذا الجانب، إن الصحابة ما عرفوا جلسة المكاتب، وما عرفوا قيادة السيارات، وما كانوا يجلسون على المكاتب حتى تنتفخ منهم الكروش، إن الصحابة ما عرفوا هذا، والسلف ما عرفوا هذا، وإنما عرفوا الجوع، وعرفوا السهر، وعرفوا الجد، وقد قال لي بعض الأخوة الأفاضل ممن كان يجيد ركوب الخيول في معرض هذا الكلام: إن ركوب الفرس يحتاج إلى قوة عضلية غير عادية.

ولعل من عنده خبرة بذلك يعرف ذلك؛ لأنه يكون غير جالس على ظهر الفرس، وإنما يكون واقفاً على قدميه، فيحتاج إلى قوة عضلية شديدة جداً.

فالصحابة لما خرجوا وجاهدوا في أقطار الأرض على الخيول كانوا أقوياء، ومنهم محمد بن مسلمة وعلي بن أبي طالب، بل إن بعض الناس حكى أنه رأى سيف خالد بن الوليد في بعض المتاحف في تركيا، وأن هذا السيف يحتاج إلى ستة أفراد أو عشرة أفراد حتى يستطيعوا أن يحملوا هذا السيف للضرب به والطعن.

ف خالد بن الوليد وعلي بن أبي طالب كانا من فرسان الإسلام، وما كانوا على التصور الصوفي الآن الموجود عن السلف رضي الله عنهم، بل السلف كانوا يأخذون بالقوة في كل جانب، سواء القوة البدنية أو القوة الإيمانية، وما كانوا يسلكون هذه المسالك التي نعاني منها نحن الآن من الجلوس على المكاتب والترفيه، وغير ذلك من هذه الصور.

قال يحيى بن معين رحمه الله تعالى للإمام أحمد بن حنبل رحمه الله وقد رآه يمشي خلف بغلة الشافعي: يا أبا عبد الله! تركت حديث سفيان بعلوه وتمشي خلف بغلة هذا الفتى وتسمع منه؟! فقال له الإمام

أحمد: لو عرفت لكنت تمشي من الجانب الآخر؛ إن علم سفيان إن فاتني بعلو أدركته بنزول، وإن عقل هذا الشاب إن فاتني لن أدركه بعلو ولا نزول.

وقدم وفد على عمر بن عبد العزيز من العراق، فنظر إلى شاب منهم يريد الكلام، فقال عمر: كبر كبر.

فقال الفتى: يا أمير المؤمنين! إن الأمر ليس بالسن، ولو كان كذلك كان في المسلمين من هو أسن منك.

قال: صدقت، فتكلم.

وحكى المسعودي في شرح المقامات: أن المهدي لما دخل البصرة رأى إياس بن معاوية وهو صبي وخلفه أربعمائة من العلماء وأصحاب الطيالسة، أي: لما دخل البصرة رأى إياس بن معاوية مع أنه كان صبياً، لكن كان خلفه أربعمائة من العلماء وأصحاب الطيالسة وإياس أمامهم، فقال المهدي: أما كان فيهم شيخ يتقدمهم غير هذا الحدث؟! أي: ألم يجدوا غير هذا الشاب الحدث السن ليتقدم المشايخ وهؤلاء الناس الكبار؟! ثم إن المهدي التفت إليه وقال -أي: لـ إياس بن معاوية بن قرة بن شريك القاضي المعروف-: كم سنك يا فتى؟! فقال: سني -أطال الله بقاء الأمير- سن أسامة بن زيد بن حارثة لما ولاه رسول الله صلى الله عليه وسلم جيشاً فيهم أبو بكر وعمر.

فقال له: تقدم بارك الله فيك.

وذكر الخطيب في تاريخ بغداد أن يحيى بن أكثم ولي قضاء البصرة وسنه عشرون سنة أو نحوها، فاستصغروه -أي أن الحاضرين استصغروه لصغر سنه حين ولي قضاء البصرة- فقالوا -ازدراء له-: كم سن القاضي؟ فقال: أنا أكبر من عتاب بن أسيد الذي وجه به رسول الله صلى الله عليه وسلم قاضياً على أهل مكة يوم الفتح -وكان سن عتاب خمساً وعشرين سنة-، وأنا أكبر من معاذ بن جبل الذي وجه به رسول الله صلى الله عليه وسلم قاضياً على أهل اليمن، وأنا أكبر من كعب بن سور الذي وجه به عمر بن الخطاب قاضياً على البصرة.

فجعل جوابه احتجاجاً له.

وقال أبو اليقظان: ولى الحجاج محمد بن القاسم بن محمد بن الحكم الثقفي قتال الأكراد بفارس، فأباد منهم، ثم ولاه السند فافتتح السند والهند، وكان عمره سبع عشرة سنة.

فيا حسرتاه على شباب المسلمين الآن الذين نراهم في الشوارع يعزفون ويسمعون الموسيقى الأمريكية، ويعلقون الأعلام الأمريكية على أعناقهم وفي سياراتهم! إنه خزي وعار لم يسبق له مثيل، وهو كذلك نوع من خفة الهمة إلى أسوأ الصور، ومعناه الضياع، والله المستعان.

فعلم أمريكا يعلقه أولاد المسلمين في سياراتهم الآن، وما بقي إلا علم إسرائيل! فـ محمد بن القاسم رحمه الله تعالى قاد الجيوش، وفتح السند والهند، وهو ابن سبع عشرة سنة، والسند والهند يراد بهما باكستان وبنجلاديش والهند وكشمير، كل هذه المنطقة يقال لها: الهند والسند،

... وولي عبيد الله بن زياد خراسان وهو ابن ثلاث وعشرين سنة، وليها لـ معاوية رضي الله تعالى عنه، وولي معاذ بن جبل اليمن وهو ابن أقل من ثلاثين سنة، وحمل (أبو مسلم الخراساني) أمر الدعوة والدولة وهو ابن إحدى وعشرين سنة، وحمل الناس عن إبراهيم النخعي وهو ابن ثماني عشرة سنة، ومات سيبويه إمام النحو وحجة العرب وله من العمر اثنتان وثلاثون سنة) ا. هـ.

هكذا أحبوه.. وهكذا سادوا..

قَالَ ابْنُ إسْحَاقَ: وَحَدَّثَنِي يَزِيدُ بْنُ أَبِي حَبِيبٍ، عَنْ مَرْثَدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ اليَزَنِيِّ، عَنْ أَبِي رُهْمٍ السَّمَاعِيِّ، قَالَ: حَدَّثَنِي أَبُو أَيُّوبَ، قَالَ: لَمَّا نَزَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي بَيْتِي، نَزَلَ فِي السُّفْلِ، وَأَنَا وَأُمُّ أَيُّوبَ فِي الْعُلْوِ، فَقُلْتُ لَهُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي، إنِّي لَأَكْرَهُ وَأُعْظِمُ أَنْ أَكُونَ فَوْقَكَ، وَتَكُونَ تَحْتِي، فَاظْهَرْ أَنْتَ فَكُنْ فِي الْعُلْوِ، وَنَنْزِلَ نَحْنُ فَنَكُونَ فِي السُّفْلِ، فَقَالَ: يَا أَبَا أَيُّوبَ، إنَّ أَرْفَقَ بِنَا وَبِمَنْ يَغْشَانَا، أَنْ نَكُونَ فِي سُفْلِ الْبَيْتِ. قَالَ: فَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي سُفْلِهِ، وَكُنَّا فَوْقَهُ فِي الْمَسْكَنِ،

فَلَقَدْ انْكَسَرَ قدرٌ لَنَا فِيهِ مَاءٌ فَقُمْتُ أَنَا وَأُمُّ أَيُّوبَ بِقَطِيفَةٍ لَنَا، مَا لَنَا لِحَافٌ غَيْرَهَا، نُنَشِّفُ بِهَا الْمَاءَ، تَخَوُّفًا أَنْ يَقْطُرَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْهُ شَيْءٌ فَيُؤْذِيَهُ.

قَالَ: وَكُنَّا نَصْنَعُ لَهُ الْعَشَاءَ، ثُمَّ نَبْعَثُ بِهِ إلَيْهِ، فَإِذَا رَدَّ عَلَيْنَا فَضْلَهُ تَيَمَّمْتُ أَنَا وَأُمُّ أَيُّوبَ مَوْضِعَ يَدِهِ، فَأَكَلْنَا مِنْهُ نَبْتَغِي بِذَلِكَ الْبَرَكَةَ، حَتَّى بَعَثْنَا إلَيْهِ لَيْلَةً بِعَشَائِهِ وَقَدْ جَعَلْنَا لَهُ بَصَلًا أَوْ ثُومًا، فَرَدَّهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَلَمْ أَرَ لِيَدِهِ فِيهِ أَثَرًا. قَالَ: فَجِئْتُهُ فَزِعًا، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي، رَدَدْتَ عَشَاءَكَ، وَلَمْ أَرَ فِيهِ مَوْضِعَ يَدِكَ، وَكُنْتَ إذَا رَدَدْتَهُ عَلَيْنَا، تَيَمَّمْتُ أَنَا وَأُمُّ أَيُّوبَ مَوْضِعَ يَدِكَ، نَبْتَغِي بِذَلِكَ الْبَرَكَةَ، قَالَ: إنِّي وَجَدْتُ فِيهِ رِيحَ هَذِهِ الشَّجَرَةِ، وَأَنَا رَجُلٌ أُنَاجِي، فَأَمَّا أَنْتُمْ فَكُلُوهُ. قَالَ: فَأَكَلْنَاهُ، وَلَمْ نَصْنَعْ لَهُ تِلْكَ الشَّجَرَةَ بَعْدُ.)[٧٣]

إن حب محمد صلى الله عليه وسلم لم يكن عند أصحابه مجرد كلمةٍ تقال، ولا شعارٍ يُرفع، لم يكن– وفقط – مديحاً مفوهاً.. ولم يكن أبداً تمايلاً سخيفاً على دقات الموسيقى الصاخبة.. وإنما كان – حقيقةً – الباعث والحافز على الارتقاء في درجات التوقير والتعظيم والتبجيل لشخص رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولسنته من بعده تعظيما لا يقدم عليها شيئاً من آراء الرجال، ولا هوى النفوس، ولا

٧٣سيرة ابن هشام ت السقا (١/ ٤٩٩)

فاسد الأذواق، ووهم المواجيد.. قال الله تعالى " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (٢) إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ (٣) "٧٤.. قال السعدى رحمه الله تعالى في تفسيره: هذا متضمن للأدب، مع الله تعالى، ومع رسول الله صلى الله عليه وسلم، والتعظيم له، واحترامه، وإكرامه، فأمر (الله) عباده المؤمنين، بما يقتضيه الإيمان، بالله وبرسوله، من امتثال أوامر الله، واجتناب نواهيه، وأن يكونوا ماشين، خلف أوامر الله، متبعين لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، في جميع أمورهم، وأن لا يتقدموا بين يدي الله ورسوله، ولا يقولوا، حتى يقول، ولا يأمروا، حتى يأمر، فإن هذا، حقيقة الأدب الواجب، مع الله ورسوله، وهو عنوان سعادة العبد وفلاحه، وبفواته، تفوته السعادة الأبدية، والنعيم السرمدي، وفي هذا، النهي الشديد عن تقديم قول غير الرسول صلى الله عليه وسلم، على قوله، فإنه متى استبانت سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وجب اتباعها، وتقديمها على غيرها، كائنا ما كان. ثم أمر الله بتقواه عمومًا، وهي كما قال طلق بن حبيب: أن تعمل بطاعة الله، على نور من الله، ترجو ثواب الله، وأن تترك معصية الله، على نور من الله، تخشى عقاب الله.

وقوله: {إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ}.. وفي ذكر الاسمين الكريمين -بعد النهي عن التقدم بين يدي الله ورسوله، والأمر بتقواه- حث على امتثال تلك الأوامر الحسنة، والآداب المستحسنة، وترهيب عن عدم الامتثال.)ا. هـ.

قال ابن العربي في أحكام القرآن: حُرْمَةُ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مَيِّتًا كَحُرْمَتِهِ حَيًّا، وَكَلَامُهُ الْمَأْثُورُ بَعْدَ مَوْتِهِ فِي الرِّفْعَةِ مِثْلُ كَلَامِهِ الْمَسْمُوعِ مِنْ لَفْظِهِ؛ فَإِذَا قُرِئَ كَلَامُهُ وَجَبَ عَلَى كُلِّ حَاضِرٍ أَلَّا

٧٤قال الطبرى في تفسيره: " يا أيها الذين أقرّوا بوحدانية الله، وبنبوّة نبيه محمد صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّم (لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ) يقول: لا تعجلوا بقضاء أمر في حروبكم أو دينكم، قبل أن يقضي الله لكم فيه ورسوله، فتقضوا بخلاف أمر الله وأمر رسوله، محكيّ عن العرب فلان يقدّم بين يدي إمامه، بمعنى يعجل بالأمر والنهي دونه.. عن ابن عباس يقول: لا تقولوا خلاف الكتاب والسنة... عن مجاهد قال: لا تفتأتوا على رسول الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّم بشيء حتى يقضيه الله على لسانه...) ا.هـ.

يَرْفَعَ صَوْتَهُ عَلَيْهِ، وَلَا يُعْرِضَ عَنْهُ، كَمَا كَانَ يَلْزَمُهُ ذَلِكَ فِي مَجْلِسِهِ عِنْدَ تَلَفُّظِهِ بِهِ، وَقَدْ نَبَّهَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى دَوَامِ الْحُرْمَةِ الْمَذْكُورَةِ عَلَى مُرُورِ الْأَزْمِنَةِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: {وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا} (الأعراف: ٢٠٤). وَكَلَامُ النَّبِيِّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – مِنْ الْوَحْيِ وَلَهُ مِنْ الْحُرْمَةِ مِثْلُ مَا لِلْقُرْآنِ إلَّا مَعَانِي مُسْتَثْنَاةٌ، بَيَانُهَا فِي كُتُبِ الْفِقْهِ، وَاَللَّهُ أَعْلَمُ.)[٧٥]...

وتأمل كيف كانوا يتعاملون مع القرآن والسنة على نقيضٍ من تعاملنا معهما.. جاء في مجمع الزوائد للهيثمي (عَنْ عَطَاءٍ الْخُرَاسَانِيِّ قَالَ: قَدِمْتُ الْمَدِينَةَ فَسَأَلْتُ عَمَّنْ يُحَدِّثُنِي عَنْ حَدِيثِ ثَابِتِ بْنِ قَيْسِ بْنِ شَمَّاسٍ، فَأَرْشَدُونِي إِلَى ابْنَتِهِ، فَسَأَلْتُهَا فَقَالَتْ: سَمِعْتُ أَبِي يَقُولُ: «لَمَّا أُنْزِلَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: " {إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ} (لقمان: ١٨) "، اشْتَدَّ عَلَى ثَابِتٍ، وَأَغْلَقَ بَابَهُ عَلَيْهِ وَطَفِقَ يَبْكِي، فَأُخْبِرَ رَسُولُ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ فَسَأَلَهُ، فَأَخْبَرَهُ بِمَا كَبُرَ عَلَيْهِ مِنْهَا، وَقَالَ: أَنَا رَجُلٌ أُحِبُّ الْجَمَالَ وَأَنْ أَسُودَ قَوْمِي، فَقَالَ: " إِنَّكَ لَسْتَ مِنْهُمْ، بَلْ تَعِيشُ بِخَيْرٍ، وَتَمُوتُ بِخَيْرٍ، وَيُدْخِلُكَ اللَّهُ الْجَنَّةَ ".

قَالَ: فَلَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ} (الحجرات: ٢) فَعَلَ مِثْلَ ذَلِكَ، فَأُخْبِرُ النَّبِيُّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ، فَأَخْبَرَهُ بِمَا كَبُرَ عَلَيْهِ، وَأَنَّهُ جَهِيرُ الصَّوْتِ، وَأَنَّهُ يَتَخَوَّفُ أَنْ يَكُونَ مِمَّنْ حَبِطَ عَمَلُهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: " بَلْ تَعِيشُ حَمِيدًا، وَتُقْتَلُ شَهِيدًا، وَيُدْخِلُكَ اللَّهُ الْجَنَّةَ».

فَلَمَّا اسْتَنْفَرَ أَبُو بَكْرٍ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – الْمُسْلِمِينَ إِلَى قِتَالِ أَهْلِ الرِّدَّةِ، وَالْيَمَامَةِ، وَمُسَيْلِمَةَ الْكَذَّابِ، سَارَ ثَابِتُ بْنُ قَيْسٍ فِيمَنْ سَارَ، فَلَمَّا لَقُوا مُسَيْلِمَةَ وَبَنِي حَنِيفَةَ هَزَمُوا الْمُسْلِمِينَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فَقَالَ ثَابِتٌ وَسَالِمٌ – مَوْلَى أَبِي حُذَيْفَةَ –: مَا هَكَذَا كُنَّا نُقَاتِلُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فَجَعَلَا لِأَنْفُسِهِمَا حُفْرَةً فَدَخَلَا فِيهَا، فَقَاتَلَا حَتَّى قُتِلَا.

قَالَ: وَأُرِيَ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ثَابِتَ بْنِ قَيْسٍ فِي مَنَامِهِ، فَقَالَ: إِنِّي لَمَّا قُتِلْتُ بِالْأَمْسِ مَرَّ بِي رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فَانْتَزَعَ مِنِّي دِرْعًا نَفِيسَةً، وَمَنْزِلُهُ فِي أَقْصَى الْعَسْكَرِ، وَعِنْدَ مَنْزِلِهِ فُرْسٌ يَسْتَنُّ فِي طُولِهِ، وَقَدْ

٧٥(قَالَ أَبُو مُصْعَبٍ: كَانَ مَالِكٌ لاَ يُحَدِّثُ إِلاَّ وَهُوَ عَلَى طَهَارَةٍ؛ إِجْلاَلاً لِلْحَدِيْثِ ") الحلية " ٦ / ٣١٨.

أَكْفَأَ عَلَى الدِّرْعِ بُرْمَةً، وَجَعَلَ فَوْقَ الْبُرْمَةِ رَجُلًا، فَأْتِ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ فَلْيَبْعَثْ إِلَى دِرْعِي فَلْيَأْخُذْهَا، فَإِذَا قَدِمْتَ عَلَى خَلِيفَةِ رَسُولِ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فَأَعْلِمْهُ: أَنَّ عَلَيَّ مِنَ الدَّيْنِ كَذَا وَكَذَا، وَفُلَانٌ مِنْ رَقِيقِي عَتِيقٌ، وَإِيَّاكَ أَنْ تَقُولَ هَذَا حُلْمٌ تُضَيِّعَهُ.

قَالَ: فَأَتَى خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ فَوَجَّهَ إِلَى الدِّرْعِ فَوَجَدَهَا كَمَا ذَكَرَ، وَقَدِمَ عَلَى أَبِي بَكْرٍ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – فَأَخْبَرَهُ، فَأَنْفَذَ أَبُو بَكْرٍ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – وَصِيَّتَهُ بَعْدَ مَوْتِهِ، فَلَا نَعْلَمُ أَنَّ أَحَدًا جَازَتْ وَصِيَّتُهُ بَعْدَ مَوْتِهِ إِلَّا ثَابِتَ بْنَ قَيْسِ بْنِ شَمَّاسٍ. [٧٦]

(وأما سعد بن الربيع فإن النبي –صلى الله عليه وسلم– قال: "هل من رجل ينظر إلى ما فعل سعد بن الربيع في الأحياء هو أم الأموات؟ " فقال رجل من الأنصار: أنا أنظر لك يا رسول الله ما فعل، فنظر فوجده جريحا في القتلى وبه رمق قال: فقلت له: إن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– أمرني أن أنظر في الأحياء أنت أم الأموات، قال: أنا في الأموات، فبلغ رسول الله –صلى الله عليه وسلم– عني السلام، وقل: إن سعد بن الربيع يقول له: جزاك الله عنا خير ما جزى نبيا عن أمته، وأبلغ قومك عني السلام وقل لهم: إن سعد بن الربيع يقول لكم: لا عذر لكم عند الله أن يخلص إلى نبيكم وفيكم عين تطرف، قال: لم أبرح حتى مات، فجئت رسول الله –صلى الله عليه وسلم– فأخبرته).

.. ولأنهم عاشوا على حب الكتاب والسنة والعمل بهما، عاشوا عيشاً حميدا، وماتوا موتاً مجيداً.. بل وبلغوا درجة من ولاية الله تعالى لهم لم يبلغها أحد، وبلغت كراماتهم عنان السماء... وقد قال ابن كثير رحمه الله تعالى: قضى الله الكريم بمنه وفضله أن من عاش على شيئ مات عليه، ومن مات على شيئ بعث عليه...

---

٧٦ قلت: وقد روى ابن حبان وغيره مثله بسند جيد... باب ذِكْرُ ثَابِتِ بْنِ قَيْسِ بْنِ شَمَّاسٍ رَضِيَ الله تعالى عَنْهُ برقم ٧١٦٧، وكذا روى ابن حبان عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةَ: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ} [الحجرات: ٢] قَعَدَ ثَابِتُ بْنُ قَيْسِ بْنِ شَمَّاسٍ في بيته وَقَالَ: أَنَا الَّذِي كُنْتُ أَرْفَعُ صَوْتِي وَأَجْهَرُ لَهُ بِالْقَوْلِ وَأَنَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَفَقَدَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَخْبَرُوهُ فَقَالَ: "بَلْ هُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ".
قَالَ أَنَسٌ: فَكُنَّا نَرَاهُ يَمْشِي بَيْنَ أَظْهُرِنَا وَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّهُ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ الْيَمَامَةِ وَكَانَ ذَلِكَ الِانْكِشَافُ لَبِسَ ثِيَابَهُ وَتَحَنَّطَ وتقدم فقاتل حتى قتل" أخرجه ابن حبان في صحيحه برقم٧١٦٨، وقال محققوه إسناده صحيح على شرط مسلم، رجاله ثقات رجال الشيخين غير سليمان بن المغيرة، فمن رجال مسلم وهو في "مسند أبي يعلى" "٣٣٣١"...

فساد الذوق واختلال معايير الرجولة.

ولكن لأن فساد الذوق.. وتعطل أجهزة الاستقبال الإيمانية في أكثر المسلمين، وتبدد نعمة البصيرة في المجتمع بسبب بما بثه الإعلام، والثقافة المضللة الضحلة في عقول المسلمين من وضيع الاهتمامات، وخسيس الهمم والتصورات؛ صار معيار الرجولة ومقياس البطولة عندهم فاسد عفن كذلك.. فالبطولة عندهم في لاعب كرة أو ممثل أو مغنى، أو البطولة عند أمثلهم طريقة في رجل صنعته المواقف والصدف مدافعا عن مبدأ فاسد وعقيدة ضائعة مثل (تشى جيفارا) المدافع عن الشيوعية العفنة، وأمثاله من الأبطال الوهميين الذين يصدرهم لنا الغرب، حتى يمحو ما تبقى لنا من ذاكرة الرجولة، حتى إنه ليروج في إعلامه بلا حياء للمدافعين عن الشذوذ (الأمريكان)باعتبارهم أبطالا يخوضون المعارك في كل بلاد الدنيا لنشر الحرية المتهتكة النجسة ... ولكن الأمر يختلف عند الثابتين على الحق.. المدافعين عن الخير، والعدل، والإيمان الحقيقي، وصلاح الفرد والأمة.. وكذلك المقاييس والمعاير تختلف... (قال مجاهد عن الشعبي، دخل خباب بن الأرت على عمر بن الخطاب رضي اللَّه تبارك وتعالى عنه، فأجلسه على متكأه، وقال: ما على الأرض أحد أحق بهذا المجلس منك، إلا رجل واحد، فقال: ومن هو يا أمير المؤمنين؟ قال بلال، قال: ما هو بحق منى، إن بلالا كان له من المشركين من يمنعه اللَّه به، ولم يكن لي أحد، لقد رأيتني يوما وقد أوقدوا لي نارا، ثم سلقوني فيها، ثم وضع رجل رجله على صدري، فما اتقيت الأرض إلا بظهري، ثم كشف خباب عن ظهره، فإذا هو قد برص.)[٧٧].. انظر إنها معايير مختلفة تماما.. الرجولة هنا تقاس بقدر التحمل من أجل المبدأ الحق، والبطولة تقدر بما يقدم الرجل من أجل عقيدته الحقة.. التفاضل الحق بالوقوف صامدا حتى النهاية.

77(ا.هـ. من حياة الصحابة، ط الرسالة ط١،١\٣٥٠،وإمتاع الأسماع للمقريزى٩\١٠٨)

الصبر رجولة.. والصبر تمكين!! درسٌ جديدٌ..

وليكن الدرس مرة أخرى مع خباب بن الأرت الرجل البطل (ممن فتن عن دينه فثبت عليه، فإنه سبي في الجاهلية فاشترته (أم أنمار الخزاعية) أي وكان قينا أي حدادا، وكان صلى الله عليه وسلم يألفه ويأتيه، فلما أسلم وأخبرت بذلك مولاته صارت تأخذ الحديدة وقد أحمتها بالنار فتضعها على رأسه، فشكا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: «اللهم انصر خبابا، فاشتكت مولاته رأسها فكانت تعوي مع الكلاب، فقيل لها اكتوي، فكان خباب يأخذ الحديدة وقد أحماها فيكوي رأسها».

وفي البخاري عن خباب قال: «أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو متوسد برده في ظل الكعبة» ولقد لقينا يعني معاشر المسلمين من المشركين شدة شديدة، فقلت: يا رسول الله ألا تدعو الله لنا؟ فقعد صلى الله عليه وسلم محمرا وجهه، فقال: إنه كان من قبلكم ليمشط أحدهم بأمشاط الحديد ما دون عظمه من لحم وعصب ما يصرفه ذلك عن دينه، ويوضع المنشار على فرِق رأس أحدهم فيشق ما يصرفه ذلك عن دينه، وليظهرن الله تعالى هذا الأمر حتى يصير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه».)[٧٨] ا. هـ.

هكذا يذكر لنا خباب رضي الله عنه المنهج الدراسي في مدرسة محمد صلى الله عليه وسلم الخاصة للرجولة، وأهم المواد فيها هي الصبر واليقين، ومنهجها العملي في الثبات والجهاد بالنفس والنفيس.. هكذا انتشر الإسلام، وبلغ ما بين المشرِقين.. على أكتاف هؤلاء الأبطال ومن اتبعهم بإحسان إلى يوم الدين..!

وعلى أكتاف أمثال هؤلاء سيعود الإسلام إلى مكانه الطبيعى شابا فتيا يقود الأمم.. قال الله عز وجل: (هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون). تبشرنا هذه الآية الكريمة بأن المستقبل للإسلام بسيطرته وظهوره وحكمه على الأديان كلها، وقد يظن بعض الناس أن ذلك قد تحقق في عهده صلى الله عليه وسلم وعهد الخلفاء الراشدين والملوك الصالحين، وليس كذلك، فالذي تحقق إنما هو جزء من هذا الوعد الصادق، كما أشار إلى ذلك النبي صلى الله

---

[78] من السيرة الحلبية، العلمية، ط.٢، ١\٤٢٥)

عليه وسلم بقوله: ١ – " لا يذهب الليل والنهار حتى تعبد اللات والعزى، فقالت عائشة: يا رسول الله إن كنت لأظن حين أنزل الله (هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون) أن ذلك تاما، قال: إنه سيكون من ذلك ما شاء الله ". الحديث. رواه مسلم وغيره. وقد وردت أحاديث أخرى توضح مبلغ ظهور الإسلام ومدى انتشاره، بحيث لا يدع مجالا للشك في أن المستقبل للإسلام بإذن الله وتوفيقه. وها أنا أسوق ما تيسر من هذه الأحاديث عسى أن تكون سببا لشحذ همم العاملين للإسلام، وحجة على اليائسين المتواكلين. ٢ – " إن الله زوى (أي جمع وضم) لي الأرض، فرأيت مشارِقها ومغاربها وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوي لي منها ". الحديث.

٣. عَنْ تَمِيمٍ الدَّارِيِّ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: "لَيَبْلُغَنَّ هَذَا الْأَمْرُ مَا بَلَغَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ، وَلَا يَتْرُكُ اللهُ بَيْتَ مَدَرٍ وَلَا وَبَرٍ إِلَّا أَدْخَلَهُ اللهُ هَذَا الدِّينَ، بِعِزِّ عَزِيزٍ أَوْ بِذُلِّ ذَلِيلٍ، عِزًّا يُعِزُّ اللهُ بِهِ الْإِسْلَامَ، وَذُلًّا يُذِلُّ اللهُ بِهِ الْكُفْرَ " وَكَانَ تَمِيمٌ الدَّارِيُّ، يَقُولُ: " قَدْ عَرَفْتُ ذَلِكَ فِي أَهْلِ بَيْتِي، لَقَدْ أَصَابَ مَنْ أَسْلَمَ مِنْهُمُ الْخَيْرُ وَالشَّرَفُ وَالْعِزُّ، وَلَقَدْ أَصَابَ مَنْ كَانَ مِنْهُمْ كَافِرًا الذُّلُّ وَالصَّغَارُ وَالْجِزْيَةُ " ومما لا شك فيه أن تحقيق هذا الانتشار يستلزم أن يعود المسلمون أقوياء في معنوياتهم وماديا‌تهم وسلاحهم حتى يستطيعوا أن يتغلبوا على قوى الكفر والطغيان، وهذا ما يبشرنا به الحديث: ٤ – عن أبي قبيل قال: كنا عند عبد الله بن عمرو بن العاصي وسئل أي المدينتين تفتح أولا القسطنطينية أو رومية؟ فدعا عبد الله بصندوق له حلق، قال: فأخرج منه كتابا قال: فقال عبد الله: بينما نحن حول رسول الله صلى الله عليه وسلم نكتب، إذ سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم: أي المدينتين تفتح أولا أقسطنطينية أو رومية؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " مدينة هرقل تفتح أولا. يعني قسطنطينية "(وهى اسطنبول عاصمة تركيا الإسلامية حاليا، وقد تم وعد المصطفى بفتحها بعد حوالي (٨٠٠) سنة من بشراه بها على يد محمد الفاتح، ونحن بانتظار وعده صلى الله عليه وسلم بفتح روما.. ولا شك أيضا أن تحقيق الفتح الثاني يستدعي أن تعود الخلافة الراشدة إلى الأمة المسلمة، وهذا مما يبشرنا به صلى الله عليه وسلم بقوله في الحديث:

٥ – " تكون النبوة فيكم ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها ثم تكون خلافة على منهاج النبوة، فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون ملكا عاضا فيكون

ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء الله أن يرفعها، ثم تكون ملكا جبريا فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة. ثم سكت " [٧٩] ا. هـ. ولعل البعض يتعجب كثيرا من تلك الثقة العارمة للمسلم الحق في انتصار دينه وهيمنته على الأديان.. يقول كيف وفى كل مكان يشير إليه إصبعك مسلم يُهان ويُظلم ويُنكل به لأجل إسلامه؟!.. كيف وهم يملكون العلم والتقنية والسلاح والعقول ؟!.. كيف وهم.... .. ؟! أقول له هذا عين ما يراد بنا اليأس ثم اليأس ثم الانهزام فالانقياد.. ولكن من تملأ قلوبهم الحقيقة يعلمون أن الحق سينتصر، والتاريخ والفطرة خير الشواهد.. والمطلوب الأول منا هو اليقين والصبر.. (سَأَلَ رجلٌ الشَّافِعِي، فَقَالَ: يَا أَبَا عبد الله أَيّمَا أفضل للرجل أَن يمكَّن أَو يَبْتَلِي؟ فَقَالَ الشَّافِعِي: لَا يمكَّن حَتَّى يبتلى، فَإِن الله ابْتُلِيَ نوحًا وَإِبْرَاهِيم ومُوسَى وَعِيسَى ومحمدا صلوَات الله وَسَلَامه عَلَيْهِم أَجْمَعِينَ فَلَمَّا صَبَرُوا مكنهم. ا. هـ. من الفوائد لابن القيم)، وقد استخلص ابن القيم رحمه الله ببراعته في غير موضعٍ من كتبه حقيقة أن الإمامة تستلزم الجمع بين الصبر واليقين، واستدل بقوله سبحانه " وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ (السجدة ٢٤). اسمع معي ما رواه أحمد في مسنده (١٨٢٦٠) بسنده عَنْ رَجُلٍ، قَالَ: قُلْتُ لِعَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ: حَدِيثٌ بَلَغَنِي عَنْكَ أُحِبُّ أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْكَ، قَالَ: نَعَمْ، لَمَّا بَلَغَنِي خُرُوجُ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَكَرِهْتُ خُرُوجَهُ كَرَاهَةً شَدِيدَةً، خَرَجْتُ حَتَّى وَقَعْتُ نَاحِيَةَ الرُّومِ، وَقَالَ يَعْنِي يَزِيدَ بِبَغْدَادَ، حَتَّى قَدِمْتُ عَلَى قَيْصَرَ، قَالَ: فَكَرِهْتُ مَكَانِي ذَلِكَ أَشَدَّ مِنْ كَرَاهِيَتِي لِخُرُوجِهِ، قَالَ: فَقُلْتُ: وَاللهِ، لَوْلَا أَتَيْتُ هَذَا الرَّجُلَ، فَإِنْ كَانَ كَاذِبًا لَمْ يَضُرَّنِي، وَإِنْ كَانَ صَادِقًا عَلِمْتُ، قَالَ: فَقَدِمْتُ فَأَتَيْتُهُ، فَلَمَّا قَدِمْتُ قَالَ النَّاسُ: عَدِيُّ بْنُ حَاتِمٍ، عَدِيُّ بْنُ حَاتِمٍ. قَالَ: فَدَخَلْتُ عَلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ لِي: " يَا عَدِيُّ بْنَ حَاتِمٍ، أَسْلِمْ تَسْلَمْ " ثَلَاثًا، قَالَ: قُلْتُ: إِنِّي عَلَى دِينٍ، قَالَ: " أَنَا أَعْلَمُ بِدِينِكَ مِنْكَ " فَقُلْتُ: أَنْتَ أَعْلَمُ بِدِينِي مِنِّي؟ قَالَ: " نَعَمْ، أَلَسْتَ مِنَ الرَّكُوسِيَّةِ (قال السندي: قوله: من الرَّكوسية، ضبط بفتح الراء، وهم النصارى.)، وَأَنْتَ تَأْكُلُ مِرْبَاعَ قَوْمِكَ؟ (مِرْباع القوم: كان الرئيس في الجاهلية يأخذ ربع مال الرعية، ويسمي ذلك الربع: المِرْباع.). " قُلْتُ: بَلَى، قَالَ: " فَإِنَّ هَذَا لَا يَحِلُّ لَكَ فِي دِينِكَ "، قَالَ: فَلَمْ يَعْدُ أَنْ قَالَهَا، فَتَوَاضَعْتُ لَهَا (فلم يَعْدُ، من عدا يعدو، أي: فما تجاوز قولَ هذه المقالة أن تواضعتُ لهذه المقالة.)، فَقَالَ: " أَمَا إِنِّي أَعْلَمُ مَا الَّذِي يَمْنَعُكَ مِنَ الْإِسْلَامِ، تَقُولُ: إِنَّمَا اتَّبَعَهُ ضَعَفَةُ النَّاسِ، وَمَنْ لَا قُوَّةَ لَهُ، وَقَدْ رَمَتْهُمْ الْعَرَبُ.

---

[79] من سلسلة الأحاديث الصحيحة للألبانى بتصرف واختصار ١\٣٢.

أَتَعْرِفُ الْحِيرَةَ (بلاد اليمن اليوم)؟ " قُلْتُ: لَمْ أَرَهَا، وَقَدْ سَمِعْتُ بِهَا. قَالَ: " فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَيُتِمَّنَّ اللهُ هَذَا الْأَمْرَ، حَتَّى تَخْرُجَ الظَّعِينَةُ (= المرأة المسافرة للحج وغيره) مِنَ الْحِيرَةِ، حَتَّى تَطُوفَ بِالْبَيْتِ فِي غَيْرِ جِوَارِ أَحَدٍ (أى من غير حماية وهى كناية عن الأمان وبلوغ ملك الإسلام الآفاق)، وَلَيَفْتَحَنَّ كُنُوزَ كِسْرَى بْنِ هُرْمُزَ (ملك الفرس أعظم قوة عسكرية وحضارية حينها) " قَالَ: قُلْتُ: كِسْرَى بْنُ هُرْمُزَ؟ قَالَ: " نَعَمْ، كِسْرَى بْنُ هُرْمُزَ، وَلَيُبْذَلَنَّ الْمَالُ حَتَّى لَا يَقْبَلَهُ أَحَدٌ " قَالَ عَدِيُّ بْنُ حَاتِمٍ: " فَهَذِهِ الظَّعِينَةُ تَخْرُجُ مِنَ الْحِيرَةِ، فَتَطُوفُ بِالْبَيْتِ فِي غَيْرِ جِوَارٍ، وَلَقَدْ كُنْتُ فِيمَنْ فَتَحَ كُنُوزَ كِسْرَى بْنِ هُرْمُزَ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَكُونَنَّ الثَّالِثَةُ، لِأَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ قَالَهَا ..."[٨٠]

وفى حديث آخر عن عدي بن حاتم كان عند النبي (ص) إذ أتاه رجل فشكا إليه الفاقة ثم أتاه آخر فشكا إليه قطع السبيل (وكان عدي قد وفد على النبي (ص) ليدخل في الاسلام وخشي النبي (ص) أن يفت في عضده ويثبطه عندما يرى من ضعف أهله وفقرهم وعدم انتشار الأمن في أرضهم حينذاك فألقى بالبشارات المذكورة في الحديث ترغيبا وتثبيتا) فقال: يا عدي هل رأيت الحيرة قال: لم أرها وقد أنبئت عنها قال: إن طالت بك حياة لترين الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف أحدا إلا الله وفي رواية إنه لا يأتي عليك إلا قليل حتى تخرج العير إلى مكة بغير خفير قال عدي: قلت فيما بيني وبين نفسي فأين دعار طيء الذين سعروا البلاد وأكمل النبي (ص) حديثه إليه فقال: ولئن طالت بك حياة لتفتحن كنوز كسرى قال: كسرى بن هرمز قال: كسرى بن هرمز ولئن طالت بك

٨١(صحح محققي المسند إسناده) وقال الحافظ في "الفتح" ٦١٣/٦ في شرح حديث البخاري السالف: قوله: "فلا يجد أحداً يقبله منه"، أي: لعدم الفقراء في ذلك الزمان، تقدم في الزكاة قول من قال: إن ذلك عند نزول عيسى بن مريم عليه السلام، ويحتمل أن يكون ذلك إشارة إلى ما وقع في زمن عمر بن عبد العزيز، وبذلك جزم البيهقي في "الدلائل" من طريق يعقوب بن سفيان بسنده إلى عمر بن أسيد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب قال: إنما ولي عمر بن عبد العزيز: ثلاثين شهراً ألا والله ما مات حتى جعل الرجل يأتينا بالمال العظيم، فيقول: اجعلوا هذا حيث ترون في الفقراء، فما يبرح حتى يرجع بماله، يتذكر من يضعه فيه، فلا يجده، وقد أغنى عمر الناس. قال البيهقي: فيه تصديق ما روينا في حديث عدي بن حاتم. انتهى. ولا شك في رجحان هذا الاحتمال على الأول لقوله في الحديث: "ولئن طالت بك حياة".ا.هـ.

حياة لترين الرجل يخرج ملء كفه من ذهب أو فضة يطلب من يقبله منه فلا يجد أحدا يقبله منه) ا. هـ. [٨١].

لقد كانوا يتندرون على محمد صلى الله عليه وسلم حين يزرع اليقين في أصحابه المستضعفين بالنصر وامتلاك الأرض.. لم يكونوا يدركوا أن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده، وأن العاقبة للمتقين، والتمكين لأهل الحق.. روى ابن إسحاق عن إياس بن عفيف عن أبيه أنه قال: كنت امرءا تاجرا فقدمت (منى) أيام الحج، وكان العباس بن عبد المطلب امرءا تاجرا، فأتيته أبتاع منه. قال: فبينا نحن إذ خرج رجل من خباء فقام يصلي تجاه الكعبة ثم خرجت امرأة فقامت تصلي وخرج غلام فقام يصلي معه، فقلت: يا عباس ما هذا الدين؟ إن هذا الدين ما أدري ما هو؟

فقال: هذا محمد بن عبد الله يزعم أن الله أرسله وأن كنوز كسرى وقيصر ستفتح عليه، وهذه امرأته خديجة بنت خويلد آمنت به، وهذا الغلام ابن عمه علي بن أبي طالب آمن به. قال عفيف: فليتني كنت آمنت يومئذ فكنت أكون رابعا [٨٢].

العجيب أن الكثير من المسلمين المنهزمين اليوم لا يتفكرون في هذا المشهد الفريد في الرواية السابقة عن رجلٍ واحد (صلى الله عليه وسلم) يصلى؛ وما على الأرض معه إلا امرأة وغلام، ثم ليقارن هذا المشهد بمشهد ملا يين من البشر هم بعضٌ من ملايين الملايين يهزون الدنيا بأصواتهم حول بيت الله الحرام (الله أكبر.. الله أكبر.. الله أكبر.. لا إله إلا الله.. الله أكبر.. الله أكبر.. ولله الحمد)، ولولا الرجولة الحقيقية لمحمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه ما بلغ هذا الدين، وهذا النور ما بلغ. روى البخاري عن جابر بن عبد الله، وأبو نعيم عن عبد الله بن عمر، والبيهقي وأبو نعيم عن البراء بن عازب، وابن سعد وابن جرير والبيهقي وأبو نعيم عن كثير بن عبد الله بن عمر وابن عوف عن أبيه عن جدّه، وأبو نعيم عن أنس رضي الله عنهم قالوا: عرض لنا في بعض الخندق صخرة عظيمة شديدة لا تأخذها المعاول، فشكونا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: «إنا نازل»، ثم قال: فلما رآها أخذ المعول وقال: «باسم الله» وضربها ضربة تكسر ثلثها وبرِقت برقِة أضاءت ما بين لابتي

٧٠(قال الألبانى رحمه الله في تخريج أحاديث مشكلة الفقر١\٨١ صحيح أخرجه البخاري وأحمد عن عدي بن حاتم)

[82](صحيح السيرة النبوية، الألباني، المكتبة الإسلامية – عمان – الأردن،١\١١٥)

المدينة حتى كأنّ مصباحا في جوف ليلة مظلمة، فقال: «الله أكبر، أعطيت مفاتيح فارس، والله إنيّ لأبصر قصر المدائن الأبيض» ثم ضربه التالية فقطع بقية الحجر، وبرِق منها برِقة أضاء ما بين لابتيها، فقال «الله أكبر، أعطيت مفاتيح اليمن، والله إني لأبصر صنعاء من مكاني السّاعة»[٨٣]. هذه الروح العالية.. هذا الإيمان وهذا اليقين، ولو حتى في أشد المواقف في تاريخ الإسلام حرجا، والمسلمين ضعفا.. هو بالضبط ما نحتاج بعضه في بناء الرجولة الحقيقية، وصنع الرجال صناعة إسلامية صحيحة.. تلقى للدنيا أجيالا جديدة؛ ترفع راية النور وتعيد للحق والهدى الريادة... فهل تعلمنا الدرس ؟!

مرةً بعد مرةٍ.. رجالٌ صدقوا ما عاهدوا الله عليه..

فما الصدق؟

إن للكلمات معانٍ في ألفاظها ومعانٍ في معانيها.. وأقصد الفرِق بين حرفية اللفظ ودلالته.. وحديثنا عن الرجولة موجه منذ البداية إلى مفهومها الدلالي، والذي لا يجدي نفعا أن ترسم حدوده كلمات قلائل.. فالرجولة معنىً سامٍ استخدمه اللغة في بعض مواضعه للإشارة إلى خصائص يتفرد بها إنسان ما، ليبلغ درجة التكريم الالهى الذي اختصه به الحق تعالى.. قلت إن الكلمات لاتصف هذا الارتقاء في تحمل مسؤولية الحق والوقوف جبلا شامخا في وجه أى محاولة لاهتزازه.. إنه أهم معاني الرجولة، وهى التي تنتظم كثيرا من معاني الأخلاق الرفيعة والقيم الراقية.. فالفرد من الناس حين لا يرضى إلا الأنوثة في امرأته فهو ذكر، ولكن حين يرفع قواعد بيت صالح بكل ما يكلفه ذلك؛ فهو الرجل حقا.. والشاب حين تجرى به الدنيا في ملاهيها ولا يعرف من عمره إلا اللذات.. يتبعها حيث كانت؛ فهو التائه الضائع لا شك، ولكن حين يدرك ما خلق له من الاستعداد عقلا وجسما وقلبا وروحا لمهمة إصلاح العالم وهدايته؛ فهو الفتى (من معنى الفتوة) اليوم، والرجل غدا.. وعلى هذا تقاس المعاني،

---

[83](سبل الهدى والرشاد، في سيرة خير العباد ٩\٥٠٨)

ولكن من يعقل قليل.. وقد آنستنا سير البطولة بنساء الواحدة فيهن بألف رجل.. بل وأطفال أكثر رجولة من الكثيرين فينا...

إن القرآن العظيم تحد ث عن الرجولة – بمعناها الدلالي – أكثر من مرة؛ ليربط الأذهان دائما بمقاييس الرجولة في الإسلام. ومن تلك المرات التي يتحدث فيها عن الرجولة الحقة، والتي تنبع من الإيمان بمبدأ الحق، واليقين بنصرته، وتفرز البطولات التي لا تنتهي رفعة للحق على أرض الواقع... يقول تعالى " وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا (٢٢) مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا (٢٣) لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا (٢٤)الأحزاب "..

في غزوة الأحزاب للسنة الخامسة من هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم.. وقد تجمعت كل قوى الشر؛ تريد الانقضاض على الإسلام للمرة الأخيرة لتبيده تماما وتمحوه من على وجه البسيطة.. والرسول والمؤمنون معه يحتمون بخندق صنعوه حول المدينة.. الحقيقة أن الإيمان كان يجمعهم خلف الخندق في خندق واحد..

(وقد كان أحرج موقف يقفه المسلمون، فلم يكن يحول بينهم وبين قريظة شيء يمنعهم من ضربهم من الخلف، بينما كان أمامهم جيش عرمرم لم يكونوا يستطيعون الانصراف عنه، وكانت ذراريهم ونساؤهم بمقربة من هؤلاء الغادرين في غير منعة وحفظ، وصاروا كما يقول الله تعالى: وَإِذْ زاغَتِ الْأَبْصارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَناجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا (١٠) هُنالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزالًا شَدِيداً (٣٣: ١٠، ١١) ونجم النفاق من بعض المنافقين، حتى قال: كان محمدا يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر، وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط. وحتى قال بعض آخر في ملأ من رجال قومه: إن بيوتنا عورة من العدو، فأذن لنا أن نخرج، فنرجع إلى دارنا، فإنها خارج المدينة، وحتى همت بنو سلمة بالفشل وفي هؤلاء أنزل الله تعالى: وَإِذْ يَقُولُ الْمُنافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ما وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُوراً (١٢) وَإِذْ قالَتْ طائِفَةٌ مِنْهُمْ يا أَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنا عَوْرَةٌ وَما هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِراراً (٣٣: ١٢، ١٣).) إلى هذا الحد كان الموقف عصيبا، (أما رسول الله صلّى الله عليه وسلم فتقنع بثوبه حين أتاه غدر قريظة، فاضطجع

ومكث طويلا، حتى اشتد على الناس البلاء، ثم غلبته روح الأمل، فنهض يقول: «الله أكبر، أبشروا يا معشر المسلمين بفتح الله ونصره»)[٨٤]. في هذا الموقف يُبتلى المؤمنون، وتظهر المعادن الأصلية للرجال.. هنا اختبار المتانة لصناعة الرجولة الإسلامية.. هنا يظهر للدنيا كلها جيلا من الرجال تربى في مدرسة محمد صلى الله عليه وسلم ليعلّم الدنيا معنى البطولة.. جيل مرسوا الابتلاءات والمحن حتى صقلتهم كما تصقل النار الذهب.. امتحن الله صدق إيمانهم؛ فما كان منهم إلا النجاح بامتياز.. حين تعلموا القرآن، وسمعوا الله فيه يقول" أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ (٢١٤)"البقرة).. وعوا الدرس جيدا، فكان الثبات والرجولة.. " وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ".. هذا هو طريق الصادقين.. والسؤال لنا اليوم، ماذا لو كنا مكانهم ؟!....

"من المؤمنين رجال ".. منهم.. وليس كل مؤمن يستحق معنى الرجولة.. فإن مجرد الإيمان بمعناه المجرد في التصديق لا يكفى لصنع رجل على الطريقة الإسلامية.. ولذلك شدد أهل الحق على أن الإيمان اعتقاد يصدقه القول والعمل.. وإلا فهو ادعاء أجوف ليس له على أرض الحياة دليل.. وكم اقترن العمل بالإيمان في آيات القرآن.. " ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون "٣٣ الأنعام... " من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله".. الصدق أصعب صفات الرجولة وأشقه على النفس، ولذا أفرده المحققون بالعناية، وأولوه من نفوسهم الرعاية..

فصلٌ للكلام عن الصدق.

قال حجة الإسلام الغزالي رحمه الله سبحانه وتعالى- في إحياءه: (اعلم أن لفظ الصدق يستعمل في ستة معان صدق في القول، وصدق في النية والإرادة، وصدق في العزم، وصدق في الوفاء بالعزم، وصدق في العمل، وصدق في تحقيق مقامات الدين كلها. فمن اتصف بالصدق في جميع ذلك فهو

---

[84](الرحيق المختوم –ط دار العصماء دمشق، ١ \ ٢٥١)

صديق لأنه مبالغة في الصدق. ثم هم أيضاً على درجات فمن كان له حظ في الصدق في شيء من الجملة فهو صادق بالإضافة إلى ما فيه صدقه.

الصدق الأول: صدق اللسان، وذلك لا يكون إلا في الإخبار أو فيما يتضمن الإخبار وينبه عليه، والخبر إما أن يتعلق بالماضي أو بالمستقبل.. وفيه يدخل الوفاء بالوعد، والخلف فيه، وَحَقٌّ عَلَى كُلِّ عَبْدٍ أَنْ يَحْفَظَ أَلْفَاظَهُ فلا يتكلم إلا بالصدق وهذا هو أشهر أنواع الصدق وأظهرها، فمن حفظ لسانه عن الإخبار عن الأشياء على خلاف ما هي عليه فهو صادق، ولكن له كمالان:

فالكمال الأول: في اللفظ أن يحترز عن صريح اللفظ بالكذب، وعن المعاريض أيضاً إلا عند الضرورة. والكمال الثاني: أَنْ يُرَاعِيَ مَعْنَى الصِّدْقِ فِي أَلْفَاظِهِ الَّتِي يُنَاجِي بِهَا رَبَّهُ كَقَوْلِهِ "وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فطر السموات والأرض " فَإِنَّ قَلْبَهُ إِنْ كَانَ مُنْصَرِفًا عَنِ اللَّهِ تَعَالَى مَشْغُولًا بِأَمَانِي الدُّنْيَا وَشَهَوَاتِهِ فَهُوَ كَذِبٌ. وكقوله " إياك نعبد" وقوله "أَنَا عَبْدُ اللَّهِ" فَإِنَّهُ إِذَا لَمْ يَتَّصِفْ بِحَقِيقَةِ الْعُبُودِيَّةِ وَكَانَ لَهُ مَطْلَبٌ سِوَى اللَّهِ لَمْ يَكُنْ كَلَامُهُ صِدْقًا؛ وَلَوْ طُولِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِالصِّدْقِ فِي قَوْلِهِ: أَنَا عَبْدُ اللَّهِ لعجز تَحْقِيقِهِ فَإِنَّهُ إِنْ كَانَ عَبْدًا لِنَفْسِهِ، أَوْ عَبْدًا لِدُنْيَا، أَوْ عَبْدًا لِشَهَوَاتِهِ لَمْ يَكُنْ صَادِقًا فِي قَوْلِهِ. وَكُلُّ مَا تَقَيَّدَ الْعَبْدُ به فهو عبد له كما قال عيسى عليه السلام يا عبيد الدنيا، وقال نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ " تَعِسَ عَبْدُ الدُّنْيَا وتعس عبد الدرهم وعبد الحلة وعبد الخميصة " فسمى كُلَّ مَنْ تَقَيَّدَ قَلْبُهُ بِشَيْءٍ عَبْدًا لَهُ. وَإِنَّمَا الْعَبْدُ الْحَقُّ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مَنْ أعتق أولاً من غير الله تعالى فصار حراً مطلقاً، فإذا تقدمت هذه الحرية صار القلب فارغاً فحلت فيه العبودية لله فتشغله بالله وبمحبته، وتقيد باطنه وظاهره بطاعته؛ فلا يكون له مراد إلا الله تعالى، ثم تجاوز هذا إلى مقام آخر أسنى منه يسمى الحرية وهو أن يعتق أيضاً عن إرادته لله من حيث هو بل يقنع بما يريد الله له من تقريب أو إبعاد فتفنى إرادته في إرادة الله تعالى، وهذا عبد عتق عن غير الله فصار حراً ثم عاد وعتق عن نفسه فصار حراً وصار مفقوداً لنفسه موجوداً لسيده ومولاه؛ إن حركه تحرك، وإن سكنه سكن، وإن ابتلاه رضي لم يبق فيه متسع لطلب والتماس واعتراض؛ بل هو بين يدي الله كالميت بين يدي الغاسل وهذا منتهى الصدق في العبودية لله تعالى. فالعبد الحق هو الذي وجوده لمولاه لا لنفسه وهذه درجة الصديقين. وأما الحرية عن غير الله فدرجات الصادقين، وبعدها تتحقق العبودية لله تعالى، وما قبل هذا فلا يستحق صاحبه أن يسمى صادقاً ولا صديقاً فهذا هو معنى الصدق في القول.

الصدق الثاني: فِي النِّيَّةِ وَالْإِرَادَةِ وَيَرْجِعُ ذَلِكَ إِلَى الْإِخْلَاصِ، وَهُوَ أَنْ لَا يَكُونَ لَهُ بَاعِثٌ فِي الْحَرَكَاتِ وَالسَّكَنَاتِ إِلَّا اللَّهُ تَعَالَى. فَإِنْ مَازَجَهُ شَوْبٌ مِنْ حُظُوظِ النَّفْسِ بَطَلَ صِدْقُ النِّيَّةِ، وصاحبه يجوز أن يسمى كاذباً كما روينا في فضيلة الإخلاص من حديث الثلاثة حين يسئل العالم ما عملت فيما علمت؟ فقال: فعلت كذا وكذا، فقال الله تعالى: كذبت بل أردت أن يقال فلان عالم. فإنه لم يكذبه ولم يقل له لم تعمل ولكنه كذبه في إرادته ونيته. وقد قال بعضهم الصدق صحة التوحيد في القصد.

وكذلك قول الله تعالى "والله يشهد إن المنافقين لكاذبون" وقد قالوا إنك لرسول الله وهذا صدق ولكن كذبهم لا من حيث نطق اللسان بل من حيث ضمير القلب وكان التكذيب يتطرق إلى الخبر. وهذا القول يتضمن إخباراً بقرينة الحال، إذ صاحبه يظهر من نفسه أن يعتقد ما يقول فكذب في دلالته بقرينة الحال على ما في قلبه، فإنه كذب في ذلك، ولم يكذب فيما يلفظ به فيرجع أحد معاني الصدق إلى خلوص النية وهو الإخلاص فكل صادق فلا بد وأن يكون مخلصاً.

الصدق الثالث: صدق العزم، فإن الإنسان قد يقدم العزم على العمل؛ فيقول في نفسه

{إن رزقني الله مالاً تصدقت بجميعه أو بشطره }أو {إن لقيت عدواً في سبيل الله تعالى قاتلت ولم أبال وإن قتلت}{ وإن أعطاني الله تعالى وِلَايَةً عَدَلْتُ فِيهَا وَلَمْ أَعْصِ اللَّهَ تَعَالَى بظلم وميل إلى خلق}، فهذه العزيمة قد يصادفها من نفسه وهي عزيمة جازمة صادقة، وقد يكون في عزمه نوع ميل وتردد وضعف يضاد الصدق في العزيمة.. فكان الصدق ههنا عبارة عن التمام والقوة كما يقال لفلان شهوة صادقة، ويقال هذا المريض شهوته كاذبة إذا لم تكن شهوته عن سبب ثابت قوي أو كانت ضعيفة، فقد يطلق الصدق ويراد به هذا المعنى. والصادق والصديق هُوَ الَّذِي تُصَادِفُ عَزِيمَتُهُ فِي الْخَيْرَاتِ كُلِّهَا قُوَّةً تَامَّةً لَيْسَ فِيهَا مَيْلٌ وَلَا ضَعْفٌ ولا تردد؛ بل تسخو نفسه أبداً بالعزم المصمم الجازم على الخيرات وهو كما قال عمر رضي الله عنه: (لأن أقدم فتضرب عنقي أحب إلي من أن أتأمر على قوم فيهم أبو بكر رضي الله عنه) فإنه قد وجد من نفسه العزم الجازم والمحبة الصادقة بأنه لا يتأمر مع وجود أبي بكر رضي الله عنه، وأكد ذلك بما ذكره من القتل.

ومراتب الصديقين في العزائم تختلف فقد يصادف العزم ولا ينتهي به إلى أن يرضى بالقتل فيه؛ ولكن إذا خلي ورأيه لم يقدم، ولو ذكر له حديث القتل لم ينقض عزمه.. بل في الصادقين والمؤمنين من لو خير بين أن يقتل هو أو أبو بكر كانت حياته أحب من حياة أبي بكر الصديق.

الصدق الرابع: فِي الْوَفَاءِ بِالْعَزْمِ، فَإِنَّ النَّفْسَ قَدْ تَسْخُو بِالْعَزْمِ فِي الْحَالِ إِذْ لَا مَشَقَّةَ فِي الوعد والعزم، والمؤنة فِيهِ خَفِيفَةٌ.. فَإِذَا حُقَّتِ الْحَقَائِقُ وَحَصَلَ التَّمَكُّنُ وَهَاجَتِ الشَّهَوَاتُ انْحَلَّتِ الْعَزِيمَةُ وَغَلَبَتِ الشَّهَوَاتُ، وَلَمْ يَتَّفِقِ الْوَفَاءُ بِالْعَزْمِ. وَهَذَا يُضَادُّ الصِّدْقَ فِيهِ.. وَلِذَلِكَ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عاهدوا الله عليه فَقَدْ رُوِيَ عَنْ أنس أَنَّ عَمَّهُ أنس بن النضر لَمْ يَشْهَدْ بَدْرًا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَى قَلْبِهِ وَقَالَ أَوَّلُ مَشْهَدٍ شَهِدَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غِبْتُ عَنْهُ أَمَا وَاللَّهِ لَئِنْ أَرَانِي اللَّهُ مَشْهَدًا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَيَرَيَنَّ اللَّهُ مَا أَصْنَعُ قَالَ فَشَهِدَ أُحُدًا فِي الْعَامِ الْقَابِلِ فَاسْتَقْبَلَهُ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ فَقَالَ يا أبا عمرو إِلَى أَيْنَ فَقَالَ وَاهًا لِرِيحِ الْجَنَّةِ إِنِّي أَجِدُ رِيحَهَا دُونَ أُحُدٍ، فَقَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ فَوُجِدَ فِي جَسَدِهِ بِضْعٌ وَثَمَانُونَ مَا بَيْنَ رمية وضربة وطعنة فقالت أخته بنت النضر مَا عَرَفْتُ أَخِي إِلَّا بِثِيَابِهِ فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ، ووقف رسول الله صلى الله عليه وسلم على مصعب بن عمير وقد سقط على وجهه يوم أحد شهيداً وكان صاحب لواء رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال صلى الله عليه وسلم رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر، وقال فضالة بن عبيد سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول الشهداء أربعة رجل مؤمن جيد الإيمان لقي العدو فصدق الله حتى قتل فذلك الذي يرفع الناس إليه أعينهم يوم القيامة هكذا ورفع رأسه حتى وقعت قلنسوته قال الراوي فلا أدري قلنسوة عمر أو قلنسوة رسول الله صلى الله عليه وسلم ورجل جيد الإيمان إذا لقي العدو فكأنما يضرب وجهه بشوك الطلح أتاه سهم عاثر فقتله فهو في الدرجة الثانية ورجل مؤمن خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً لقي العدو فصدق الله حتى قتل فذاك في الدرجة الثالثة ورجل أسرف على نفسه لقي العدو فصدق الله حتى قتل فذلك في الدرجة الرابعة. فَجَعَلَ الْعَزْمَ عَهْدًا وَجَعَلَ الْخُلْفَ فِيهِ كَذِبًا والوفاء به صدقاً

. وهذا الصدق أشد من الصدق الثالث فإن الناس قد تسخو بالعزم ثم تكيع عند الوفاء لشدته عليها ولهيجان الشهوة عند التمكن وحصول الأسباب.

الصدق الخامس: فِي الْأَعْمَالِ، وَهُوَ أَنْ يَجْتَهِدَ حَتَّى لَا تَدُلَّ أَعْمَالُهُ الظَّاهِرَةُ عَلَى أَمْرٍ فِي بَاطِنِهِ لا يتصف هو به؛ لا بأن يترك الأعمال ولكن بأن يستجر الباطن إلى تصديق الظاهر. وهذا مخالف ما ذكرناه من ترك الرياء لأن المرائي هو الذي يقصد ذلك، ورب واقف على هيئة الخشوع في صلاته ليس يقصد به مشاهدة غيره، ولكن قلبه غافل عن الصلاة، فمن ينظر إليه يراه قائما بين يدي الله تعالى، وهو بالباطن قَائِمٌ فِي السُّوقِ بَيْنَ يَدَيْ شَهْوَةٍ مِنْ شهواته.. فهذه أعمال تعرب بلسان الحال عن الباطن إعرابا هو فيه كاذب، وهو مطالب بالصدق في الأعمال، وكذلك قد يمشي الرجل على هيئة السكون والوقار وليس باطنه موصوفاً بذلك الوقار فهذا غير صادق في عمله؛ وإن لم يكن ملتفتاً إلى الخلق ولا مرائياً إياهم. ولا ينجو من هذا إلا باستواء السَّرِيرَةِ وَالْعَلَانِيَةِ بِأَنْ يَكُونَ بَاطِنُهُ مِثْلَ ظَاهِرِهِ أو خيراً من ظاهره. إذن مخالفة الظاهر للباطن إن كانت عن قصد سميت رياء ويفوت بها الإخلاص، وإن كانت عن غير قصد فيفوت بها الصدق.

... قال يزيد بن الحارث: إذا استوت سريرة العبد وعلانيته فذلك النصف، وإن كانت سريرته أفضل من علانيته فذلك الفضل، وإن كانت علانيته أفضل من سريرته فذلك الجور.

وقال عطية بن عبد الغافر: إذا وافقت سريرة المؤمن علانيته باهى الله به الملائكة يقول هذا عبدي حقاً. وقال عبد الواحد بن زيد: كان الحسن إذا أمر بشيء كان من أعمل الناس به، وإذا نهي عن شيء كان من أترك الناس له، ولم أر أحداً قط أشبه سريرة بعلانية منه. وكان أبو عبد الرحمن الزاهد يقول: إلهي عاملت الناس فيما بيني وبينهم بالأمانة، وعاملتك فيما بيني وبينك بالخيانة ويبكي. وقال أبو يعقوب النهر جوري: الصدق موافقة الحق في السر والعلانية. فإذن مساواة السريرة للعلانية أحد أنواع الصدق.

الصدق السادس: وهو أعلى الدرجات وأعزها الصدق في مقامات الدين كالصدق في الخوف والرجاء والتعظيم والزهد والرضا والتوكل والحب وسائر هذه الأمور، فإن هذه الأمور لها مباد ينطلق الاسم بظهورها ثم لها غايات وحقائق والصادق المحقق من نال حقيقتها وإذا غلب الشيء وتمت حقيقته سمي صاحبه صادقاً فيه كما يقال فلان صدق القتال، ويقال هذا هو الخوف الصادق وهذه هي الشهوة الصادقة.

وقال الله تَعَالَى "إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثم لم يرتابوا"- إلى قوله –"أولئك هم الصادقون". وقال تعالى "ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر"- إلى قوله- " أولئك الذين صدقوا".

ولنضرب للخوف مثلاً فما من عبد يؤمن بالله واليوم الآخر إلا وهو خائف من الله خوفاً ينطلق عليه الاسم، ولكنه خوف غير صادق أي غير بالغ درجة الحقيقة.. أما تراه إذا خاف سلطاناً أو قاطع طريق في سفره كيف يصفر لونه، وترتعد فرائصه، ويتنغص عليه عيشه، ويتعذر عليه أكله ونومه، وينقسم عليه فكره حتى لا ينتفع به أهله وولده، وقد ينزعج عن الوطن فيستبدل بالأنس الوحشة، وبالراحة التعب، والمشقة والتعرض للأخطار كل ذلك خوفاً من درك المحذور؟! ثم إنه يخاف النار ولا يظهر عليه شيء من ذلك عند جريان معصية عليه! ولذلك قال صلى الله عليه وسلم " لم أر مثل النار نام هاربها ولا مثل الجنة نام طالبها ". فالتحقيق في هذه الأمور عزيز جداً، ولا غاية لهذه المقامات حتى ينال تمامها، ولكن لكل عبد منه حظ بحسب حاله إما ضعيف وإما قوي، فإذا قوي سمي صادقاً فيه.

فمعرفة الله تعالى وتعظيمه والخوف منه لا نهاية لها... ، وكذلك الصحابة كانوا خائفين وما كانوا بلغوا خوف رسول الله صلى الله عليه وسلم ولذلك قال ابن عمر رضي الله عنهما: لن تبلغ حقيقة الإيمان حتى تنظر الناس كلهم حمقى في دين الله.

وقال مطرف: ما من الناس أحد إلا وهو أحمق فيما بينه وبين ربه، إلا أن بعض الحمق أهون من بعض.... فالصادق إذن في جميع هذه المقامات عزيز، ثُمَّ دَرَجَاتُ الصِّدْقِ لَا نِهَايَةَ لَهَا وَقَدْ يَكُونُ لِلْعَبْدِ صِدْقٌ فِي بَعْضِ الْأُمُورِ دُونَ بَعْضٍ فَإِنْ كَانَ صَادِقًا فِي الْجَمِيعِ فَهُوَ الصديق حقاً. قال سعد بن معاذ: ثلاثة أنا فيهن قوي وفيما سواهن ضعيف. ما صليت صلاة منذ أسلمت فحدثت نفسي حتى أفرغ منها، ولا شيعت جنازة فحدثت نفسي بغير ما هي قائلة وما هو مقول لها حتى يفرغ من دفنها، وما سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول قولاً إلا علمت أنه حق، فقال ابن المسيب ما ظننت أن هذه الخصال تجتمع إلا في النبي صلى الله عليه وسلم فهذا صدق في هذه الأمور وكم قوم من جلة الصحابة قد أدوا الصلاة واتبعوا الجنائز ولم يبلغوا هذا المبلغ)[85]. هـ.

---

[85] من إحياء علوم الدين للغزالى ٤\٣٨٧-٣٩٢ دار المعرفة بيروت.بتصرف واختصار.

ونعود مرة أخرى....

ونعود إلى قوله تعالى " من المؤمنين رجال صدقوا مَا عاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَما بَدَّلُوا تَبْدِيلاً (٢٣)الأحزاب " ليذكر لنا التاريخ رجلا منهم هو الصحابي أنس بن النضر ر. (رَوَى الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ وَالتِّرْمِذِيُّ عَنْ أَنَسٍ قَالَ: قَالَ عَمِّي أَنَسُ بْنُ النَّضْرِ- سُمِّيتُ بِهِ- وَلَمْ يَشْهَدْ بَدْرًا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَكَبُرَ عَلَيْهِ فَقَالَ: أَوَّلُ مَشْهَدٍ شَهِدَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غِبْتُ عَنْهُ، أَمَا وَاللَّهِ لَئِنْ أَرَانِي اللَّهُ مَشْهَدًا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيمَا بَعْدُ لَيَرَيَنَّ اللَّهُ مَا أَصْنَعُ. قَالَ: فَهَابَ أَنْ يَقُولَ غَيْرَهَا، فَشَهِدَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ أُحُدٍ مِنَ الْعَامِ الْقَابِلِ، فَاسْتَقْبَلَهُ سَعْدُ بْنُ مَالِكٍ فَقَالَ: يَا أَبَا عَمْرٍو أَيْنَ؟ قَالَ: وَاهًا لِرِيحِ الْجَنَّةِ! أَجِدُهَا دُونَ أُحُدٍ، فَقَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ، فَوُجِدَ فِي جَسَدِهِ بِضْعٌ وَثَمَانُونَ مَا بَيْنَ ضَرْبَةٍ وَطَعْنَةٍ وَرَمْيَةٍ. فَقَالَتْ عَمَّتِي الرُّبَيِّعُ بِنْتُ النَّضْرِ: فَمَا عَرَفْتُ أَخِي إِلَّا بِبَنَانِهِ. وَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ" رِجالٌ صَدَقُوا مَا عاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ... الآية "ا. هـ. [٨٦]

.. (قد كانوا ناسا من البشر، لا يملكون أن يتخلصوا من مشاعر البشر، وضعف البشر. وليس مطلوبا منهم أن يتجاوزوا حدود جنسهم البشري ولا أن يخرجوا من إطار هذا الجنس ويفقدوا خصائصه ومميزاته. فلهذا خلقهم الله. خلقهم ليبقوا بشرا، ولا يتحولوا جنسا آخر. لا ملائكة ولا شياطين، ولا بهيمة ولا حجرا.. كانوا ناسا من البشر يفزعون، ويضيقون بالشدة، ويزلزلون للخطر الذي يتجاوز الطاقة. ولكنهم كانوا- مع هذا- مرتبطين بالعروة الوثقى التي تشدهم إلى الله وتمنعهم من السقوط وتجدد فيهم الأمل، وتحرسهم من القنوط.. وكانوا بهذا وذاك نموذجا فريدا في تاريخ البشرية لم يعرف له نظير. وعلينا أن ندرك هذا لندرك ذلك النموذج الفريد في تاريخ العصور. علينا أن ندرك أنهم كانوا بشرا، لم يتخلوا عن طبيعة البشر، بما فيها من قوة وضعف. وأن منشأ امتيازهم أنهم بلغوا في بشريتهم هذه أعلى قمة مهيأة لبني الإنسان، في الاحتفاظ بخصائص البشر في الأرض مع الاستمساك بعروة السماء. وحين نرانا ضعفنا مرة، أو زلزلنا مرة، أو فزعنا مرة، أو ضقنا مرة بالهول والخطر والشدة

---

[86] لَفْظُ التِّرْمِذِيِّ. نقلا عن تفسير القرطبي ١٤\١٥٩)

والضيق.. فعلينا ألا نيأس من أنفسنا، وألا نهلع ونحسب أننا هلكنا أو أننا لم نعد نصلح لشيء عظيم أبدا! ولكن علينا في الوقت ذاته ألا نقف إلى جوار ضعفنا لأنه من فطرتنا البشرية! ونصر عليه لأنه يقع لمن هم خير منا! هنالك العروة الوثقى. عروة السماء. وعلينا أن نستمسك بها لننهض من الكبوة، ونسترد الثقة والطمأنينة، ونتخذ من الزلزال بشيرا بالنصر. فنثبت ونستقر، ونقوى ونطمئن، ونسير في الطريق.. وهذا هو التوازن الذي صاغ ذلك النموذج الفريد في صدر الإسلام. النموذج الذي يذكر عنه القرآن الكريم مواقفه الماضية وحسن بلائه وجهاده، وثباته على عهده مع الله، فمنهم من لقيه، ومنهم من ينتظر أن يلقاه: «مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجالٌ صَدَقُوا ما عاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ. فَمِنْهُمْ مَنْ قَضى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ. وَما بَدَّلُوا تَبْدِيلًا»..

هذا في مقابل ذلك النموذج الكريه. نموذج الذين عاهدوا الله من قبل لا يولون الأدبار. ثم ولم يوفوا بعهد الله: «وَكانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْؤُلًا».. وهذه الصورة الوضيئة لهذا النموذج من المؤمنين تذكر هنا تكملة لصورة الإيمان، في مقابل صورة النفاق الضعف ونقض العهد من ذلك الفريق. لتتم المقابلة في معرض التربية بالأحداث وبالقرآن.

ويعقب عليها ببيان حكمة الابتلاء، وعاقبة النقض والوفاء وتفويض الأمر في هذا كله لمشيئة الله: «لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ، وَيُعَذِّبَ الْمُنافِقِينَ- إِنْ شاءَ- أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ. إِنَّ اللَّهَ كانَ غَفُوراً رَحِيماً».. ومثل هذا التعقيب يتخلل تصوير الحوادث والمشاهد- ليرد الأمر كله إلى الله، ويكشف عن حكمة الأحداث والوقائع. فليس شيء منها عبثا ولا مصادفة. إنما تقع وفق حكمة مقدرة، وتدبير قاصد. وتنتهي إلى ما شاء الله من العواقب. وفيها تتجلى رحمة الله بعباده. ورحمته ومغفرته أقرب وأكبر: «إِنَّ اللَّهَ كانَ غَفُوراً رَحِيماً»)[87].

وهكذا ينتهي درس غزوة الأحزاب؛ ليعلمنا درسا في صناعة الرجولة الإسلامية يتلخص في كلمتين اليقين والصدق... واختم هذا الدرس بكلمات للدكتور الخطيب يلخص فيها ما أصلناه هنا (قوله تعالى: «مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجالٌ صَدَقُوا ما عاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَما بَدَّلُوا تَبْدِيلًا». أي من المؤمنين الذين سلموا من النفاق، رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه.. إذ ليس

---

[87] في ظلال القرآن لسيد قطب٥\٢٨٤٥ط الشروق..

كلّ المؤمنين على درجة واحدة في إيمانهم.. بل هم درجات في الإيمان (والعمل بلوازمه ومقتضياته)، كما أنهم درجات عند الله.. وحرف الجرّ «من» هنا للتبعيض.. أي أن بعض المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه. – وفي قوله تعالى: «رجال» إشارة إلى أنهم أناس قد كملت رجولتهم، وسلمت لهم إنسانيتهم.. فكانوا رجالا حقّا، لم ينتقص من إنسانيتهم شيء.. فالكفر، والشرك، والنفاق، وضعف الإيمان، كلّها أمراض خبيثة، تغتال إنسانيّة الإنسان، وتفقده معنى الرجولة فيه.. فالرجل كلّ الرجل، هو من تحرّر عقله من الضلال، وصفت روحه من الكدر، وسلم قلبه من الزيغ.. ثم لا عليه بعد هذا ألا يمسك بيده شيء من جمال الصورة، أو وفرة المال، أو قوة السلطان. وفي تنكير «رجال» معنى التفخيم، والتعظيم، كما يقول الله تعالى: «يُسَبِّحُ لَهُ فِيها بِالْغُدُوِّ وَالْآصالِ رِجالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقامِ الصَّلاةِ وَإِيتاءِ الزَّكاةِ يَخافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصارُ» (٣٦: ٣٧ النور) وكما يقول سبحانه: «لا تَقُمْ فِيهِ أَبَداً لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ.. فِيهِ رِجالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ» (١٠٨ التوبة). – وقوله تعالى: «فَمِنْهُمْ مَنْ قَضى نَحْبَهُ» أي من هؤلاء الرجال من مات، وهو على إيمانه الوثيق بالله، وفي موقف الجهاد في سبيل الله، قد وفى بما نذره الله، وعاهد الله عليه. – وقوله تعالى: «وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ» أي من ينتظر قضاء الله فيه، موتاً، أو استشهادا في ميدان القتال، فهو على ترقب وانتظار لليوم الذي تتاح له فيه الفرصة للوفاء بنذره وعهده. – وفي قوله تعالى: «يَنْتَظِرُ» إشارة إلى أن المؤمن الصادق الإيمان، ينتظر لقاء ربّه، وهو في شوق إلى هذا اللقاء، يعدّ له اللحظات، ويستطيل أيام الحياة الدنيا، في طريقه إلى ربه.. شأن من ينتظر أمرا محبوبا هو على موعد معه.. – وقوله تعالى: «وَما بَدَّلُوا تَبْدِيلًا».. إشارة إلى أن إيمانهم بالله، ويقينهم بلقائه لم يزايل مكانه من قلوبهم لحظة، ولم ينحرف عن موضعه أي انحراف.. فهم على حال واحدة من أمر ربّهم، ومن الثقة بما وعدهم الله على يد رسوله.. على حين أن كثيرا ممن كان معهم ممن أسلموا ولم يدخل الإيمان في قلوبهم، قد بدّلوا مواقفهم، وكثرت تحركاتهم بين الإيمان والكفر...)[88] أ. هـ.

---

[88].من التفسير القرآني للقرآن١١\٦٨١ دار الفكر العربي القاهرة

فهل تعرف الآن كيف انتصر صحْبُ محمدٍ صلى الله عليه وسلم ؟!

أرجع وأقول إن الرجولة في الإسلام ليست وليدة الموقف، وإنما وليدة العقيدة.. وليست أى عقيدة؛ إنما هي الاعتقاد الحق الذي تمليه الإنسانية المكرمة، والفطرة السليمة، والعقل الصحيح، والروح النقية من دنس رغبات النفس وأدرانها.. ولذلك فإن المبدأ الذي يربط الرجال برجولتهم في الإسلام يرتقى ليضع أسمى القواعد التي عرفتها الإنسانية في تبعات الرجولة ومواقف البطولة...

القصة رواها البخاري رحمه الله تعالى في مواضع عدة من كتابه الصحيح كذا رواها أصحاب السير وغيرهم (قَالَ الْبُخَارِيُّ: (بسنده)، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: بُعِثَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَرِيَّةً عَيْنًا، وَأَمَّرَ عَلَيْهِمْ عَاصِمَ بْنَ ثَابِتٍ، وَهُوَ جَدُّ عَاصِمِ بْنِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ. فَانْطَلَقُوا حَتَّى إِذَا كَانُوا بَيْنَ عُسْفَانَ وَمَكَّةَ، ذُكِرُوا لِحَيٍّ مِنْ هُذَيْلٍ يُقَالُ لَهُمْ بَنُو لِحْيَانَ، فَتَبِعُوهُمْ بِقَرِيبٍ مِنْ مِائَةِ رَامٍ، فَاقْتَصُّوا آثَارَهُمْ حَتَّى أَتَوْا مَنْزِلًا نَزَلُوهُ فَوَجَدُوا فِيهِ نَوَى تَمْرٍ تَزَوَّدُوهُ مِنَ الْمَدِينَةِ فَقَالُوا: هَذَا تَمْرُ يَثْرِبَ. فَتَبِعُوا آثَارَهُمْ حَتَّى لَحِقُوهُمْ.

فَلَمَّا انْتَهَى عَاصِمٌ وَأَصْحَابه لجأوا إِلَى فَدْفَدٍ (مكان مرتفع من الأرض)، وَجَاءَ الْقَوْمُ فَأَحَاطُوا بِهِمْ فَقَالُوا: لَكُمُ الْعَهْدُ وَالْمِيثَاقُ إِنْ نَزَلْتُمْ إِلَيْنَا أَلَّا نَقْتُلَ مِنْكُمْ رَجُلًا.

فَقَالَ عَاصِمٌ: أَمَّا أَنَا فَلَا أَنْزِلُ فِي ذِمَّةِ كَافِرٍ، اللَّهُمَّ أَخْبِرْ عَنَّا رَسُولَكَ.

فَقَاتَلُوهُمْ حَتَّى قَتَلُوا عَاصِمًا فِي سَبْعَةِ نَفَرٍ بِالنَّبْلِ. وَبَقِيَ خُبَيْبٌ وَزَيْدٌ وَرَجُلٌ آخَرُ، فَأَعْطَوْهُمُ الْعَهْدَ وَالْمِيثَاقَ، فَلَمَّا أَعْطَوْهُمُ الْعَهْدَ والميثاق نَزَلُوا إِلَيْهِمْ، فَلَمَّا اسْتَمْكَنُوا مِنْهُمْ حَلُّوا أَوْتَارَ قِسِيِّهِمْ فَرَبَطُوهُمْ بِهَا، فَقَالَ الرَّجُلُ الثَّالِثُ الَّذِي مَعَهُمَا: هَذَا أَوَّلُ الْغَدْرِ! فَأَبَى أَنْ يَصْحَبَهُمْ. فَجَرُّوهُ وَعَالَجُوهُ عَلَى أَنْ يَصْحَبَهُمْ فَلَمْ يَفْعَلْ، فَقَتَلُوهُ.

وَانْطَلَقُوا بِخُبَيْبٍ، وَزَيْدٍ حَتَّى بَاعُوهُمَا بِمَكَّةَ، فَاشْتَرَى خُبَيْبًا بَنُو الْحَارِثِ بْنُ عَامِرِ بْنِ نَوْفَلٍ، وَكَانَ خُبَيْبٌ هُوَ قَتَلَ الْحَارِثَ يَوْمَ بَدْرٍ، فَمَكَثَ عِنْدَهُمْ أَسِيرًا حَتَّى إِذَا أَجْمَعُوا قَتْلَهُ اسْتَعَارَ مُوسًى مِنْ بَعْضِ بَنَاتِ الْحَارِثِ يستحد بِهَا فَأَعَارَتْهُ.

قَالَتْ: فَغَفَلْتُ عَنْ صَبِيٍّ لِي فَدَرَجَ إِلَيْهِ حَتَّى أَتَاهُ فَوَضَعَهُ عَلَى فَخِذِهِ، فَلَمَّا رَأَيْتُهُ فَزِعْتُ فَزْعَةً عَرَفَ ذَلِكَ مِنِّي، وَفِي يَدِهِ الْمُوسَى فَقَالَ: أَتَخْشَيْنَ أَنْ أَقْتُلَهُ؟ مَا كنت لأفعل ذَلِك إِنْ شَاءَ اللَّهُ.

وَكَانَتْ تَقُولُ: مَا رَأَيْتُ أَسِيرًا قَطُّ خَيْرًا مِنْ خُبَيْبٍ، لَقَدْ رَأَيْتُهُ يَأْكُلُ مِنْ قَطْفِ عِنَبٍ وَمَا بِمَكَّةَ يَوْمَئِذٍ مِنْ ثَمَرٍ، وَإِنَّهُ لَمُوثَقٌ فِي الْحَدِيدِ وَمَا كَانَ إِلَّا رِزْقًا رَزَقَهُ اللَّهُ.

فَخَرَجُوا بِهِ مِنَ الْحَرَمِ لِيَقْتُلُوهُ فَقَالَ: دَعَونِي أُصَلِّي رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ انْصَرَفَ إِلَيْهِمْ فَقَالَ: لَوْلَا أَنْ تَرَوْا أَنَّ مَا بِي جَزَعٌ مِنَ الْمَوْتِ لَزِدْتُ. فَكَانَ أَوَّلَ مَنْ سَنَّ الرَّكْعَتَيْنِ عِنْدَ الْقَتْلِ هُوَ. ثُمَّ قَالَ: اللَّهُمَّ أَحْصِهِمْ عَدَدًا وَاقْتُلْهُمْ بِدَدًا. ثُمَّ قَالَ:

وَلَسْتُ أُبَالِي حِينَ أُقْتَلُ مُسْلِمًا * عَلَى أَيِّ شِقٍّ كَانَ فِي اللَّهِ مصرعي

وَذَلِكَ فِي ذَات الْإِلَه وَإِن يَشَأْ * يُبَارِكْ عَلَى أَوْصَالِ شِلْوٍ مُمَزَّع

قَالَ: ثُمَّ قَامَ إِلَيْهِ عُقْبَةُ بْنُ الْحَارِثِ فَقَتَلَهُ، وَبَعَثَتْ قُرَيْش إِلَى عَاصِم ليؤتوا بشئ مِنْ جَسَدِهِ يَعْرِفُونَهُ، وَكَانَ عَاصِمٌ قَتَلَ عَظِيمًا من عظمائهم يَوْم بدر، فَبعث الله عَلَيْهِ مِثْلَ الظُّلَّةِ مِنَ الدَّبْرِ (ذكور النحل) فَحَمَتْهُ مِنْ رسلهم فَلم يقدروا مِنْهُ على شئ. هَكَذَا سَاقَ الْبُخَارِيُّ فِي كتاب المغازى من صَحِيحه قصَّة الرَّجِيعِ. وَرَوَاهُ أَيْضًا فِي التَّوْحِيدِ وَفِي الْجِهَادِ مِنْ طُرُق فَكَانَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ يَقُولُ حِينَ بَلَغَهُ أَنَّ الدَّبْرَ مَنَعَتْهُ: يَحْفَظُ اللَّهُ الْعَبْدَ الْمُؤْمِنَ! انَ عَاصِم نذر أَلا يَمَسَّهُ مُشْرِكٌ وَلَا يَمَسَّ مُشْرِكًا أَبَدًا فِي حَيَاتِهِ، فَمَنَعَهُ اللَّهُ بَعْدَ وَفَاتِهِ كَمَا امْتَنَعَ مِنْهُ فِي حَيَاتِهِ! (ا. هـ.)[89]

وأما زيد بن الدثنة رضي الله عنه فابتاعه صفوان بن أمية فقتله بأبيه.

وقد قال له أبو سفيان: أيسرك أن محمداً عندنا تضرب عنقه، وأنك في أهلك؟ فقال: والله ما يسرني أني في أهلي وأن محمداً في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه. يقول أبو سفيان: ما رأيت من الناس أحدا يحب أحدا كحب أصحاب محمد محمدا.)[90]...

---

[89] من السيرة النبوية لابن كثير ٣\١٢٥)..

[90] (الفصول في سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم لابن كثير ١\١٥٤ط مؤسسة علوم القرآن..)

وهنا يحتار القلم من أى نقطة يبتدى من شجاعة عاصم بن ثابت رضي الله عنه وأصحابه، وهو يأبى أن يسلم سيفه إلا صريعا جنبه مقاتلا في سبيل الله.. يرتفع بإيمانه فوق أشد شغفٍ وحبٍ للإنسان.. شغف الحياة.. وأى عقيدة في الكون إلا الإسلام ترتقي فيها التضحية إلى الجود بالنفس راضيا؟!.. وأى دنسٍ يفر منه رجل هو مستعد لدفع روحه ثمنا لفراره.. قَالَ عَاصِمٌ: أَمَّا أَنَا فَلَا أَنْزِلُ فِي ذِمَّةِ كَافِرٍ، اللَّهُمَّ أَخْبِرْ عَنَّا رَسُولَكَ... هكذا كانوا بالمقال والحال يقولون "قُلْ أَنَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الأرض حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ "(٧١)سورة الأنعام... وعاصم رضى الله عنه صاحب الكرامة – وقد كان أعطى الله عهدا أن لا يمس مشركا وألا يمسه مشرك أبدا، تنجسا!– عصمه الله تعالى من التمثيل بجثته وحماه بالنحل، وكأن الكون كله يؤيد هؤلاء الأتقياء الأنقياء الأولياء الأطهار، وهذا حال من أرضى الله ورسوله فرضّى الله عنه كل شئ..

أما خبيب الصابر المحتسب؛ الذي اتخذ موقفا رجوليا في نصرة الحق يوم ضعف الإسلام (يوم بدر).. ليحمل على نفسه حراب الثأر، وسهام الغل والحقد والحنق.. ولكنها الرجولة الإسلامية تعلو فوق المواقف وتثبت للنهاية ولو كانت الموت بين يدي كل هذا الغل.. (لَوْلَا أَنْ تَرَوْا أَنَّ مَا بِي جَزَعٌ مِنَ الْمَوْتِ لَزِدْتُ. أى في الصلاة)..

(وَلَسْتُ أُبَالِي حِينَ أُقْتَلُ مُسْلِمًا * عَلَى أَيِّ شِقٍّ كَانَ فِي اللَّهِ مصرعي

وَذَلِكَ فِي ذَات الْإِلَه وَإِن يَشَأْ * يُبَارِكْ عَلَى أَوْصَالِ شِلْوٍ مُمَزَّعِ)

هذه العقيدة واليقين تفعل بأصحابها فوق ما يتخيلون هم عن أنفسهم، وفوق ما يتخيل بشر.. هؤلاء إخواننا في الشيشان المنسي، وفى فلسطين، وفى غيرها من أهل شهادة الحق (لا إله إلا الله.. محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم) يقاتلون أعداءا شدادا معهم كل شئ إلا الله سبحانه، وليس مع المؤمنين شئ سوى الله.. تحت سمع وبصر العالم الحر المدافع عن حقوق الإنسانية كما يدعى، والتي تغتال مليون مرة ولا تحريك لأى من ضمائرهم الميتة.. ولكنه الصمود والغلبة في النهاية للحق بإذن الله تعالى..

إنني أصبحت الآن أعرف سرا من أسرار ولايتهم، وكراماتهم، وبطولاتهم.. إن خبيبا رضى الله عنه أراد أن يعلنها مدويةً في سماء الإنسانية.. يفخر بنفسه.. أنا مسلم!.. ولست أبالى حين أقتل مسلما... كما أعلنها من قبله عاصم بن ثابت.. وكلٌ بطريقته.. ولكن الدرس الأعجب للتاريخ أن هذا الرجل (خبيب) أراد أن تكون آخر وقفات الرجولة في حياته بين يدي ربه.. هي أعلى قمم البطولة، وهو ساجد بين الله تعالى.. يصلى له ويقول بكل يقين (الله أكبر، سبحان ربى العظيم، سبحان ربى الأعلى.. اللَّهُمَّ أَحْصِهِمْ عَدَدًا وَاقْتُلْهُمْ بِدَدًا.).. أمام هذا الإيمان والصدق ينفطر كل شئ حتى قلب الكافر.. (كَانَ مُعَاوِيَةُ بْنُ أَبِي سُفْيَانَ يَقُولُ: حَضَرْتُهُ يَوْمَئِذٍ فِيمَنْ حَضَرَهُ مَعَ أَبِي سُفْيَانَ، فَلَقَدْ رَأَيْتُهُ يُلْقِينِي إِلَى الأرض فَرِقا مِنْ دَعْوَةِ خُبَيْبٍ.. من السيرة لابن كثير).. وفى رجال كهؤلاء حرى بالكرامات أن تنزل، لا لشئ إلا لأن هؤلاء صدقوا الله فصدقهم.. هذه المرأة في بيت آسريه تقول (لَقَدْ رَأَيْتُهُ يَأْكُلُ مِنْ قَطْفِ عِنَبٍ وَمَا بِمَكَّةَ يَوْمَئِذٍ مِنْ ثَمَرٍ، وَإِنَّهُ لَمُوثَقٌ فِي الْحَدِيدِ وَمَا كَانَ إِلَّا رِزْقًا رَزَقَهُ اللَّهُ.).. ولرزق الله في الجنة خير وأبقى.. إنه لما قدم أعز ما يملك إنسان — نفسه – لدينه وفي سبيل ربه.. قدَّم الله تعالى له نعيمه.. يريه إياه في الدنيا..

ولكنى أتوقف هنا عند مشهد آخر يبين لنا بوضوح خصائص فريدة لصناعة الرجولة الإسلامية.. وهى تلك القواعد الأرقى في سماء الرجولة، ومواقف البطولة.. وهى التي لا تأخذ الرجل منهم في نشوته تنسيه الأخلاق العالية، والقيم الرفيعة التي رباهم الإسلام ومحمد صلى الله عليه وسلم عليها.. هذا خبيب رضى الله عنه.. رجلٌ التعذيب والقتل بكل قسوة مصيره المحتوم.. وقد خُدع فأُسر.. وقد واتته الفرصة ببعض الانتقام.. طفلٌ من أولاد آسريه.. على حجره، ومعه الموسى.. ما أسرع نفس لم يهذبها الإسلام إلى الفكرة.. ولكن صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لأمه؛ وبهدوء مؤدب يطمئنها (أَتَخْشَيْنَ أَنْ أَقْتُلَهُ؟ مَا كنت لأفعل ذَلِك إِنْ شَاءَ اللَّهُ.) واللام هنا –كما يعرف أهل اللغة – لام الجحود (النفى الشديد).. إن هذا قد يحدث من أى أحد إلا من تلاميذ محمد صلى الله عليه وسلم.. روى مسلم في صحيحه (١٧٨٧)عن حُذَيْفَةُ بْنُ الْيَمَانِ، قَالَ: مَا مَنَعَنِي أَنْ أَشْهَدَ بَدْرًا إِلَّا أَنِّي خَرَجْتُ أَنَا وَأَبِي حُسَيْلٌ، قَالَ: فَأَخَذَنَا كُفَّارُ قُرَيْشٍ، قَالُوا: إِنَّكُمْ تُرِيدُونَ مُحَمَّدًا، فَقُلْنَا: مَا نُرِيدُهُ، مَا نُرِيدُ إِلَّا الْمَدِينَةَ، فَأَخَذُوا مِنَّا عَهْدَ اللهِ وَمِيثَاقَهُ لَنَنْصَرِفَنَّ إِلَى الْمَدِينَةِ، وَلَا نُقَاتِلُ مَعَهُ، فَأَتَيْنَا رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَخْبَرْنَاهُ الْخَبَرَ، فَقَالَ: «انْصَرِفَا، نَفِي لَهُمْ بِعَهْدِهِمْ، وَنَسْتَعِينُ اللهَ عَلَيْهِمْ».. إن المسلمين في غزوة بدر كانوا في أمس الحاجة إلى رجل يقاتل؛ أو حتى يدفع عنهم، فكيف برجلين

جلدين ؟! والحرب خدعة.. ما يباح فيها لايباح في غيرها.. والظرف عصيب يبيح الكثير.. والظلم والبغى بدأ من معسكر الكفر أولا.. وهم لو وجدوا بعض فرصة ما تركوها... ولكن في أحلك الظروف تثبت مبادئ الرجولة الإسلامية.. (نَفِي لَهُمْ بِعَهْدِهِمْ، وَنَسْتَعِينُ اللهَ عَلَيْهِمْ).. هكذا تعلموا الرجولة. إنها الوفاء، أما الخيانة فخسة ورعونة.

(روي أن رجلاً قال لابن عباس: «إنّا نصيب في الغزو من أموال أهل الذمة الدجاجة والشاة، قال ابن عباس: فماذا تقولون؟ قالوا نقول ليس علينا بذلك بأس، قال: هذا كما قال أهل الكتاب {لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأميين سَبِيلٌ} إنهم إذا أدوا الجزية لم تحل لكم أموالهم إلا بطيب أنفسهم» ذكره ابن كثير.)[٩١]. فأين العالم المتحضر من النهب، والتدمير، والإفساد، والاغتصاب باسم الحرية المزعومة، ولا تعليق!!!!

ولنرجع إلى حادثة (الرجيع) ذلك المعين الصافي لكثير من قصص الرجولة، وكأنها معرض لمنتجات الرجولة الإسلامية.. نموذج آخر للسمو العقدي في حب رسول الله صلى الله عليه وسلم يضربه (زيد ن الدثنة رضى الله عنه).. وقد التفّت حوله طبول الموت.. تفتنه عن دينه للمرة الأخيرة، عله يفقد رباط جأشه عندما يقترب الموت منه.. ولكنهم لم يعلموا أن محمدا خلّف رجالا.. يوصى بعضهم بعضا يقولون (قوموا، فموتوا على ما مات عليه نبيكم). وان كان اليهود يريدون إحباط مصانع الرجولة الإسلامية بقولهم (محمد خلف بنات)؛ فهى محاولة اليائس.. الذي أدرك الهزيمة قادمة لا محالة، فقرر إخراج حقده في الشتائم والسباب.. نعم فينا الكثير ممن خان محمد صلى الله عليه وسلم.. ولكنى أقولها عاليةً.. متى كان الإسلام دين الكثرة ؟!.. إنه وعلى مدى تاريخه دين النوع لا الكم.. " كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٢٤٩)البقرة".. الإيمان فيه صنع من الفرد الواحد رجلا بألف.. هكذا كان العرض على الصحابي الجليل في أحرج أوقات الحياة.. حين تطير القلوب من الصدور، وتذهب العقول.. حين الموت المحقق، وبلا رحمة ولا شفقة.. (أيسرك أن محمداً عندنا تضرب عنقه، وأنك في أهلك؟).. ليجيب الرجل المؤمن وبكل ثقة بما أذهل الجميع (والله ما يسرني أني في أهلي وأن محمداً في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه.).. يتعجب القوم من حوله يقول قائلهم (والله، ما رأيت من الناس أحدا يحب أحدا كحب أصحاب محمد محمدا)..

---

[91]نقلته عن صفوة التفاسير ١\١٩٤)

أى حب هذا الذي يدفع الروح – بلا تفكير– أن تخرج؛ وهى تلهج بالسلامة للمحبوب ؟! وأى شخصية كان رسول الله محمد ليملك كل هذه القلوب ؟! وهل بلغنا من حبه صلى الله عليه وسلم مثل زيد بن الدثنة وأصحابه ؟!.... .. هل عرفت الآن لم انتصر صحب محمد صلى الله عليه وسلم على الدنيا وكتبوا التاريخ ؟وهل نحن مستعدون ؟!

رجل المهمة المستحيلة.. أخطر رجل في استخبارات المسلمين.. رجل بمليون.. والمليون قليل!؟

ثم إننا نتوقف عند قصة أخرى من قصص الجندي البطل المجهول.. لعلنا نستفيق على معنى هام من معاني الرجولة والبطولة في الإسلام.. يتمثل في استثمار الأقصى من القدرات الإنسانية لخدمة المبادئ السامية.. إن مشكلة المسلمين اليوم؛ والذين تربوا على قاعدة ليس في الإمكان أبدع مما كان.. هؤلاء لم يكونوا أبدا خلوفا صالحة لسلفهم الصالح.. الذين لم يعرفوا كلمة (مستحيل).. بل أذهلوا الدنيا بنجاحهم على كل الأصعدة.. في مجالات الدنيا والدين.. ولنترك الكلمات تتكلم لتصف لنا رجلا حقيقيا لم يقض في مدرسة محمد صلى الله عليه وسلم سوى واحد حتى تم تكليفه ب(مهمة استخبراتية مستحيلة).. لا يصمد لها سوى الرجل الاسلامي الصناعة.. أما أبطال الغرب الذين صنعتهم (هوليود) وصنعهم الإعلام الضال المضلل فهم رجال على الورق لا ينخدع بهم سوى جاهل بتاريخه وهويته وذاته، أو خبيث نفس.. منحط الروح.

جاء في زاد المعاد لابن القيم (كَانَ سَبَبُ غَزْوَةِ الْخَنْدَقِ أَنَّ الْيَهُودَ لَمَّا رَأَوْا انْتِصَارَ الْمُشْرِكِينَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ يَوْمَ أُحُدٍ، وَعَلِمُوا بِمِيعَادِ أبي سفيان لِغَزْوِ الْمُسْلِمِينَ، فَخَرَجَ لِذَلِكَ، ثُمَّ رَجَعَ لِلْعَامِ الْمُقْبِلِ خَرَجَ أَشْرَافُهُمْ كسلام بن أبي الحقيق، وسلام بن مشكم، وكنانة بن الربيع، وَغَيْرِهِمْ إِلَى قُرَيْشٍ بِمَكَّةَ يُحَرِّضُونَهُمْ عَلَى غَزْوِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَيُؤَلِّبُونَهُمْ عَلَيْهِ، وَوَعَدُوهُمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ بِالنَّصْرِ لَهُمْ، فَأَجَابَتْهُمْ قُرَيْشٌ، ثُمَّ خَرَجُوا إِلَى غَطَفَانَ، فَدَعَوْهُمْ، فَاسْتَجَابُوا لَهُمْ، ثُمَّ طَافُوا فِي قَبَائِلِ الْعَرَبِ يَدْعُونَهُمْ إِلَى ذَلِكَ، فَاسْتَجَابَ لَهُمْ مَنِ اسْتَجَابَ، فَخَرَجَتْ قُرَيْشٌ وَقَائِدُهُمْ أبو سفيان فِي أَرْبَعَةِ آلَافٍ، وَوَافَتْهُمْ بَنُو سُلَيْمٍ بِمَرِّ الظَّهْرَانِ، وَخَرَجَتْ بَنُو أَسَدٍ وَفَزَارَةُ وَأَشْجَعُ وَبَنُو مُرَّةَ، وَجَاءَتْ غَطَفَانُ وَقَائِدُهُمْ عيينة بن حصن. وَكَانَ مَنْ وَافَى الْخَنْدَقَ مِنَ الْكُفَّارِ عَشَرَةَ آلَافٍ..... وَانْطَلَقَ حيي بن أخطب إِلَى بَنِي قُرَيْظَةَ فَدَنَا مِنْ حِصْنِهِمْ، فَأَبَى كعب بن أسد أَنْ يَفْتَحَ لَهُ، فَلَمْ يَزَلْ يُكَلِّمُهُ حَتَّى فَتَحَ لَهُ، فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ قَالَ: لَقَدْ جِئْتُكَ بِعِزِّ الدَّهْرِ جِئْتُكَ بِقُرَيْشٍ وَغَطَفَانَ وَأَسَدٍ عَلَى قَادَتِهَا لِحَرْبِ مُحَمَّدٍ، قَالَ كعب: جِئْتَنِي وَاللَّهِ بِذُلِّ الدَّهْرِ وَبِجَهَامٍ قَدْ هَرَاقَ مَاؤُهُ، فَهُوَ يَرْعُدُ وَيَبْرِق لَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ.

فَلَمْ يَزَلْ بِهِ حَتَّى نَقَضَ الْعَهْدَ الَّذِي بَيْنَهُ وَبَيْنَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَدَخَلَ مَعَ الْمُشْرِكِينَ فِي مُحَارَبَتِهِ، فَسُرَّ بِذَلِكَ الْمُشْرِكُونَ، وَشَرَطَ كعب عَلَى حيي أَنَّهُ إِنْ لَمْ يَظْفَرُوا بِمُحَمَّدٍ أَنْ يَجِيءَ حَتَّى يَدْخُلَ مَعَهُ فِي حِصْنِهِ، فَيُصِيبَهُ مَا أَصَابَهُ، فَأَجَابَهُ إِلَى ذَلِكَ، وَوَفَّى لَهُ بِهِ.)... هكذا تحالفت قوى الشر والظلام ضد الإسلام.. ضد الخير والنور، وبلغت الأرواح الحناجر.. وقاسى المسلمون البرد والجوع والخوف.. ونجم النفاق، والهم من البعض بالتخاذل.. ولكن من رحم هذا الموقف العصيب تنطلق معاني الرجولة تعرب عن تربية الإسلام لرجاله.. يكمل ابن القيم قائلا: (ثُمّ إنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ – وَلَهُ الْحَمْدُ – صَنَعَ أَمْرًا مِنْ عِنْدِهِ خَذَلَ بِهِ الْعَدُوَّ، وَهَزَمَ جُمُوعَهُمْ، وَفَلَّ حَدَّهُمْ، فَكَانَ مِمَّا هَيَّأَ مِنْ ذَلِكَ أَنَّ رَجُلًا مِنْ غَطَفَانَ يُقَالُ لَهُ نعيم بن مسعود بن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ جَاءَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إنِّي قَدْ أَسْلَمْتُ، فَمُرْنِي بِمَا شِئْتُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: («إنَّمَا أَنْتَ رَجُلٌ وَاحِدٌ فَخَذِّلْ عَنَّا مَا اسْتَطَعْتَ فَإِنَّ الْحَرْبَ خُدْعَةٌ»)، فَذَهَبَ مِنْ فَوْرِهِ ذَلِكَ إِلَى بَنِي قُرَيْظَةَ، وَكَانَ عَشِيرًا لَهُمْ فِي الْجَاهِلِيّةِ، فَدَخَلَ عَلَيْهِمْ وَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ بِإِسْلَامِهِ، فَقَالَ: يَا بَنِي قُرَيْظَةَ إنَّكُمْ قَدْ حَارَبْتُمْ مُحَمَّدًا، وَإِنَّ قُرَيْشًا إنْ أَصَابُوا فُرْصَةً انْتَهَزُوهَا، وَإِلَّا انْشَمَرُوا إِلَى بِلَادِهِمْ رَاجِعِينَ وَتَرَكُوكُمْ وَمُحَمَّدًا، فَانْتَقَمَ مِنْكُمْ، قَالُوا: فَمَا الْعَمَلُ يَا نعيم؟ قَالَ: لَا تُقَاتِلُوا مَعَهُمْ حَتَّى يُعْطُوكُمْ رَهَائِنَ قَالُوا: لَقَدْ أَشَرْتَ بِالرَّأْيِ، ثُمَّ مَضَى عَلَى وَجْهِهِ إِلَى قُرَيْشٍ، فَقَالَ لَهُمْ: تَعْلَمُونَ وُدِّي لَكُمْ وَنُصْحِي لَكُمْ، قَالُوا: نَعَمْ. قَالَ: إنَّ يَهُودَ قَدْ نَدِمُوا عَلَى مَا كَانَ مِنْهُمْ مَنْ نَقْضِ عَهْدِ مُحَمَّدٍ وَأَصْحَابِهِ، وَإِنَّهُمْ قَدْ رَاسَلُوهُ أَنَّهُمْ يَأْخُذُونَ مِنْكُمْ رَهَائِنَ يَدْفَعُونَهَا إلَيْهِ، ثُمَّ يُمَالِئُونَهُ عَلَيْكُمْ، فَإِنْ سَأَلُوكُمْ رَهَائِنَ فَلَا تُعْطُوهُمْ، ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى غَطَفَانَ، فَقَالَ لَهُمْ مِثْلَ ذَلِكَ، فَلَمَّا كَانَ لَيْلَةُ السَّبْتِ مِنْ شَوَّالٍ بَعَثُوا إِلَى الْيَهُودِ: إنَّا لَسْنَا بِأرض مُقَامٍ، وَقَدْ هَلَكَ الْكُرَاعُ وَالْخُفُّ، فَانْهَضُوا بِنَا حَتَّى نُنَاجِزَ مُحَمَّدًا، فَأَرْسَلَ إلَيْهِمُ الْيَهُودُ: إنَّ الْيَوْمَ يَوْمُ السَّبْتِ، وَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا أَصَابَ مَنْ قَبْلَنَا حِينَ أَحْدَثُوا فِيهِ، وَمَعَ هَذَا فَإِنَّا لَا نُقَاتِلُ مَعَكُمْ حَتَّى تَبْعَثُوا إلَيْنَا رَهَائِنَ، فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِذَلِكَ قَالَتْ قُرَيْشُ: صَدَقَكُمْ وَاللَّهِ نعيم، فَبَعَثُوا إِلَى يَهُودَ، إنَّا وَاللَّهِ لَا نُرْسِلُ إلَيْكُمْ أَحَدًا، فَاخْرُجُوا مَعَنَا حَتَّى نُنَاجِزَ مُحَمَّدًا، فَقَالَتْ قُرَيْظَةُ: صَدَقَكُمْ وَاللَّهِ نعيم، فَتَخَاذَلَ الْفَرِيقَانِ، وَأَرْسَلَ اللَّهُ عَلَى الْمُشْرِكِينَ جُنْدًا مِنَ الرِّيحِ، فَجَعَلَتْ تُقَوِّضُ خِيَامَهُمْ، وَلَا تَدَعُ لَهُمْ قِدْرًا إلَّا كَفَأَتْهَا، وَلَا طُنُبًا إلَّا قَلَعَتْهُ، وَلَا يَقِرُّ لَهُمْ قَرَارٌ، وَجُنْدُ اللَّهِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ يُزَلْزِلُونَهُمْ، وَيُلْقُونَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ وَالْخَوْفَ، وَأَرْسَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حُذَيْفَةَ بْنَ الْيَمَانِ يَأْتِيهِ بِخَبَرِهِمْ، فَوَجَدَهُمْ عَلَى هَذِهِ الْحَالِ، وَقَدْ تَهَيَّئُوا لِلرَّحِيلِ، فَرَجَعَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَخْبَرَهُ

بِرَحِيلِ الْقَوْمِ، فَأَصْبَحَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَقَدْ رَدَّ اللَّهُ عَدُوَّهُ بِغَيْظِهِ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا، وَكَفَاهُ اللَّهُ قِتَالَهُمْ، فَصَدَقَ وَعْدَهُ، وَأَعَزَّ جُنْدَهُ، وَنَصَرَ عَبْدَهُ، وَهَزَمَ الْأَحْزَابَ وَحْدَه.)[92] ا. هـ. وقد نجحت دعاية نعيم بن مسعود أيما نجاح، فغرست روح التشكيك، وعدم الثقة بين قادة الأحزاب؛ مما أدى إلى كسر شوكتهم، وتهبيط عزمهم. وكان من أسباب نجاح مهمة نعيم قيامها على الأسس التالية: أ- أنه أخفى إسلامه عن كل الأطراف، بحيث وثق كل طرف فيما قدمه له من نصح. ب- أنه ذكر بني قريظة بمصير بني قينقاع وبني النضير، وبصرهم بالمستقبل الذي ينتظرهم إن هم استمروا في حروبهم للرسول صلى الله عليه وسلم، فكان هذا الأساس سببًا في تغيير أفكارهم وقلب مخططاتهم العدوانية.

ج- أنه نجح في إقناع كل الأطراف بأن يكتم كل طرف ما قال له، وفي استمرار هذا الكتمان نجاح في مهمته، فلو انكشف أمره لدى أي طرف من الأطراف لفشلت مهمته. وهكذا قام نعيم بن مسعود بدور عظيم في غزوة الأحزاب[93]...

هذا هو رجل واحد قلب الموازين كلها في معركة هي الأخطر في تاريخ الإسلام.. رجل لم يعهد الإسلام غير يوم واحد.. ولكنه يوم دخله كان يعلم يقينا دوره في هذه الأمة، ليعرِّض نفسه للهلاك في لعبة استخبراتية من أخطر ما يكون.. لو أن كل واحد فينا عرف دوره في الارتقاء برجولته، والوقوف بصدق في معسكر المسلمين الحقيقيين؛ لا من يدَّعون الانتساب للإسلام.. لو أننا بحثنا عما نستطيع أن نفعل لرفع راية الحق.. لو بذلنا الوسع قليلا، وحذفنا كلمات الهزيمة والإحباط التي علَّمنا إياها الأعداء ليركبوا صدورنا.. لو أننا تناسينا - ولو لمرة واحدة - ما زرعوه فينا - إفكا ووهما - بالحروب النفسية من أن ما وصلنا إليه هو آخر منانا، وأنهم لن ينزلوا عن عرش العالم أبدا.. لو كان منا مليون رجل - فقط -كسلفنا العظيم.. لعدنا رجالا كما ينبغي، نرفع رايتنا فوق رايات الجميع.

92زاد المعاد لابن القيم ٣\٢٤٥،٢٤٤ط.الرسالة بيروت ط.٢٧-١٩٩٤

93(السيرة النبوية للصلابي ١\٦٠٥ دار المعرفة بيروت ط.٧\٢٠٠٨

هؤلاء بايعوا الله ورسوله.. هؤلاء هم الرجال!

إن الرجولة في الحقيقة ليست رفاهية تشريف ينتسب إليها المرء فيصير رجلا، وكذلك ليست موقفا يتخذه في حياته وينتهي؛ ليقال بعدها طول عمره أنه الرجل.. إنها موقف الحياة وحياة الموقف.. وهكذا هي في الإسلام.. موقفٌ يتخذه المرء ليخلد له حياة فوق الحياة نفسها.. إنها التزام.. ربما يتطلب الأمر التضحية بكل شئ، وبأى شئ حتى النفس.. وفى الحقيقة ليس كل الرجال قادر على هذه التضحية.. إنها الصفوة التي صنعها الإسلام على عينه لتكون القدوة والنبراس.... يروى لنا الإمام أحمد(٩٤) من حديث جابر بن عبد الله رضى الله عنه قَالَ: (مَكَثَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَكَّةَ عَشْرَ سِنِينَ، يَتْبَعُ النَّاسَ فِي مَنَازِلِهِمْ بِعُكَاظٍ وَمَجَنَّةَ، وَفِي الْمَوَاسِمِ بِمِنًى، يَقُولُ: "مَنْ يُؤْوِينِي؟ مَنْ يَنْصُرُنِي حَتَّى أُبَلِّغَ رِسَالَةَ رَبِّي، وَلَهُ الْجَنَّةُ؟ " حَتَّى إِنَّ الرَّجُلَ لَيَخْرُجُ مِنَ الْيَمَنِ، أَوْ مِنْ مِصْرَ – كَذَا قَالَ – فَيَأْتِيهِ قَوْمُهُ، فَيَقُولُونَ: احْذَرْ غُلَامَ قُرَيْشٍ، لَا يَفْتِنُكَ، وَيَمْشِي بَيْنَ رِجَالِهِمْ، وَهُمْ يُشِيرُونَ إِلَيْهِ بِالْأَصَابِعِ، حَتَّى بَعَثَنَا اللهُ لَهُ مِنْ يَثْرِبَ، فَآوَيْنَاهُ، وَصَدَّقْنَاهُ، فَيَخْرُجُ الرَّجُلُ مِنَّا فَيُؤْمِنُ بِهِ، وَيُقْرِئُهُ الْقُرْآنَ، فَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ فَيُسْلِمُونَ بِإِسْلَامِهِ، حَتَّى لَمْ يَبْقَ دَارٌ مِنْ دُورِ الْأَنْصَارِ إِلَّا وَفِيهَا رَهْطٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، يُظْهِرُونَ الْإِسْلَامَ، ثُمَّ ائْتَمَرُوا جَمِيعًا، فَقُلْنَا: حَتَّى مَتَى نَتْرُكُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُطْرَدُ فِي جِبَالِ مَكَّةَ وَيَخَافُ؟ فَرَحَلَ إِلَيْهِ مِنَّا سَبْعُونَ رَجُلًا حَتَّى قَدِمُوا عَلَيْهِ فِي الْمَوْسِمِ، فَوَاعَدْنَاهُ شِعْبَ الْعَقَبَةِ، فَاجْتَمَعْنَا عِنْدَهُ مِنْ رَجُلٍ وَرَجُلَيْنِ حَتَّى تَوَافَيْنَا، فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ، عَلَامَ نُبَايِعُكَ، قَالَ: " تُبَايِعُونِي عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي النَّشَاطِ وَالْكَسَلِ، وَالنَّفَقَةِ فِي الْعُسْرِ وَالْيُسْرِ، وَعَلَى الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَأَنْ تَقُولُوا فِي اللهِ، لَا تَخَافُونَ فِي اللهِ لَوْمَةَ لَائِمٍ، وَعَلَى أَنْ تَنْصُرُونِي، فَتَمْنَعُونِي إِذَا قَدِمْتُ عَلَيْكُمْ مما تمنعون مِنْهُ أَنْفُسَكُمْ، وَأَزْوَاجَكُمْ، وَأَبْنَاءَكُمْ، وَلَكُمُ الْجَنَّةُ "، قَالَ: فَقُمْنَا إِلَيْهِ فَبَايَعْنَاهُ، وَأَخَذَ بِيَدِهِ أَسْعَدُ بْنُ زُرَارَةَ، وَهُوَ مِنْ أَصْغَرِهِمْ، فَقَالَ: رُوَيْدًا يَا أَهْلَ يَثْرِبَ، فَإِنَّا لَمْ نَضْرِبْ أَكْبَادَ الْإِبِلِ إِلَّا

---

(٩٤) (في مسنده ط الرسالة برقم)١٤٤٥٦ قال محققو المسند الشيخ الارنؤوط وآخرون (صحيح على شرط مسلم).

قال السندى: قوله: "عُكَاظ": سوق لهم يجتمعون فيه. "مَجَنَّة" موضع على أميال يسيرة من مكة بناحية مر الظهران، وقيل: على بريد من مكة، وهو سوق هجر. "من يؤويني" من الإيواء، أي: يحفظني. "لم نضرب أكباد الإبل" كناية عن السفر."وأن تعضكم السيوف"، أي: تنال من أجسادكم، وهو كناية عن القتال. "جبينة" تصغير الجُبن بزيادة التاء للمرة، كأنه نبههم على أن خوف قليل من الجبن مُفسِد لهذا الأمر، فكيف الكثير."أمِط"، أي: أَزِلْ عنا منعك وحيلولتك بيننا وبين البيعة.

وَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّهُ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَإِنَّ إِخْرَاجَهُ الْيَوْمَ مُفَارِقَةُ الْعَرَبِ كَافَّةً، وَقَتْلُ خِيَارِكُمْ، وَأَنَّ تَعَضَّكُمُ السُّيُوفُ، فَإِمَّا أَنْتُمْ قَوْمٌ تَصْبِرُونَ عَلَى ذَلِكَ، وَأَجْرُكُمْ عَلَى اللهِ، وَإِمَّا أَنْتُمْ قَوْمٌ تَخَافُونَ مِنْ أَنْفُسِكُمْ

جَبِينَةً، فَبَيِّنُوا ذَلِكَ، فَهُوَ أَعْذَرَ لَكُمْ عِنْدَ اللهِ، قَالُوا: أَمِطْ عَنَّا يَا أَسْعَدُ، فَوَاللهِ لَا نَدَعُ هَذِهِ الْبَيْعَةَ أَبَدًا، وَلَا نَسْلُبُهَا أَبَدًا، قَالَ: فَقُمْنَا إِلَيْهِ فَبَايَعْنَاهُ، فَأَخَذَ عَلَيْنَا، وَشَرَطَ، وَيُعْطِينَا عَلَى ذَلِكَ الْجَنَّةَ. وعند ابن إسحاق، فقال أبو الهيثم: يا رسول الله! إن بيننا وبين الرجال، أي: اليهود، حبالا وإنا قاطعوها فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا، فتبسم –صلى الله عليه وسلم– ثم قال: "بل الدم الدم، والهدم والهدم، أنا منكم وأنتم مني، أحارب من حاربتم، وأسالم من سالمتم".[٩٥]

(إنّ الرجال الذين اعتنقوا الإسلام عرفوا– دون شك– تاريخه القريب، والصعاب الهائلة التي لقيها، وحزّ في نفوسهم أن يستضعف إخوانهم في مكة، وأن يخرج نبيّهم وهو يدعو إلى الله فلا يجيبه إلا آثم أو كفور!!. ولذلك تساءلوا– وهم خارجون من المدينة قاصدين البيت العتيق– حتى متى نترك رسول الله صلى الله عليه وسلم يطوّف، ويطرد في جبال مكة ويخاف؟!. لقد بلغ الإيمان أوجه في هذه القلوب الفتية، وآن لها أن تنفّس عن حماسها، وأن تفكّ هذا الحصار الخانق المضروب حول الدعوة والداعية... تلكم بيعة العقبة، وما أبرم فيها من مواثيق، وما دار فيها من محاورات... إنّ روح اليقين والفداء والاستبسال سادت هذا الجمع، وتمشّت في كلّ كلمة قيلت، وبدا أنّ العواطف الفائرة ليست وحدها التي توجّه الحديث، أو تملي العهود، كلا، فإنّ حساب المستقبل روجع مع حساب اليوم، والمغارم المتوقعة نظر إليها قبل المغانم الموهومة... مغانم؟! أين موضوع المغانم في هذه البيعة؟! لقد قام الأمر كلّه على التجرّد المحض، والبذل الخالص. هؤلاء السبعون مثل لانتشار الإسلام، عن طريق الفكر الحرّ والاقتناع الخالص... فقد جاؤوا من يثرب مؤمنين أشدّ الإيمان، وملبّين داعي التضحية، مع أنّ معرفتهم بالنبي صلى الله عليه وسلم كانت لمحة عابرة؛ غبرت عليها الأيام، وكان الظن بها أن تزول. لكننا لا يجوز أن ننسى مصدر هذه الطاقة المتأجّجة من الشجاعة والثقة؛ إنّه القران!! لئن كان الأنصار قبل بيعتهم الكبرى لم يصحبوا الرسول صلى الله عليه وسلم إلا لماما؛ فإن الوحي المشعّ من

95(شرح الزرقاني على المواهب اللدنية بالمنح المحمدية، الكتب العلمية، ط. ٢ ١٩٩٦م،ج٢ص٨٨)

السماء أضاء لهم الطريق، وأوضح الغاية... ثم إنّ الرسول صلى الله عليه وسلم جعل من هذا الإيمان بالحقّ رباطا، يعقد من تلقاء نفسه صلة الحب والتناصر بين أشتات المؤمنين في المشرِق والمغرب.

فالمسلم في المدينة- وإن لم ير أخاه المستضعف في مكة- يحنو عليه، ويتعصّب له، ويغضب من ظالمه، ويقاتل دونه، وذلك ما استقدم الأنصار من يثرب؛ تجيش في حناياهم مشاعر الولاء لمن أحبوهم بالغيب في ذات الله.

عن أبي مالك الأشعري: أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «يا أيها الناس! اسمعوا واعقلوا، واعلموا أنّ لله عبادا ليسوا بأنبياء ولا شهداء، يغبطهم النبيّون والشهداء على منازلهم، وقربهم من الله». فجثا رجل من الأعراب من قاصية النّاس، وألوى بيده إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رسول الله! ناس من الناس، ليسوا بأنبياء ولا شهداء، يغبطهم الأنبياء والشهداء على مجالسهم وقربهم من الله؟! انعتهم لنا، جلّهم لنا- يعني: صفهم لنا- فسُرّ وجه النبي صلى الله عليه وسلم بسؤال الأعرابي، وقال: «هم ناس من أفناء الناس، ونوازع القبائل، لم تصل بينهم أرحام متقاربة، تحابّوا في الله، وتصافوا، يضع الله لهم يوم القيامة منابر من نور، فيجلسون عليها، فيجعل وجوههم نورا، وثيابهم نورا، يفزع الناس يوم القيامة ولا يفزعون، وهم أولياء الله، لا خوف عليهم ولا هم يحزنون» «حسنه الالبانى في تحقيق فقه السيرة».. الإيمان بالله، والحبّ فيه، والأخوة على دينه، والتناصر باسمه، ذلك كلّه كان يتدافع في النفوس المجتمعة في ظلام الليل بجوار مكة السادرة في غيّها، يتدافع ليعلن أنّ أنصار الله سوف يحمون رسوله صلى الله عليه وسلم كما يحمون أعراضهم، وسوف يمنعونه بأرواحهم، فلا يخلص إليه أذى وهم أحياء. [٩٦]). ا. هـ.

يقول د\ الصلابى متعنا الله بعمره: (١ - كانت هذه البيعة العظمى بملابساتها، وبواعثها، وآثارها، وواقعها التاريخي (فتح الفتوح)؛ لأنها كانت الحلقة الأولى في سلسلة الفتوحات الإسلامية التي تتابعت حلقاتها في صور متدرجة مشدودة بهذه البيعة، منذ اكتمل عقدها بما أخذ فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم من عهود ومواثيق على أقوى طليعة من طلائع أنصار الله الذين كانوا أعرف الناس بقدر

٩٦فقه السيرة للغزالي السقا ط.١دار القلم دمشق، ١٤٢٧هـ،١\٢٦٦.

مواثيقهم وعهودهم، وكانوا أسمح الناس بالوفاء بما عاهدوا الله ورسوله عليه، من التضحية، مهما بلغت متطلباتها من الأرواح والدماء والأموال، فهذه البيعة في بواعثها هي بيعة الإيمان بالحق ونصرته، وهي في ملابساتها قوة تناضل قوى هائلة، تقف متألبة عليها، ولم يغب عن أنصار الله قدرها ووزنها في ميادين الحروب والقتال، وهي في آثارها تشمير ناهض بكل ما يملك أصحابها من وسائل الجهاد القتالي في سبيل إعلاء كلمة الله على كل عالٍ مستكبر في الأرض حتى يكون الدين كله لله، وهي في واقعها التاريخي صدق وعدل، ونصر واستشهاد، وتبليغ لرسالة الإسلام.

٢ – إن حقيقة الإيمان وأثره في تربية النفوس تظهر آثارها في استعداد هذه القيادات الكبرى لأن تبذل أرواحها ودماءها في سبيل الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، ولا يكون لها الجزاء في هذه الأرض كسبًا ولا منصبًا ولا قيادة ولا زعامة، وهم الذين أفنوا عشرات السنين من أعمارهم (في الجاهلية)يتصارعون على الزعامة والقيادة، إنه أثر الإيمان بالله وبحقيقة هذا الدين عندما يتغلغل في النفوس.

٣ – يظهر التخطيط العظيم في بيعة العقبة، حيث تمت في ظروف غاية في الصعوبة، وكانت تمثل تحديًّا خطيرًا وجريئًا لقوى الشرك في ذلك الوقت؛ ولذلك كان التخطيط النبوي لنجاحها في غاية الإحكام والدقة على النحو التالي:

أ– سرية الحركة والانتقال لجماعة المبايعين، حتى لا ينكشف الأمر، فقد كان وفد المبايعة المسلم، سبعين رجلا وامرأتين، من بين وفد يثربي قوامه نحو خمسمائة، مما يجعل حركة هؤلاء السبعين صعبة، وانتقالهم أمرًا غير ميسور، وقد تحدد موعد اللقاء في ثاني أيام التشريق بعد ثلث الليل، حيث النوم قد ضرب أعين القوم، وحيث قد هدأت الرِّجْل، كما تم تحديد المكان في الشعب الأيمن، بعيدا عن عين من قد يستيقظ من النوم لحاجة. ب– الخروج المنظم لجماعة المبايعين إلى موعد ومكان الاجتماع، فخرجوا يتسللون مستخفين، رجلاً رجلاً، أو رجلين رجلين.

ج– ضرب السرِّية التامة على موعد ومكان الاجتماع، بحيث لم يعلم به سوى العباس بن عبد المطلب الذي جاء مع النبي صلى الله عليه وسلم ليتوثق له (يتأكد من حقيقة نصر هؤلاء الرهط لابن أخيه) وعلي بن أبي طالب الذي كان عينًا للمسلمين على فم الشِّعب، وأبو بكر الذي كان على فم الطريق وهو الآخر عينٌ للمسلمين (يتحسس لهم الأخبار)، أما من عداهم من المسلمين، وغيرهم فلم يكن

يعلم عن الأمر شيئًا، وقد أمر جماعة المبايعين أن لا يرفعوا الصوت، وأن لا يطيلوا في الكلام، حذرًا من وجود عين يسمع صوتهم، أو يحس حركتهم.

د- متابعة الإخفاء والسرية حين كشف الشيطان أمر البيعة، فأمرهم النبي صلى الله عليه وسلم أن يرجعوا إلى رحالهم ولا يحدثوا شيئًا، رافضًا الاستعجال في المواجهة المسلحة التي لم تتهيأ لها الظروف بعد، وعندما جاءت قريش تستبرئ الخبر، موه المسلمون عليهم بالسكوت، أو المشاركة بالكلام الذي يشغل عن الموضوع.

هـ- اختيار الليلة الأخيرة من ليالي الحج، وهي ليلة الثالثة عشر من ذي الحجة، حيث سينفر الحجاج إلى بلادهم ظهر اليوم التالي وهو اليوم الثالث عشر، ومن ثم تضيق الفرصة أمام قريش في اعتراضهم أو تعويقهم إذا انكشف أمر البيعة، وهو أمر متوقع وهذا ما حدث.

٤ - كانت البنود الخمسة للبيعة من الوضوح والقوة بحيث لا تقبل التمييع والتراخي.. إنه السمع والطاعة في النشاط والكسل، والنفقة في اليسر والعسر، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والقيام في الله لا تأخذهم فيه لومة لائم، ونصر لرسول الله وحمايته إذا قدم المدينة.

٥- سرعان ما استجاب قائد الأنصار دون تردد البراء بن معرور، قائلا: والذي بعثك بالحق لنمنعنك مما نمنع منه أزرنا، فبايعنا يا رسول الله، فنحن والله أبناء الحرب، وأهل الحلقة، ورثناها كابرًا عن كابر، فهذا زعيم الوفد يعرض إمكانيات قومه على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقومه أبناء الحرب والسلاح، ومما تجدر الإشارة إليه في أمر البراء أنه عندما جاء مع قومه من يثرب قال لهم: إني قد رأيت رأيًا فوالله ما أرى أتوافقوني عليه أم لا؟ فقالوا: وما ذاك؟ قال: قد رأيت أن لا أدع هذه البنية -يعني الكعبة- مني بظهر، وأن أصلي إليها، فقالوا له: والله ما بلغنا أن النبي صلى الله عليه وسلم يصلي إلا إلى الشام ببيت المقدس، وما نريد أن نخالفه، فكانوا إذا حضرت الصلاة صلوا إلى بيت المقدس، وصلى هو إلى الكعبة، واستمروا كذلك حتى قدموا مكة، وتعرفوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو جالس مع عمه العباس بالمسجد الحرام، فسأل النبيُّ صلى الله عليه وسلم العباسَ: «هل تعرف هذين الرجلين يا أبا الفضل» قال: نعم، هذا البراء بن معرور سيد قومه، وهذا كعب بن مالك، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «الشاعر؟» قال: نعم، فقص عليه البراء ما صنع في سفره من صلاته إلى

الكعبة، قال: فماذا ترى يا رسول الله؟ قال: «قد كنت على قبلة لو صبرت عليها» قال كعب: فرجع البراء إلى قبلة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وصلى معنا إلى الشام، فلما حضرته الوفاة أمر أهله أن يوجهوه قبل الكعبة، ومات في صفر قبل قدومه صلى الله عليه وسلم بشهر، وأوصى بثلث ماله للنبي صلى الله عليه وسلم، فقبله ورده على ولده، وهو أول من أوصى بثلث ماله ويستوقفنا في هذا الخبر:

أ- الانضباط والالتزام من المسلمين بسلوك رسولهم وأوامره، وإن أي اقتراح مهما كان مصدره يتعأرض مع ذلك، يعتبر مرفوضًا، وهذه من أولويات الفقه في دين الله، تأخذ حيزها من حياتهم وهم بعد ما زالوا في بداية الطريق.

ب- إن السيادة لم تعد لأحد غير رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإن توقير أي إنسان واحترامه، إنما هو انعكاس لسلوكه والتزامه بأوامر الرسول صلى الله عليه وسلم، وهكذا بدأت تنزاح تقاليد جاهلية لتحل محلها قيم إيمانية، فهي المقاييس الحقة التي بها يمكن الحكم على الناس تصنيفًا وترتيبًا.

٦ – كان أبو الهيثم بن التيِّهان صريحًا عندما قال للرسول صلى الله عليه وسلم: إن بيننا وبين الرجال حبالاً وإنا قاطعوها، يعني اليهود، فهل عسيتم إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله، أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟ فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: «بل الدم الدم، والهدم الهدم، أنا منكم وأنتم مني أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم»، وهذا الاعتراض يدلنا على الحرية العالية، التي رفع الله تعالى المسلمين إليها بالإسلام، حيث عبر عمَّا في نفسه بكامل حريته وكان جواب سيد الخلق صلى الله عليه وسلم عظيمًا، فقد جعل نفسه جزءًا من الأنصار والأنصار جزءًا منه.

٧ – يؤخذ من اختيار النقباء دروس مهمة منها: أ- أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يعين النقباءَ إنما ترك طريق اختيارهم إلى الذين بايعوا، فإنهم سيكونون عليهم مسئولين وكفلاء، والأولى أن يختار الإنسان من يكفله ويقوم بأمره، وهذا أمر شوري وأراد الرسول صلى الله عليه وسلم أن يمارسوا الشورى عمليًّا من خلال اختيار نقبائهم.

ب- التمثيل النسبي في الاختيار، من المعلوم أن الذين حضروا البيعة من الخزرج أكثر من الذين حضروا البيعة من الأوس، ثلاثة أضعاف من الأوس بل يزيدون، ولذلك كان النقباء ثلاثة من الأوس وتسعة من الخزرج.

ج- جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم النقباء مشرفين على سير الدعوة في يثرب، حيث استقام عود الإسلام هناك، وكثر معتنقوه، وأراد الرسول صلى الله عليه وسلم أن يشعرهم أنهم لم يعودوا غرباء لكي يبعث إليهم أحدًا من غيرهم، وأنهم غدوا أهل الإسلام وحماته وأنصاره.

٨ - تأكد زعماء مكة من حقيقة الصفقة التي تمت بين رسول الله صلى الله عليه وسلم والأنصار، فخرجوا في طلب القوم فأدركوا سعد بن عبادة بأذاخر، والمنذر بن عمرو وكلاهما كان نقيبًا، فأما المنذر فأعجز القوم، وأما سعد فأخذوه، فربطوا يديه إلى عنقه بنسع رحله، ثم أقبلوا به حتى أدخلوه مكة يضربونه ويجذبونه بجمته، وكان ذا شعر كثير واستطاع أن يتخلص من قريش بواسطة الحارث بن حرب بن أمية وجبير بن مطعم؛ لأنه كان يجير تجارتهم ببلده، فقد أنقذته أعراف الجاهلية، ولم تنقذه سيوف المسلمين، ولم يجد في نفسه غضاضة من ذلك، فهو يعرف أن المسلمين مطاردون في مكة، وعاجزون عن حماية أنفسهم.

٩ - في قول العباس بن عبادة بن نضلة: والله الذي بعثك بالحق إن شئت لنميلن على أهل منى غدًا بأسيافنا، وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لم نؤمر بذلك، ولكن ارجعوا إلى رحالكم» درس تربوي بليغ، وهو أن الدفاع عن الإسلام، والتعامل مع أعداء هذا الدين ليس متروكًا لاجتهاد أتباعه، وإنما هو خضوع لأوامر الله تعالى وتشريعاته الحكيمة فإذا شرع الجهاد فإن أمر الإقدام أو الإحجام متروك لنظر المجتهدين بعد التشاور ودراسة الأمر من جميع جوانبه، وكلما كانت عبقرية التخطيط السياسي أقوى أدت إلى نجاح المهمات أكثر، وإخفاء المخططات عن العدو وتنفيذها هو الكفيل بإذن الله بنجاحها «ولكن ارجعوا إلى رحالكم».

١٠ - كانت البيعة بالنسبة للرجال ببسط رسول الله صلى الله عليه وسلم يده وقالوا: له ابسط يدك، فبسط يده فبايعوه، وأما بيعة المرأتين اللتين شهدتا الوقعة فكانت قولاً، ما صافح رسول الله صلى الله عليه وسلم امرأة أجنبية قط، فلم يتخلف أحد في بيعته صلى الله عليه وسلم حتى المرأتان بايعتا بيعة الحرب، وصدقتا عهدهما، فأما نسيبة بنت كعب (أم عمارة) فقد سقطت في أحد، وقد أصابها اثنا عشر جرحًا، وقد خرجت يوم أحد مع زوجها زيد بن عاصم بن كعب ومعها سقاء تسقي به المسلمين، فلما انهزم المسلمون انحازت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فكانت تباشر القتال، وتذب عنه بالسيف وقد أصيبت بجراح عميقة وشهدت بيعة الرضوان، وقطع مسيلمة الكذاب ابنها

إربا إربا فما وهنت وما استكانت، وشهدت معركة اليمامة في حروب الردة مع خالد بن الوليد فقاتلت حتى قطعت يدها وجرحت اثني عشر جرحًا، وأما الثانية فهي أسماء ابنة عمرو من بني سليمة قيل: هي والدة معاذ بن جبل، وقيل: ابنة عمة معاذ بن جبل رضي الله عنهم جميعًا.

١١ – عندما نراجع تراجم أصحاب العقبة الثانية، من الأنصار في كتب السير والتراجم نجد أن هؤلاء الثلاثة والسبعين قد استشهد قرابة ثلثهم على عهد النبي صلى الله عليه وسلم وبعده، ونلاحظ أنه قد حضر المشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم قرابة النصف، فثلاثة وثلاثون منهم كانوا بجوار الرسول صلى الله عليه وسلم في جميع غزواته، وأما الذين حضروا غزوة بدر فكانوا قرابة السبعين.

لقد صدق هؤلاء الأنصار عهدهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فمنهم من قضى نحبه ولقي ربه شهيدًا، ومنهم من بقي حتى ساهم في قيادة الدولة المسلمة وشارك في أحداثها الجسام بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبمثل هذه النماذج قامت دولة الإسلام، النماذج التي تعطي ولا تأخذ، والتي تقدم كل شيء، ولا تطلب شيئًا إلا الجنة، ويتصاغر التاريخ في جميع عصوره ودهوره أن يحوي في صفحاته، أمثال هؤلاء الرجال)[٩٧]. ا. هـ. هؤلاء الرجال شكلوا معنى الرجولة كما أرادها الاسلام.. بمجرد أن انهوا مراحلهم الأولى في التربية على منهج القرآن في مدرسة النبوة.. انطلقوا يجعلون الإيمان حركة على أرض الواقع وباعثا على رفعة هذا الدين، بل ومنهج حياةٍ يُقدَّم كل شئ في سبيله؛ حتى الحياة نفسها ترخص أمام قوة هذا الإيمان.. وإني لأذكر هؤلاء الرجال بعد بضع سنوات وقد رمتهم العرب عن قوس واحدة.. فقدوا الصديق والحليف.. بل وصار الجميع لهم أعداءا يريدون أن يتخطفوهم من حولهم.. قد تمالئ عليهم الجميع أحزابا وحاصروهم خلف الخندق " وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا (٢٢)الأحزاب " هؤلاء هم الأبطال حقا.. وهذه هي الرجولة في مدرسة محمد صلى الله عليه وسلم..

---

٩٧ (السِّيرةُ النّبوية – عرضُ وقائع وَتحليل أحدَاث المعرفة، ط.٧ ٢٠٠٨ م، بيروت – لبنان،ج١١\ص٢٥١).

تعليق قرآنی خالد...

إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١١١)

قَوْلُهُ تَعَالَى: {إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ} الْآيَةُ. قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ الْقُرَظِيُّ: لَمَّا بَايَعَتِ الْأَنْصَارُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليلة العقبة بِمَكَّةَ وَهُم سَبْعُونَ نَفْسًا، قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ اشْتَرِطْ لِرَبِّكَ وَلِنَفْسِكَ مَا شِئْتَ.

فَقَالَ: أَشْتَرِطُ لِرَبِّي عَزَّ وَجَلَّ: أَنْ تَعْبُدُوهُ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَأَشْتَرِطُ لِنَفْسِي، أَنْ تَمْنَعُونِي مِمَّا تَمْنَعُونَ مِنْهُ أَنْفُسَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ.

قَالُوا: فَإِذَا فَعَلْنَا ذَلِكَ فَمَا لَنَا؟

قَالَ: الْجَنَّةُ، قَالُوا: رَبِحَ الْبَيْعُ لَا نُقِيلُ وَلَا نَسْتَقِيلُ[٩٨] فَنَزَلَتْ: {إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ}[٩٩].

{يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ} {وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا} أَيْ: ثَوَابُ الْجَنَّةِ لَهُمْ وَعْدٌ وحقٌ {فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ} يَعْنِي أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ وَعَدَهُمْ هَذَا الْوَعْدَ، وَبَيَّنَهُ فِي هَذِهِ الْكُتُبِ. وَقِيلَ: فِيهِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ أَهْلَ الْمِلَلِ كُلِّهُمْ أُمِرُوا بِالْجِهَادِ عَلَى ثَوَابِ الْجَنَّةِ، ثُمَّ هَنَّأَهُمْ فَقَالَ: {وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا} فَافْرَحُوا {بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} قَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ بَايَعَكَ وَجَعَلَ الصَّفْقَتَيْنِ لَكَ.

وَقَالَ قَتَادَةُ: ثَامَنَهُمُ اللَّه عَزَّ وَجَلَّ فَأَغْلَى لَهُمْ[١٠٠].

٩٨أقاله البيع يقيلُه إقالة" و"تقايل البيعان": إذا فسخا البيع، وعاد المبيع إلى مالكه، والثمن إلى المشتري، إذا كان قد ندم أحدهما أو كلاهما. وتكون "الإقالة" في البيعة والعهد. و"استقالة": طلب إليه أن يقيله.

٩٩أخرجه الطبري: ١٤ / ٤٩٩. وانظر: الكافي الشاف ص (٨١) أسباب النزول ص (٣٠٠).

وَقَالَ الْحَسَنُ: اسْمَعُوا إِلَى بَيْعَةٍ رَبِيحَةٍ بَايَعَ اللَّهُ بِهَا كُلَّ مُؤْمِنٍ. وَعَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: إِنَّ اللَّهَ أَعْطَاكَ الدُّنْيَا فَاشْتَرِ الْجَنَّةَ بِبَعْضِهَا) ا. هـ. [١٠١]

قال ابن قيم الجوزية رحمه الله:

قال تعالى {إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} فجعل سبحانه ها هنا الجنة ثمنا لنفوس المؤمنين وأموالهم بحيث إذا بذلوها فيه استحقوا الثمن وعقد معهم هذا العقد وأكده بأنواع من التأكيد

أحدها: إخبارهم سبحانه وتعالى بصيغة الخبر المؤكد بأداة أن

الثاني: الأخبار بذلك بصيغة المرضى الذي قد وقع وثبت واستقر

الثالث: إضافة هذا العقد إلى نفسه سبحانه وأنه هو الذي اشترى هذا المبيع

الرابع: أنه أخبر بأنه وعد بتسليم هذا الثمن وعدا لا يخلفه ولا يتركه

الخامس: أنه أتى بصيغة على التي للوجوب أعلاما لعباده بأن ذلك حق عليه أحقه هو على نفسه

السادس: أنه أكد ذلك بكونه حقا عليه

السابع: أنه أخبر عن محل هذا الوعد وأنه في أفضل كتبه المنزلة من السماء وهي التوراة والإنجيل والقرآن

الثامن: إعلامه لعباده بصيغة استفهام الإنكار وأنه لا أحد أوفى بعهده منه سبحانه.

التاسع: أنه سبحانه وتعالى أمرهم أن يستبشروا بهذا العقد ويبشر به بعضهم بعضا بشارة من قد تم له العقد ولزم بحيث لا يثبت فيه خيار ولا يعرض له ما يفسخه

١٠٠"ثامنت الرجل في المبيع": إذا قاولْتهُ في ثمنه وفاوضته، وساومته على بيعه واشترائه وانظر: الطبري: ١٤ / ٤٩٩.

١٠١تفسير البغوي – ط.طيبة (٤/ ٩٨)

العاشر: أنه أخبرهم إخبارا مؤكدا بأن ذلك البيع الذي بايعوه به هو الفوز العظيم والبيع ههنا بمعنى المبيع الذي أخذوه بهذا الثمن وهو الجنة

وقوله بايعتم به أي عاوضتم وثامنتم به

ثم ذكر سبحانه أنه هذا العقد الذي وقع العقد وتم لهم دون غيرهم وهم التائبون مما يكره العابدون له بما يحب الحامدون له على ما يحبون وما يكرهون السائحون وفسرت السياحة بالصيام وفسرت بالسفر في طلب العلم وفسرت بالجهاد وفسرت بدوام الطاعة والتحقيق فيها أنها سياحة القلب في ذكر الله ومحبته والإنابة إليه والشوق إلى لقائه ويترتب عليها كل ما ذكر من الأفعال ولذلك وصف الله سبحانه نساء النبي صلى الله عليه وسلم اللاتي لو طلق أزواجه بدله بهن بأنهن سائحات وليست سياحتهن جهادا ولا سفرا في طلب علم ولا إدامة صيام وإنما هي سياحة قلوبهن في محبة الله تعالى وخشيته والإنابة إليه وذكره) ا. هـ. [١٠٢]

والدرس تارة أخرى في ساحة التاريخ...

ثم هذا تقريب آخر لمعنى من معاني الرجولة التي زرعها الإسلام في قلوب أتباعه.. يرسمها لنا مشهد تاريخي آخر لهؤلاء الرجال الأبطال من مدرسة محمد صلى الله عليه وسلم.. ها هو عمرو بن العاص الفاتح المؤمن العظيم رضى الله عنه يقف مع أبطاله على أبواب مصر.. وعظيم مصر يخشاه، ويرهب صولته.. يتمنى لو يتاح له بعض الوقت، أو يستطيع أن يغرى هؤلاء الأبطال بالانصراف عنه... ولنترك التاريخ يحدثنا من كتاب فتوح مصر: (أرسل المقوقس إلى عمرو بن العاص يقول: إنكم قوم قد ولجتم في بلادنا، وألححتم على قتالنا، وطال مقامكم في أرضنا، وإنما أنتم عصبة يسيرة، وقد أظلّتكم الروم وجهّزوا إليكم ومعهم من العدّة والسلاح، وقد أحاط بكم هذا النيل، وإنما أنتم أسارى في

---

١٠٢ حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح (ص: ٨٤).

أيدينا، فابعثوا إلينا رجالا منكم نسمع من كلامهم، فلعلّه أن يأتى الأمر فيما بيننا وبينكم على ما تحبّون ونحبّ، وينقطع عنّا وعنكم هذا القتال قبل أن تغشاكم جموع الروم فلا ينفعنا الكلام ولا نقدر عليه، ولعلّكم أن تندموا إن كان الأمر مخالفا لطلبتكم ورجائكم، فابعث إلينا رجالا من أصحابكم نعاملهم على ما نرضى نحن وهم به من شيء. (هم الآن يحاولون التوصل إلى صلح أو وقت يرحمهم من هؤلاء الفاتحين المصرين على إزالة ظلمهم وبغيهم على المصريين سنين...) فلما أتت عمرو ابن العاص رسل المقوقس حبسهم عنده يومين وليلتين حتى خاف عليهم المقوقس، فقال لأصحابه: أترون أنهم يقتلون الرسل، ويحبسونهم، ويستحلّون ذلك في دينهم؟ وإنما أراد عمرو بذلك أن يروا حال المسلمين (هكذا كانت الرجال في الإسلام تفصح عن رجولتها وبطولتها بالحال والفعل؛ لا بالإدعاء والقول...)، فردّ عليهم عمرو مع رسله، أنه ليس بيني وبينكم إلّا إحدى ثلاث خصال: إمّا أن دخلتم في الإسلام فكنتم إخواننا وكان لكم ما لنا، وإن أبيتم فأعطيتم الجزية عن يد وأنتم صاغرون، وإمّا أن جاهدناكم بالصبر والقتال حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين. (هم دائما وأبدا على نهج الرسول صلى الله عليه وسلم في الدعوة يسيرون.. ما كان الجهاد أبدا في الإسلام إلا اعلاءا لراية النور في وجه كل ظلام في العالم إلى يوم الدين... فماذا تساوى كنوز الأرض مقابل أرواح تزهق وأطراف تقطع...). فلما جاءت رسل المقوقس إليه، قال: لهم كيف رأيتموهم؟ قالوا(اسمع معي جيدا.. هذا المعنى الأرقى للحياة.. وهذه صفات الرجولة الحقة): رأينا قوما الموت أحبّ إلى أحدهم من الحياة، والتواضع أحبّ إليه من الرفعة، ليس لأحدهم في الدنيا رغبة ولا نهمة، إنما جلوسهم على التراب، وأكلهم على ركّبهم، وأميرهم كواحد منهم، ما يعرف رفيعهم من وضيعهم، ولا السيّد فيهم من العبد، وإذا حضرت الصلاة لم يتخلّف عنها منهم أحد، يغسلون أطرافهم بالماء، وتخشعون في صلاتهم.

فقال عند ذلك المقوقس (وقد أذهله وجود رجال في ها العالم هكذا.. ولكنهم.. صناعة الاسلام!): والذي يحلف به لو أنّ هؤلاء استقبلوا الجبال لأزالوها، وما يقوى على قتال هؤلاء أحد، ولئن لم نغتنم صلحهم اليوم وهم محصورون بهذا النيل، لم يجيبونا بعد اليوم إذا أمكنتهم الأرض، وقووا على الخروج من موضعهم. فردّ إليهم المقوقس رسله ابعثوا إلينا رسلا منكم نعاملهم، ونتداعى نحن وهم إلى ما عساه أن يكون فيه صلاح لنا ولكم.

فبعث عمرو بن العاص عشرة نفر، أحدهم عبادة بن الصامت (أحد الأسود التي رباها رسول الله صلى الله عليه وسلم).

حدثنا سعيد بن عفير، قال: أدرك الإسلام من العرب عشرة نفر طول كلّ رجل منهم عشرة أشبار(أي كانوا أطفالا، ولكن أطفال الإسلام أبطال!)، عبادة بن الصامت أحدهم.

قال: وأمره عمرو أن يكون متكلّم القوم، وألّا يجيبهم إلى شيء دعوه إليه إلّا إحدى هذه الثلاث خصال؛ فإن أمير المؤمنين قد تقدّم إليّ في ذلك، وأمرني ألّا أقبل شيئا سوى خصلة من هذه الثلاث خصال). (وكان عبادة بن الصامت أسود، فلما ركبوا السفن إلى المقوقس، ودخلوا عليه، تقدّم عبادة، فهابه المقوقس لسواده فقال: نحّوا عنّي هذا الأسود، وقدّموا غيره يكلمني (نفس العنصرية.. ورثوها كابرا عن كابر، ولذلك لم يتعب الإسلام أبدا – وهو دين العدل والمساواة بين كل البشر – في جمع القلوب حوله والعقول والأرواح النقية التي تريد للإنسان مكانه الطبيعي في سلسلة الرِقى، وفى درجات التكريم الالهى)، فقالوا جميعا: إنّ هذا الأسود أفضلنا رأيا وعلما، وهو سيّدنا وخيرنا والمقدّم علينا، وإنما نرجع جميعا إلى قوله ورأيه، وقد أمره الأمير دوننا بما أمره به، وأمرنا بأن لا نخالف رأيه وقوله، قال: وكيف رضيتم أن يكون هذا الأسود أفضلكم؟ وإنما ينبغي أن يكون هو دونكم، قالوا: كلّا، إنه وإن كان أسود كما ترى فإنه من أفضلنا موضعا، وأفضلنا سابقة وعقلا ورأيّا، وليس ينكر السواد فينا (لأن المعيار الوحيد للتمييز بين البشر في الإسلام – وهو الأرِقى في أي فكر صحيح – هو التفاضل بالخيرية في القلوب وبالأعمال الصالحة النافعة).

فقال المقوقس لعبادة: تقدّم يا أسود، وكلمني برفق؛ فإني أهاب سوادك، وإن اشتدّ كلامك عليّ ازددت لذلك هيبة، فتقدّم إليه عبادة، فقال: قد سمعت مقالتك، وإنّ فيمن خلّفت من أصحابي ألف رجل أسود، كلّهم أشدّ سوادا منى وأفظع منظرا ولو رأيتهم لكنت أهيب لهم منك لي، وأنا قد وليت، وأدبر شبابي، وإني مع ذلك بحمد الله ما أهاب مائة رجل من عدوّى لو استقبلوني جميعا، وكذلك أصحابي، وذلك أنّا إنما رغبتنا وهمّتنا الجهاد في الله وإتباع رضوانه، وليس غزونا عدوّنا ممّن حارب الله لرغبة في دنيا، ولا طلبا للاستكثار منها؛ إلا أن الله قد أحلّ ذلك لنا، وجعل ما غنمنا من ذلك حلالا، وما يبالى أحدنا أكان له قنطار من ذهب، أم كان لا يملك إلّا درهما! لأن غاية أحدنا من الدنيا أكلة يأكلها يسدّ بها جوعته لليله ونهاره، وشملة يلتحفها، فإن كان أحدنا لا يملك إلا ذلك

كفاه، وإن كان له قنطار من ذهب أنفقه في طاعة الله واقتصر على هذا الذي بيده ويبلغه ما كان في الدنيا، لأن نعيم الدنيا ليس بنعيم ورخاءها ليس برخاء، إنما النعيم والرخاء في الآخرة، وبذلك أمرنا ربنا، وأمرنا به نبيّنا، وعهد إلينا ألا تكون همّة أحدنا من الدنيا إلا ما يمسك جوعته، ويستر عورته، وتكون همّته وشغله في رضا ربّه وجهاد عدوّه. (هكذا كانوا يُرهبون.. لأنهم سموا في ذلك النهج الرباني حتى صاروا فوق الدنيا وأطماعها.. فداءا للنور والحق.. هل أدركنا الآن لماذا نزعت المهابة لنا من صدور أعدائنا). لما سمع المقوقس ذلك منه، قال لمن حوله: هل سمعتم مثل كلام هذا الرجل قطّ! لقد هبت منظره، وإنّ قوله لأهيب عندي من منظره؛ إنّ هذا وأصحابه أخرجهم الله لخراب الأرض(أو لعمارها يا منكوس البصيرة!) ما أظنّ ملكهم إلا سيغلب على الأرض كلّها.

ثم أقبل المقوقس على عبادة بن الصامت، فقال: أيّها الرجل الصالح، قد سمعت مقالتك، وما ذكرت عنك وعن أصحابك، ولعمري ما بلغتم ما بلغتم إلا بما ذكرت، وما ظهرتم على من ظهرتم عليه إلا لحبّهم الدنيا ورغبتهم فيها، وقد توجّه إلينا لقتالكم من جمع الروم ما لا يحصى عدده قوم معروفون بالنجدة والشدّة، ما يبالى أحدهم من لقي، ولا من قاتل، وإنّا لنعلم أنكم لن تقووا عليهم، ولن تطيقوهم لضعفكم وقلّتكم (دائما.. سلاحهم الأخير والأمكر.. حرب الأعصاب والإبهار الاعلامى لرمى الرعب في الصدور وتصوير جنودهم الشواذ بالأسود.. والتهويل والتهديد.. ووالله ما ينتصرون أبدا إلا بضعف قلوب أهل الحق، وانخذالهم عن نصرة عقيدتهم وتفرِقهم)، وقد أقمتم بين أظهرنا أشهرا، وأنتم في ضيق وشدّة من معاشكم وحالكم، ونحن نرِق عليكم لضعفكم وقلّتكم وقلّة ما بأيديكم؛ ونحن تطيب أنفسنا أن نصالحكم على أن نفرض لكلّ رجل منكم دينارين دينارين؛ ولأميركم مائة دينار، ولخليفتكم ألف دينار، فتقبضونها وتنصرفون إلى بلادكم قبل أن يغشاكم ما لا قوام لكم به(وإن لم تنفع العصا فمعهم الجزرة، هكذا يغرون القلوب الضعيفة بالدنيا فتلين فتُستعبد لهم .)

فقال عبادة بن الصامت: يا هذا؛ لا تغرنّ نفسك ولا أصحابك، أمّا ما تخوّفنا به من جمع الروم وعددهم وكثرتهم، وأنّا لا نقوى عليهم فلعمري ما هذا بالذي تخوّفنا به، ولا بالذي يكسرنا عمّا نحن فيه، إن كان ما قلتم حقّا فذلك والله أرغب ما يكون في قتالهم، وأشدّ لحرصنا عليهم؛ لأن ذلك أعذر لنا عند ربّنا إذا قدمنا عليه، إن قتلنا من آخرنا كان أمكن لنا في رضوانه وجنّته، وما من شيء أقرّ

لأعيننا، ولا أحبّ إلينا من ذلك؛ وإنّا منكم حينئذ لعلى إحدى الحسنيين؛ إمّا أن تعظم لنا بذلك غنيمة الدنيا إن ظفرنا بكم، أو غنيمة الآخرة إن ظفرتم بنا، وإنها لأحبّ الخصلتين إلينا بعد الاجتهاد منّا، وإن الله عزّ وجلّ قال لنا في كتابه: كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ، وما منّا رجل إلا وهو يدعو ربّه صباحا ومساء أن يرزقه الشهادة، وألّا يردّه إلى بلده ولا إلى أرضه ولا إلى أهله وولده، وليس لأحد منا همّ فيما خلّفه، وقد استودع كلّ واحد منا ربّه أهله وولده؛ وإنما همّنا ما أمامنا. وأمّا قولك: إنا في ضيق وشدّة من معاشنا وحالنا؛ فنحن في أوسع السعة لو كانت الدنيا كلّها لنا ما أردنا منها لأنفسنا أكثر مما نحن عليه. (هكذا تكلمت العقيدة، وأجاب اليقين.. صوت الرجولة في الإسلام صوت الإيمان.. وحينما ضعف الإيمان وهنت الرجولة).. فانظر الذي تريد فبيّنه لنا، فليس بيننا وبينكم خصلة نقبلها منك، ولا نجيبك إليها إلّا خصلة من ثلاث، فاختر أيّها شئت، ولا تطمع نفسك في الباطل؛ بذلك أمرني الأمير، وبها أمره أمير المؤمنين، وهو عهد رسول الله صلّى الله عليه وسلم من قبل إلينا، إمّا أجبتم إلى الإسلام الذي هو الدين الذي لا يقبل الله غيره، وهو دين أنبيائه ورسله وملائكته، أمرنا الله أن نقاتل من خالفه ورغب عنه حتى يدخل فيه، فإن فعل كان له ما لنا وعليه ما علينا، وكان أخانا في دين الله؛ فإن قبلت ذلك أنت وأصحابك، فقد سعدتم في الدنيا والآخرة، ورجعنا عن قتالكم، ولم نستحلّ أذاكم، ولا التعرّض لكم، فإن أبيتم إلا الجزية فأدّوا إلينا الجزية عن يد وأنتم صاغرون، نعاملكم على شيء نرضى به نحن وأنتم في كل عام أبدا ما بقينا وبقيتم، ونقاتل عنكم من ناوأكم وعرض لكم في شيء من أرضكم ودمائكم وأموالكم، ونقوم بذلك عنكم، إذ كنتم في ذمّتنا، وكان لكم به عهد علينا، وإن أبيتم فليس بيننا وبينكم إلا المحاكمة بالسيف حتى نموت من آخرنا، أو نصيب ما نريد منكم؛ هذا ديننا الذي ندين الله به، ولا يجوز لنا فيما بيننا وبينه غيره، فانظروا لأنفسكم...)[١٠٣] أ. هـ.

٩٨من فتوح مصر والمغرب، لابن عبد الحكم، أبو القاسم المصري (م ٢٥٧هـ)، مكتبة الثقافة الدينية، ١٤١٥ هـ، ص٨٦-٩٠.مع تعليقي ما بين القوسين.

هؤلاء عرفوا الله، وعرفوا أنفسهم.. فعرفتهم الدنيا كلها، وخلدهم التاريخ...

ونتوقف هنا أمام الفهم الدقيق والعميق للمبدأ؛ والذي جعل من هؤلاء الرجال أساتذةً بارعون.. يعرفون كيف ينصرون الإسلام ليس فقط على أساس من الإيمان المتجزر به، وإنما أيضا على قاعدة عريضة من الفهم العميق لفلسفة هذا الدين.. وكأن الله سبحانه وتعالى- أراد أن يكون الواحد منهم – الرجال الذين تربوا في مدرسة محمد صلى الله عليه وسلم على مر العصور – تمثيلا حيا وواقعيا لدعوة الإسلام.. يعلم العالم أجمعه دقيق معاني الإسلام بالقدوة قبل الكلمة.. فما أحوجنا – وقد ابتعدنا كثيرا عن الفهم العميق لإسلامنا- أن نراجع أنفسنا.. فإن إدراك الهوية الحقيقية لنا لا تتأتى إلا بمعرفتنا السليمة لديننا والنظر في بديع محاسنه.. وهو ما حاول الغرب الحاقد دائما صرفنا عنه.. بل وتشويه جمال إسلامنا بقلب الحقائق عنه؛ وإشاعة الأكاذيب المضللة.. لذلك تفطن الإمام البخاري رضي الله عنه لهذا فترجم(عنون) في صحيحه الرائع باب (العلم قبل القول والعمل).. وهذا العلم وهذه المعرفة بمعاني الخير والحق والرجولة والرحمة، ومعالى الأخلاق في الإسلام، وطرِق وعثرات الدفاع عن الحق والخير فرض واجب على كل مسلم حقيقى أراد يوما أن يحقق شعارنا (كن فخورا.. أنت مسلم).. صلى الله على محمد وإبراهيم "هو سماكم المسلمين من قبل "..

وهنا يحدثنا التاريخ مرة لأخرى عن رجال أدخلوا النور للدنيا بيقينهم في هذا النور، ومعرفتهم الدقيقة فيه، واستعدادهم الكامل للدفاع عنه.. هذه المرة مع فتح العراق وإنهاء عبادة النار.. ليُعبد الله رب العالمين.. جاء في كتاب حياة الصحابة (وقال سيف عن شيوخه: ولما تواجه الجيشان (جش المسلمين بقيادة سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه في خلافة الفاروق وجيش أقوى أمة في ذلك الوقت الفرس بقيادة رستم القائد المحنك الشرس) بعث رُستم إلى سعد رضي الله عنه أن يبعث إليه برجل عاقل عالم بما أسأله عنه، فبعث إليه المغيرةَ بن شعبة. فلما قدم إليه جعل رُستم يقول له: إنكم جيرانُنا وكنا نحسن إليكم ونكف الأذى عنكم، فارجعوا إلى بلادكم لا نمنع تجارتكم من الدخول إلى بلادنا. فقال له المغيرة: إنا ليس طلبنا الدنيا وإنما همنا وطلبنا الآخرة، وقد بعث الله إلينا رسولاً، قال له: إنِّي قد سلطت هذه الطائفة على من لم يَدنِ بديني، فأنا منتقم بهم منهم، وأجعل لهم الغلبة ما داموا مُقرِّين به، وهو

دين الحق لا يرغب عنه أحد إلا ذلّ، ولا يعتصم به إلا عزّ. فقال له رُستم: فما هو؟ فقال: أما عموده الذي لا يصلح شيء منه إلا به فشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، والإقرار بما جاء من عند الله. فقال: ما أحسن هذا وأي شيء أيضاً؟ قال: وإخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة الله، قال: وحَسَنٌ أيضاً. وأي شيء أيضاً؟ قال: والناس بنو آدم فهم أخوة لأب وأم. قال: وحسن أيضاً. قال: ولما خرج المغيرة من عنده ذكرَ رستم رؤساء قومه في الإسلام، فأنفوا ذلك وأبَوا أن يدخلوا فيه، قبَّحهم الله وأخزاهم وقد فعل. قالوا: ثم بعث إليه سعد رضي الله عنه رسولاً آخر بطلبه وهو ربعي بن عامر، فدخل عليه وقد زيَّنوا مجلسه بالنَّمارِق المذهَّبة، والزَّرابي الحرير، وأظهر اليواقيت واللآلىء الثمينة والزينة العظيمة، وعليه تاجه وغير ذلك من الأمتعة الثمينة، وقد جلس على سرير من ذهب. ودخل ربعي بثياب صفيقة وسيف وترس وفرس قصيرة، ولم يزل راكبَها حتى داس بها على طرف البساط، ثم نزل وربطها ببعض تلك الوسائد، وأقبل وعليه سلاحُه ودرعه وبيضتُه على رأسه. فقالوا له: ضع سلاحك فقال: إني لم آتِكم وإنّما جئتكم حين دعوتموني، فإنما تركتموني هكذا وإلا رجعت. فقال رستم: إئذنوا له، فأقبل يتوكأ على رمحه فوق النَّمارِق فخرِق عامتها، فقالوا له: ما جاء بكم؟ فقال: إن الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضِيق الدنيا إلى سعَتَها، ومن جَوْر الأديان إلى عدل الإسلام، فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه؛ فمن قبل ذلك قبلنا منه ورجعنا عنه، ومن أبى قاتلناه أبداً حتى نفضيَ إلى موعود الله، قالوا: وما موعودُ الله؟ قال: الجنة لمن مات على قتال من أبى، والظفر لمن بقي. فقال رستم: لقد سمعت مقالتكم فهل لكم أن تؤخروا هذا الأمر حتى ننظر فيه وتنظروا؟ قال: نعم، كم أحبُّ إليكم؟ يوماً أو يومين، قال: لا بل حتى نكاتب أهل رأينا ورؤساء قومنا. فقال: ما سنَّ لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نؤخِّر الأعداء عند اللقاء أكثر من ثلاث، فانظر في أمرك وأمرهم، واختر واحدة من ثلاث بعد الأجل. فقال: أسيِّدهم أنت؟ قال: لا، ولكن المسلمون كالجسد الواحد يُجير أدناهم على أعلاهم. فاجتمع رستم برؤساء قومه فقال: هل رأيتم قط أعزَّ وأرجح من كلام هذا الرجل؟ فقالوا: معاذ الله أن تميل إلى شيء من هذا وتدع دينك إلى هذا الكلب أما ترى إلى ثيابه؟ فقال: ويلَكم لا تنظروا إلى الثياب، وانظروا إلى الرأي والكلام والسيرة، إن العرب يستخفُّون بالثياب والمأكل ويصونون الأحساب.)[١٠٤] ا. هـ.

٩٩من حياة الصحابة للكاندهلوى، ج١\ص٢٥٩، ط. الرسالة الأولى ١٩٩٩.

هذه معركة أخرى انتصر فيها الإسلام يوم كان له رجال يعرفون قدره.. ويعرفون كيف يدافعون عنه وينشرونه.. ولنا هنا وقفات: – الأولى: إن هذه الأشجار الشامخة التي غرسها الإسلام وسقاها وهذب أطرافها رسول الله صلى الله عليه وسلم لهى تسقى ماء واحد وتتسق في جذورها وثمارها.. ألا يروعنا أنها ذات الكلمات يرددها عبادة بن الصامت — من قبل – والمغيرة وربعى بن عامر عن رسالتهم ومهمتهم السامية في الحياة.. لكأنى بهم وقد تلاشت أنفسهم في ذات هذا الدين.. يجرى فيهم مجرى الروح.. يعتزون به ويعتز بهم.. " إنا ليس طلبنا الدنيا، وإنما همنا وطلبنا الآخرة".. هكذا كانوا وهكذا انتصروا.. ومن هنا كانت عزة (رِبعى) وهو يهدد ويتوعد أعتى أمم وجيوش الأرض.. إن الإسلام — وهو فقط —من جرَّأ أمة الغنم والصحراء والتشتت على غزو فارس والروم، بل وتعليمها المعنى الأرقى للحضارة والمدنية.. " إني لم آتِكم وإنّما جئتكم حين دعوتموني، فإنما تركتموني هكذا وإلا رجعت. ".. يقول المسلمون لأمم تعثر بها ركاب الإنسانية، وفقدت الهدف والطريق؛ لما طغت وأفسدت.. فجاءت تستنجد بالإسلام.. يهدى من الضلالة في عمى صنعته لهم شياطينهم، وزينته لهم أنفسهم.. والمؤمنون الأول كانوا يدركون رسالتهم جيدا.. أصولها وتفاصيل أهدافها..

" وهو دين الحق لا يرغب عنه أحد إلا ذلّ، ولا يعتصم به إلا عزّ. " وشرط النصر.. "ما داموا مُقرِّين به": أما عموده الذي لا يصلح شيء منه إلا به فشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، والإقرار بما جاء من عند الله. ".. وأما زمان يغرينا الغرب فيه بمناقشة صلاحية التشريع الاسلامي لكل زمان ومكان، وقضية حجية السنة، وغيرها من علامات الانخلاع عن طاعة الله، وعدم القبول عنه ورسوله صلى الله عليه وسلم.. فهو زمان النكسة والردة والنفاق والذلة والعار والمهانة.. ".. فهل من مُدَّكر"....!

الثانية: يقول الصديق رضى الله عنه "احرص على الموت توهب لك الحياة ".. ولكن أى موت وأى حياة.. يقول أبو فراس الحمداني:

هو الموت فاختر ما علا لك ذكره فلم يمت الإنسان ما حيي الذكر

ويقول بن نباتة السعدي:

من لم يمت بالسيف مات بغيره تعددت الأسباب والموت واحد

(إنه لا بد من استقرار هذه الحقيقة في النفس: حقيقة أن الحياة في هذه الأرض موقوتة، محدودة بأجل ثم تأتي نهايتها حتما.. يموت الصالحون ويموت الطالحون. يموت المجاهدون ويموت القاعدون. يموت المستعلون بالعقيدة ويموت المستذلون للعبيد. يموت الشجعان الذين يأبون الضيم، ويموت الجبناء الحريصون على الحياة بأي ثمن.. يموت ذوو الاهتمامات الكبيرة والأهداف العالية، ويموت التافهون الذين يعيشون فقط للمتاع الرخيص.

الكل يموت.. «كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ الْمَوْتِ».. كل نفس تذوق هذه الجرعة، وتفارِق هذه الحياة.. لا فارِق بين نفس ونفس في تذوق هذه الجرعة من هذه الكأس الدائرة على الجميع. إنما الفارِق في شيء آخر. الفارِق في قيمة أخرى. الفارِق في المصير الأخير: «وَإِنَّما تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ. فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فازَ»..)[105]... أقول الفارِق على أى مبدأٍ تموت.. وعن أى شريعةٍ تقاتل حتى الموت.. " الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضِيق الدنيا إلى سعَتَها، ومن جَوْر الأديان إلى عدل الإسلام، فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه؛ فمن قبل ذلك قبلنا منه ورجعنا عنه، ومن أبى قاتلناه أبداً حتى نفضيَ إلى موعود الله، قالوا: وما موعودُ الله؟ قال: الجنة لمن مات على قتال من أبى، والظفر لمن بقي. ".. ما أجلَّ عقيدتهم في الموت من أجلِ هداية العالم إلى خالقه.. ونبذ العنصرية واستعباد البشر.. وتعليم الدنيا كلها مفردات الأخلاق السامية.. إن أمريكا الفاجرة روجت للقتل، ونهب ثروات الأمم، وإشاعة الثقافات الهدامة كالشذوذ وغيره بشعارات الدفاع عن الحرية.. فأى حرية؛ وهم يستغلون ملايين الفقراء في (هاييتي) كحقول لتجاربهم السرية على خلق الزلازل الاصطناعية فيموت الآلاف بلا ذنب.. ولم تنس الدنيا (هيروشيما ونجازاكى) التي راح ضحيتها مئات الآلاف لتجارب أمريكا النووية.. وخزايا تاريخهم فيها الكثير.. بينما يعترف أحد أكبر فلاسفتهم ومؤرخي الغرب (جوستاف لوبون) في كتابه حضارة العرب: (ما عرف العالم فاتحين أرحم

---

[105] في ظلال القرآن ١\٥٣٩دار الشروق.

ولا أعدل من العرب (المسلمين)..).. فلماذا نُحرج جدا، وتصفر وجوهنا عند الحديث عن الجهاد بالمعنى الاسلامى، ونظل في خندق الدفاع السخيف ؟!

وإني اسمع صوت محمد إقبال الشاعرالاسلامي الكبير يقول:

من ذا الذي رفع السيوف ليرفع اسمك **** فوق هامات النجوم منارا.

كنا جبالا ربما سرنا على بيض السحاب*** وفوق أمواج البحار بحارا.

بمعابد الإفرنج كان أذاننا ******** قبل الكتائب يفتح الأمصارا.

لم تنس إفريقيا ولا صحراؤها*********سجداتنا والأرض تقذف نارا.

كنا نقدم للسيوف صدورنا********** لم نخش يوما غاشما جبارا.

وكأن ظل السيف ظل حديقةٍ ********خضراء تنبت حولها الأزهارا.

لم نخش طاغوتا يحاربنا ولو***********نصب المنايا حولنا أسوارا.

ندعو جهارا لا إله سوى الذي **** صنع الوجود وقدر الأقدارا.

و رؤوسنا يا رب فوق أكفنا ***** نرجو ثوابك مغنما، وجوارا.

الثالثة: يقول العلامة أبى الحسن الندوى: (إني لأتساءل ما هو الضيق الذي كان فيه الفرس وما هي السعة التي كان فيها العرب المسلمين ؟ لقد أجمع التاريخ والمؤرخون على أن الفرس والروم كانوا يعيشون في رغد من العيش، ويتقلبون في أعطاف النعيم، لقد اتسعت لهم الدنيا ولانت لهم الحياة.. أما العرب فكانوا يعيشون في شظف، والمدنية لم تتعقد أمامهم بعد. فأين هي السعة ؟!إن ربعى بن عامر كان ينظر إلى هؤلاء الملوك والأمراء كما ينظر العاقل إلى دمى قد كسيت ملابس فاخرة جميلة، وإلى تماثيل قد أحكمت صياغتها، وتأنق صانعوها تصوير قسماتها وملامحها، ولكنها تماثيل من حجر أو جبس لا حياة فيها ولا حراك بها.. وكان ربعى كبقية المسلمين يتمتع بالحرية التي عرفه بها الإسلام، فتنقله من

دنيا ضيقة محدودة خائفة.. دنيا المادة والشهوات والأغراض ودنيا الاستعباد، إلى دنيا القلب والروح والإيثار والمساواة والعدل والرحمة... وتلك هي السعة على الحقيقة)أ. هـ.

الرابعة: يوم كان الإسلام في نفوسهم أغلى عندهم من الدنيا، لم يبالوا بملبس ولا زينة كاذبة.. بل نظروا إلى مهمتهم وكفى فهابتهم الدنيا.. " ويلَكم لا تنظروا إلى الثياب، وانظروا إلى الرأي والكلام والسيرة، إن العرب يستخفُّون بالثياب والمأكل ويصونون الأحساب.).. أحسابهم رجولتهم ومروءتهم، ونسبهم دينهم ورسولهم.. فكيف لا يبهرون التاريخ ؟!

هكذا توزن الرجال.. فكم تزن ؟!

يقول الله تعالى " أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا (١٠٥)سورة الكهف

قال ابن كثير رحمه الله: (وَقَالَ – تعالى – فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: {قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ} أَيْ: نُخْبِرُكُمْ {بِالأخْسَرِينَ أَعْمَالا} ؟ ثُمَّ فَسَّرَهُمْ – سبحانه – فَقَالَ: {الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} أَيْ: عَمِلُوا أَعْمَالًا بَاطِلَةً عَلَى غَيْرِ شَرِيعَةٍ مَشْرُوعَةٍ مَرْضِيَّةٍ مَقْبُولَةٍ، {وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا} أَيْ" يَعْتَقِدُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ، وَأَنَّهُمْ مَقْبُولُونَ مَحْبُوبُونَ.

وَقَوْلُهُ: {أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ} أَيْ: جَحَدُوا آيَاتِ اللَّهِ فِي الدُّنْيَا، وَبَرَاهِينَهُ الَّتِي أَقَامَ عَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ، وَصِدْقِ رُسُلِهِ، وَكَذَّبُوا بِالدَّارِ الْآخِرَةِ، {فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا} أَيْ: لَا نُثْقِلُ مَوَازِينَهُمْ؛ لِأَنَّهَا خَالِيَةٌ عَنِ الْخَيْرِ.

قَالَ الْبُخَارِيُّ: (بسنده)، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: "إِنَّهُ لَيَأْتِي الرَّجُلُ الْعَظِيمُ السَّمِينُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، لَا يزن عند الله جناح بعوضة" وقال: "اقرؤوا إِنْ شِئْتُمْ: {فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا}... وَقَالَ الْبَزَّارُ: (بسنده)، عَنْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ بُرَيْدَةَ، عَنْ أَبِيهِ قَالَ: كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَقْبَلَ رَجُلٌ مِنْ قُرَيْشٍ يَخْطُرُ فِي حُلَّةٍ لَهُ. فَلَمَّا قَامَ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "يَا بُرَيْدَةُ، هَذَا مِمَّنْ لَا يُقِيمُ اللَّهُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا". وَقَدْ قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ أَيْضًا: (بسنده)، عَنْ كَعْبٍ قَالَ: يُؤْتَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِرَجُلٍ عَظِيمٍ طَوِيلٍ، فَلَا يَزِنُ عند الله جناح بعوضة، اقرؤوا: {فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا}.)[١٠٦] أ. هـ.

قلتُ: روى البخاري في صحيحه (بسنده) – عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ، أَنَّهُ قَالَ: مَرَّ رَجُلٌ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ لرَجُلٍ عِنْدَهُ جَالِسٍ: «مَا رَأْيُكَ فِي هَذَا» فَقَالَ: رَجُلٌ مِنْ أَشْرَافِ النَّاسِ، هَذَا وَاللَّهِ حَرِيٌّ إِنْ خَطَبَ أَنْ يُنْكَحَ، وَإِنْ شَفَعَ أَنْ يُشَفَّعَ، قَالَ: فَسَكَتَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثُمَّ مَرَّ رَجُلٌ آخَرُ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا رَأْيُكَ فِي هَذَا» فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَذَا رَجُلٌ مِنْ فُقَرَاءِ المسْلِمِينَ، هَذَا حَرِيٌّ إِنْ خَطَبَ أَنْ لاَ يُنْكَحَ، وَإِنْ شَفَعَ أَنْ لاَ يُشَفَّعَ، وَإِنْ قَالَ أَنْ لاَ يُسْمَعَ لِقَوْلِهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «هَذَا خَيْرٌ مِنْ مِلْءِ الأَرْضِ مِثْلَ هَذَا»[١٠٧]... ا. هـ.

الحق أن موازين الرجال الحقيقية تختلف تماما عن تلك الأصول التي وضعتها لنا الأيام، وزادها نقص تأملنا في الحياة استقرارا ونفوذا. وكالعادة يأتي الإسلام ليضع النقاط على الحروف، ويقيم المعاني على حقيقتها بغير تزويرٍ، وبكل ازدراءٍ لعبوديتنا العادة والتقاليد والتي تكون أحياناً كثيرةً – جائرةً مخالفةً للفطرة والحق.. هكذا الإسلام يزن الرجال بميزان الرجولة الصحيحة؛ لا المدَّعاة.. يزن الإنسان بمعدنه الأصيل الذي يرتفع بارتفاع عقيدته وإنسانيته وأخلاقه؛ لا بالمال والجاه والنسب والعِرق.. هكذا يعلِّم الإسلام الإنسان في مدرسته أن قمة الحرية الإنسانية في كمال عبوديته لربه.. لأنه آنذاك يتحرر من رِق كل شيءٍ يدنس تكريم الخالق العظيم له.. يتحرر من رِق الشهوات المهلكة الدنيئة، ومن رِق العادات والتقاليد التي تهين العقل والروح، ومن رِق الجهل والأخلاق الردية، والطغيان في الأرض.. ينتقل بروحه إلى النور، وبعقله إلى التكريم، وبجسده إلى الطهارة، وبفعله إلى الخير، والعدل، والحق.. ولذلك كله فالموازين في ساحة الحق تختلف، ودرجات الرجال في الإسلام تتفاضل بالإيمان، والعمل الصالح، وأثر المرء في تهذيب معنى الحياة.. جاء في سنن ابن ماجه حديث (٢١٨) بسند صحيح أَنَّ نَافِعَ بْنَ عَبْدِ

106من تفسير ابن كثير ٥\٢٠٣ دار طيبة ١٩٩٩.بتصرف.

107.صحيح البخارى كتاب الرقاق، باب فضل الفقر رقم٦٤٤٧

الْحَارِثِ، لَقِيَ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ بِعُسْفَانَ (اسم مكان)، وَكَانَ عُمَرُ، اسْتَعْمَلَهُ (أى جعله أميراً) عَلَى مَكَّةَ، فَقَالَ عُمَرُ: مَنِ اسْتَخْلَفْتَ عَلَى أَهْلِ الْوَادِي؟ قَالَ: اسْتَخْلَفْتُ عَلَيْهِمْ ابْنَ أَبْزَى، قَالَ: وَمَنِ ابْنُ أَبْزَى؟ قَالَ: رَجُلٌ مِنْ مَوَالِينَا، قَالَ عُمَرُ، فَاسْتَخْلَفْتَ عَلَيْهِمْ مَوْلًى، قَالَ: إِنَّهُ قَارِئٌ لِكِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى، عَالِمٌ بِالْفَرَائِضِ، قَاضٍ، قَالَ عُمَرُ، أَمَا إِنَّ نَبِيَّكُمْ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ يَرْفَعُ بِهَذَا الْكِتَابِ أَقْوَامًا، وَيَضَعُ بِهِ آخَرِينَ».. ألا ترى ؟! هذا هو الميزان الأرقى للرجال في الإسلام... ولذلك تزن إحدى ساقيْ عبد الله بن مسعود – الصحابي الجليل – مثل جبل أحد؛ فكيف يكون وزن الرجل كله ؟!.. بينما يمر العظيم في قومه (بتجبره، وماله، ونسبه وغيرها من مقاييس الناس الفاسدة... إن نقصه الانصياع لمعاني الإيمان الرفيعة التي تهذب كل معنى)–يمر فلا يزن عند الله تعالى جناح بعوضة.. لأن معنى الحياة لم يتغير بوجوده سوى إلى المجون، وعبادة الشهوة، والانحطاط.. أما أصحاب الموازين الثقيلة فهم أصحاب الفضل في نشر النور، والحق، والخير.. وأصحاب الفضل في الحياة مُكرَّمةً، وشريفةً.. ولكننا دائما ننظر نظرَ كليلِ البصر، وننكر معاني البصيرة، فيجئ القرآن ليرد الحق إلى نصابه.. ويجعلنا نفكر في الموازين الحقيقية لأنفسنا في الحياة... ؟!

(عن ابن مسعود أنه كان يجتني سواكا من الأراك، وكان دقيق الساقين، فجعلت الريح تكفؤه، فضحك القوم منه، فقال رسول الله (ص) مم تضحكون قالوا: من دقة ساقيه، فقال: "والذي نفسي بيده لهما أثقل في الميزان من جبل أحد "[١٠٨]..

ولكن أى شئ ثقّل موازين مثل هؤلاء الرجال ليسجل لهم التاريخ مثل هذه المكانة ؟!..

جاء في طبقات الشعراني: (كان صاحب سر رسول الله صلى الله عليه وسلم، ووساده، وسواكه، ونعليه، وطهوره في السفر.. وكان يشبه بالنبي صلى الله عليه وسلم في هديه وسمته.. وكان رضي الله عنه من أجود الناس ثوباً، ومن أطيب الناس ريحاً تعظيماً لنعل رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا حمله. وكان هو الذي يلبس رسول الله صلى الله عليه وسلم نعليه، ويمشي أمامه بالعصا حتى يدخل

١٠٢أخرجه الطيالسي عن حماد عن عاصم عن زر بن حبيش عن ابن مسعود، وإسناده حسن(حسنه الألبانى في غاية المرام ١\ ٢٣٨، ط. المكتب الاسلامى / بيروت)

أمامه الحجرة، فإذا أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم مجلسه نزع نعليه فأدخلهما في ذراعيه وأعطاه العصا...

وكان صلى الله عليه وسلم يستمع لقراءته في الليل ويقول: " من سره أن يقرأ القرآن رطباً كما أنزل فليقرأه على قراءة عبد الله بن مسعود ".

وكان رضي الله عنه قليل الصوم، كثير الصلاة، فقيل له في ذلك فقال إني إذا صمت ضعفت عن الصلاة، والصلاة عندي أهم.

وسمع رجلا يقول: اللهم إني أحب أن أكون من المقربين، ولا أحب أن أكون من أصحاب اليمين، فقال ابن مسعود رضي الله عنه: (هاهنا رجل يود أنه إذا مات لا يبعث؛ يعني نفسه).

وكان رضي الله عنه يبكي، ويلاقي دموعه بكفيه، ثم يقول بدموعه هكذا يرش بها الأرض. وخرج مرة معه ناس يشيعونه فقال لهم: ألكم حاجة فقالوا لا فقال: (ارجعوا فإنه ذلة للتابع وفتنة للمتبوع).

وكان يقول: (لو تعلمون مني ما أعلمه من نفسي لحثيتم على رأس التراب). وكان يقول: (حبذا المكروهان الموت والفقر).

وكان رضي الله عنه يقول: (ما أصبحت قط على حالة فتمنيت أن أكون على سواها (رضا بقضاء الله تعالى وقدره).

وكان يقول: (إن الرجل ليدخل على السلطان ومعه دينه، فيخرج ولا دين معه، لأنه تعرض أن يعصي الله تعالى إما بفعله، وإما بسكوته، وإما باعتقاده).

وكان يقول: (لو أن رجلا قام بين الركن والمقام يعبد الله تعالى سبعين سنة، وهو يحب ظالماً لبعثه الله تعالى يوم القيامة مع من يحب).

ولما مرض رضي الله عنه عاده عثمان بن عفان رضي الله عنه فقال له: ما تشتكي ؟ قال: ذنوبي. قال عثمان فما تشتهي؟ قال: رحمة ربي.

قال له ألا آمر لك بطبيب؟ قال: الطبيب أمرضني.

قال ألا آمر لك بعطاء؟ قال: لا حاجة لي فيه. قال: يكون لبناتك؟ قال: أتخشى على بناتي الفقر وقد أمرتهن أن يقرأن كل ليلة سورة الواقعة؛ إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: " من قرأ الواقعة في كل ليلة لم تصبه فاقة أبداً ".

وكان من دعائه: (اللهم إني أسألك إيماناً لا يرتد ونعيماً لا ينفد، وقرة عين لا تنقطع، ومرافقة نبيك صلى الله عليه وسلم في أعلى جنان الخلد).

وكان رضي الله عنه يقول: (ليس العلم بكثرة الرواية إنما العلم بالخشية).

وكان رضي الله عنه يقول: (ويل لمن لا يعلم ولو شاء الله لعلمه، وويل لمن يعلم ثم لا يعمل سبع مرات).

وكان يقول: (ذهب صفو الدنيا وبقي كدرها، والموت اليوم تحفة لكل مسلم).

وكان يقول: (لا يبلغ عبد حقيقة الإيمان حتى يحل بذروته، ولا يحل بذروته حتى يكون الفقر أحب إليه من الغنى، والذل أحب إليه من العز، وحتى يكون حامده وذامه عنده سواء).. وفسر هذه الجملة أصحابه فقالوا: حتى يكون الفقر في الحلال أحب إليه من الغنى في الحرام، والتواضع في طاعة الله أحب إليه من الشرف في معصية الله، وحتى يكون حامده وذامه عنده في الحق سواء لا يميل إلى من يحمده أكثر ممن يذمه.

وكان يقول: (لأن بعض أحدكم على جمرة حتى تطفأ خير له من أن يقول لأمر قضاه الله ليت هذا لم يكن).

وكان يقول: لأصحابه: (أنتم أطول صلاة وأكثر اجتهاداً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهم كانوا أزهد منكم في الدنيا وأرغب منكم في الآخرة).

وكان يقول: (إن الرجل لا يكون غائباً عن المنكر في بيوت الولاة، ويكون عليه مثل وزر من حضر، وذلك لأنه يبلغه فيرضى به ويسكت عليه)، والله أعلم.)١٠٩

هؤلاء هم السادات بحق.. وهؤلاء هم الأثقل وزنا في موازين الرجال.. إن الإيمان لينضح من بين جنباتهم، ويسيل عملاً يعلم الكون كله معنى الرجولة، وبراعة الأبطال... إن رجلا تربى في بيت النبوة – حتى يقول قائل الصحابة رضى الله عنهم (إنا كنا لنظن عبد الله بن مسعود من آل بيت رسول الله؛ لما كانوا يرون رسول الله صلى الله عليه وسلم يدخل فيدخل معه، ويخرج فيخرج معه؛ويُؤذن له ما لم يُؤذن لأحد)– رجل كهذا لابد أنه رضع الإيمان نقياً غضاً طرياً، فانسابت الحكمة من بين فكيه بلا أية عثرات... ولكم أقول يا من تهوون حكم (بوذا) و(لاوتسى لو) و(زِن)؛ لكم في عظماء الإسلام، ومن رضعوا من معين الحكمة البشرية الأعظم– صلى الله عليه وسلم–القدوة والسبيل..!

واعلم أن بقدر ارتباطك برسول الله وقربك منه تزدد قربا من الله، فهذا ابن مسعود صاحب نعله صلى الله عليه وسلم.. ذرات تراب نعليه – أى ابن سعود – تساوى ألوفا من السفهاء الذين ملئوا الساحات بضجيجهم، ولا وزن لهم... روى البخاري بسنده رقم (٣٧٦٢) قَالَ: سَأَلْنَا حُذَيْفَةَ عَنْ رَجُلٍ قَرِيبِ السَّمْتِ وَالهَدْيِ مِنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى نَأْخُذَ عَنْهُ، فَقَالَ: «مَا أَعْرِفُ أَحَدًا أَقْرَبَ سَمْتًا وَهَدْيًا وَدَلًّا بِالنَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ ابْنِ أُمِّ عَبْدٍ» يقصد عبد الله بن مسعود رضى الله عنه...

قال ابن سعد في الطبقات: (أَخْبَرَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَيْرٍ قَالَ: أَخْبَرَنَا الأَعْمَشُ عَنْ حَبَّةَ بْنِ جُوَيْنٍ قَالَ: كُنَّا عِنْدَ عَلِيٍّ فَذَكَرْنَا بَعْضَ قَوْلِ عَبْدِ اللَّهِ وَأَثْنَى الْقَوْمُ عَلَيْهِ فَقَالُوا: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مَا رأينا رجلا أَحْسَنَ خُلُقًا، وَلا أَرْفَقَ تَعْلِيمًا، وَلا أَحْسَنَ مُجَالَسَةً، وَلا أَشَدَّ وَرَعًا مِنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ. فَقَالَ عَلِيٌّ رضى الله عنه: نَشَدْتُكُمُ اللَّهَ. إِنَّهُ لَصِدْقٌ مِنْ قُلُوبِكُمْ؟ قَالُوا: نَعَمْ. فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي أُشْهِدُكَ. اللَّهُمَّ إِنِّي أَقُولُ فِيهِ مِثْلَ مَا قَالُوا أَوْ أفضل.. قرأ الْقُرْآنَ فَأَحَلَّ حَلالَهُ، وَحَرَّمَ حَرَامَهُ. فَقِيهٌ فِي الدِّينِ. عَالِمٌ بِالسُّنَّةِ. أ. هـ. ١١٠

---

[109] طبقات الشعراني الكبرى ١\ ٢٠ مكتبة المليجى مصر

[110] الطبقات الكبرى لابن سعد ٣\ ١١٦العلميةبيروت

ولنفهم معنى الرجولة في هذا الجيل الفريد الذي حمل النور رسالةً ينشرها في دنيا الظلم، وخفافيش الظلام مهما كانت العواقب.. لنفهم أنهم عرفوا الرجولة التزاما، وموقفا تجاه الحياة نفسها؛ فإما إعلاء شأنها وقيمتها بالدفاع عن النور والحق، وإما لا رجولة على الإطلاق..

ولنفهم كل هذه المعاني وأكثر مما يتبدى للروح والعقل المتأمل.. ولندرك أننا امتلأنا بالمخنثين فانهزمنا.. لأجل كل هذا أسوق لك ما رواه ابن اسحاق العلامة في السيرة بسند حسن صرح فيه بالسماع يقول: (حدثني يحيى بن عروة بن الزبير بن العوام عن أبيه قال: كان أول من جهر بالقرآن بمكة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله بن مسعود، اجتمع يوماً أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: والله ما سمعت قريش هذا القرآن يُجهَر لها به قط، فمَن رجلٌ يسمعهم؟ فقال عبد الله بن مسعود: أنا (!!!!)

قالوا: إنا نخشاهم عليك.. إنما نريد رجلاً له عشيرة تمنعه من القوم إن آذوه، فقال: دعوني فإن الله عز وجل سيمنعني، فغدا عبد الله حتى أتى المقام في الضحى؛ وقريش في أنديتها حتى قام عند المقام فقال رافعاً صوته: بسم الله الرحمن الرحيم «الرَّحْمنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ » فاستقبلها فقرأها، فتأملوا، فجعلوا يقولون: ما يقول ابن أم عبد؟!

ثم قالوا: إنه يتلو بعض ما جاء به محمد- صلى الله عليه وسلم- فقاموا فجعلوا يضربون في وجهه، وجعل يقرأ حتى بلغ منها ما شاء الله أن يبلغ، ثم انصرف إلى أصحابه وقد أثروا بوجهه، فقالوا: هذا الذي خشينا عليك، فقال: ما كان أعداء الله قط أهون علي منهم الآن، ولئن شئتم لأغادينهم بمثلها غدا، قالوا: حسبك قد أسمعتهم ما يكرهون. حدثنا يونس عن عبد الرحمن بن عبد الله عن المطعم قال: كان أول من أفشى القرآن بمكة وعُذِّبَ في رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.)[111] ا. هـ.

هكذا يهُبُّ رجلٌ ضعيفُ البنية.. قليل المال.. ليس له من الأهل من يمنعه من بطش أهل الغى والضلال.. يجهر بالقرآن.. يعلن اعتزازه بدينه الحق وبكتابه النور، ويعلن للدنيا كلها أنه على نهج محمد صلى الله عليه وسلم، وفى مدرسته.. يضربونه.. وأى شئ الضرب في جسد هو المنتشي بحلاوة

---

[111].من السيرة لابن اسحق ١\١٨٦ دار الفكر بيروت

تلاوته لكلام الله سبحانه، وصوته الصادح بالحق.. وكأن الدرس إلى يوم القيامة في هذا المشهد البطولي المدهش.. هؤلاء أهل الضلال والباطل يضربون أهل الحق، ولا يزالون.. في كل مكان، وفى كل وقت؛ ولكن كلمة الحق ما زالت ترتفع في السماء مجلجلةً.. وما زال أهلها يقولون (ما كان أعداء الله قط أهون عليَّ منهم الآن!)...

هكذا توزن الرجال.. فأين رجال الإسلام اليوم، وما وزنهم ؟!

أخرج البخاري[١١٢] من طريق عبد الله بن يزيد المقري، عن حيوة، عن أبي صخر، عن زيد بن أسلم، عن أبيه، (أن عمر بن الخطاب، قال لأصحابه: تمنوا.

فقال أحدهم: أتمنى أن يكون ملء هذا البيت دراهم فأنفقها في سبيل الله.

فقال: تمنوا، فقال آخر: أتمنى أن يكون ملء هذا البيت ذهبا فأنفقه في سبيل الله.

قال: تمنوا. قال آخر: أتمنى أن يكون ملء هذا البيت جوهرا أو نحوه، فأنفقه في سبيل الله.

فقال عمر: تمنوا. فقالوا: ما تمنينا بعد هذا.

قال عمر: لكني أتمنى أن يكون ملء هذا البيت رجالا مثل أبي عبيدة بن الجراح، ومعاذ بن جبل، وحذيفة بن اليمان، فأستعملهم في طاعة الله.) ا. هـ.

إن رجالاً كهؤلاء يقف على أكتافهم التاريخ شامخاً.. يحمل راية (لا إله إلا الله).. لا عبودية تنبغي، ولا رِق، ولا عمل لغير الله سبحانه.. هؤلاء الذين يقولون: (إن الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضِيق الدنيا إلى سعَتَها، ومن جَوْر الأديان إلى عدل الإسلام)..

لقد كان فيهم الرجل بألف اقرأ معي إن شئت...

---

٩٠ في " تاريخه الصغير " ١ / ٥٤ وقال ورجاله ثقات.غير أبي صخر، وهو حميد بن زياد الخراط فإنه مقبول الحديث حيث يتابع.

إنهم السادة الذين تثقل موازينهم في الدنيا والآخرة.. فأين مَن يدَّعون الرجولة اليوم... ؟!!!

أخرج ابن سعد عن الشَّعْبي قال: دخل خبَّاب بن الأرتْ رضي الله عنه على عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فأجلسه على متكئه وقال: ما على الأرض أحد أحق بهذا المجلس من هذا إلا رجل واحد. قال له خباب: من هو يا أمير المؤمنين؟ قال: بلال. فقال خباب: ما هو بأحق مني، إنَّ بلالاً كان له في المشركين من يمنعه الله به، ولم يكن لي أحد يمنعني، فلقد رأيتني يوما أخذوني فأوقدوا لي ناراً ثم سلقوني فيها، ثم وضع رجلٌ رجله لعى صدري فما اتقيت الأرض – أو قال: برد الأرض – إلا بظهري؛ قال: ثم كشف عن ظهره فإذا هو قد برص. كذا كنز العمال.

وعند أبي نُعيم في الحلية عن الشَّعْبي قال: سأل عمر رضي الله عنه بلالاً عما لقي من المشركين؟ فقال: خباب: يا أمير المؤمنين، أنظر إلى ظهري، فقال عمر: ما رأيت كاليوم. قال: أوقدوا لي ناراً فما أطفأها إلا وَدَكُ ظهري وعنده أيضاً، وابن سعد، وابن أبي شَيْبة كما في كنز العمال عن أبي ليلى الكندي قال: جاء خبَّاب بن الأرت إلى عمر – رضي الله عنهما – فقال: أدنُه، فلما أحد أحق بهذا المجلس منك إلا عمار بن ياسر؛ فجعل خباب يريه آثاراً في ظهره ممَّا عذّبه المشركون.

وأخرج أحمد عن خبَّاب رضي الله عنه قال: كنت رجلاً قَيْناً وكان لي على العاص بن وائل دَيْن، فأتيته أتقاضاه. فقال: لا والله لا أقضيك حتى تكفرَ بمحمد. فقلت: لا والله لا أكفر بمحمد حتى تموتَ ثم تُبعث. قال: فإني إذا مت ثم بُعثت جئتني ولي ثَمَّ مال وولد فأعطيك. فأنزل الله تعالى: {أَفَرَأَيْتَ الَّذِى كَفَرَ بِئَايَاتِنَا وَقَالَ لاَوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَداً أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرحمن عَهْداً كَلاَّ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدّاً وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْداً} (مريم: ٧٧ – ٨٠) – كذا في البداية. وأخرجه ابن سعد عن خباب بنحوه.

أبو بكر الصديق.. الرجل الثاني في الإسلام.. رجلٌ أعلن إيمانه...

وفي الحديث عن موازين الرجال يطالعنا فحل من فحول الإسلام، ورجل هو الأثقل ميزانا بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم.. ولنتوقف قليلا أمام رجل قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه { كما روى البخارى رحمه الله تعالى في صحيحه برقم ٣٦٥٦ – بسنده – عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنْ أُمَّتِي خَلِيلًا، لاَتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ، وَلَكِنْ أَخِي وَصَاحِبِي»[١١٣].

١٠٧جاء في كتاب (اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان) لمحمد فؤاد عبد الباقي رحمه الله تعالى (كتاب فضائل الصحابة؛ في باب من فضائل أبي بكر رضى الله عنه) تحت الأرقام (١٥٣٩ – حديث أَبِي بَكْرٍ رضي الله عنه، قَالَ: قُلْتُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأَنَا فِي الْغَارِ، لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ نَظَرَ تَحْتَ قَدَمَيْهِ لأَبْصَرَنَا فَقَالَ: مَا ظَنُّكَ، يَا أَبَا بَكْرٍ بِاثْنَيْنِ اللهُ ثَالِثُهُمَا. ١٥٤٠ – حديث أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، جَلَسَ عَلَى الْمِنْبَرِ، فَقَالَ: إِنَّ عَبْدًا خَيَّرَهُ اللهُ بَيْنَ أَنْ يُؤْتِيَهُ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنْيَا مَا شَاءَ، وَبَيْنَ مَا عِنْدَهُ، فَاخْتَارَ مَا عِنْدَهُ فَبَكَى أَبُو بَكْرٍ، وَقَالَ: فَدَيْنَاكَ بِآبَائِنَا وَأُمَّهَاتِنَا فَعَجِبْنَا لَهُ وَقَالَ النَّاسُ: انْظُرُوا إِلَى هذَا الشَّيْخِ، يُخْبِرُ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عَنْ عَبْدٍ خَيَّرَهُ اللهُ بَيْنَ أَنْ يُؤْتِيَهُ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنْيَا وَبَيْنَ مَا عِنْدَهُ، وَهُوَ يَقُولُ: فَدَيْنَاكَ بِآبَائِنَا وَأُمَّهَاتِنَا فَكَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هُوَ الْمُخَيَّرَ، وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ هُوَ أَعْلَمَنَا بِه. وَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّ مِنْ أَمَنِّ النَّاسِ عَلَيَّ فِي صُحْبَتِهِ وَمَالِهِ أَبَا بَكْرٍ، وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيلاً مِنْ أُمَّتِي لاَتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ، إِلاَّ خُلَّةَ الإِسْلاَمِ [ص:١٢٤] لا يَبْقَيَنَّ فِي الْمَسْجِد خَوْخَةٌ إِلاَّ خَوْخَةُ أَبِي بَكْرٍ .١٥٤١ – حديث عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رضي الله عنه، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بَعَثَهُ عَلَى جَيْشِ ذَاتِ السَّلاَسِلِ فَأَتَيْتُهُ فَقُلْتُ: أَيُّ النَّاسِ أَحَبُّ إِلَيْكَ قَالَ: عَائِشَةُ فَقُلْتُ: مِنَ الرِّجَالِ قَالَ: أَبُوهَا، قُلْتُ: ثُمَّ مَنْ قَالَ: ثُمَّ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ فَعَدَّ رِجَالاً. ١٥٤٢ – حديث جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ، قَالَ: أَتَتِ امْرَأَةٌ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَمَرَهَا أَنْ تَرْجِع إِلَيْهِ قَالَتْ: أَرَأَيْتَ إِنْ جِئْتُ وَلَمْ أَجِدْكَ كَأَنَّهَا تَقولُ: الْمَوْتَ قَالَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ: إِنْ لَمْ تَجِدِينِي فَأْتِي أَبَا بَكْرٍ. ١٥٤٣ – حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، قَالَ: صَلَّى رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، صَلاَةَ الصُّبْحِ [ص:١٢٥] ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ، فَقَالَ: بَيْنَا رَجُلٌ يَسُوقُ بَقَرَةً إِذْ رَكِبَهَا فَضَرَبَهَا فَقَالَتْ: إِنَّا لَمْ نُخْلَقْ لِهذَا؛ إِنَّمَا خُلِقْنَا لِلْحَرْثِ فَقَالَ النَّاسُ: سُبْحَانَ اللهِ بَقَرَةٌ تَكَلَّمُ فَقَالَ: فَإِنِّي أُومِنُ بِهذَا، أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ وَمَا هُمَا ثَمَّ وَبَيْنَمَا رَجُلٌ فِي غَنَمِهِ إِذْ عَدَا الذِّئْبُ فَذَهَبَ مِنْهَا بِشَاةٍ، فَطَلَبَ حَتَّى كَأَنَّهُ اسْتَنْقَذَهَا مِنْهُ، فَقَالَ لَهُ الذِّئْبُ: هذَا، اسْتَنْقَذْتَهَا مِنِّي، فَمَنْ لَهَا يَوْمَ السَّبُعِ، يَوْمَ لاَ رَاعِيَ لَهَا غَيْرِي فَقَالَ النَّاسُ: سُبْحَانَ اللهِ ذِئْبٌ يَتَكَلَّمُ قَالَ: فَإِنِّي أُومِنُ بِهذَا أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ وَمَا هُمَا ثَمَّ (أى هناك).

قلت: هذه كلها أحاديث في قمم الصحيح – وهى غيض من فيض– تبين وزن هذا العملاق والرجل الأول في مدرسة رسول الله صلى الله عليه وسلم لمن أراد أن يراجع سير أوائل المتفوقين في هذه المدرسة الجليلة.

قال مصعب بن الزبير وغيره: وأجمعت الأمة على تسميته بالصديق؛ لأنه بادر إلى تصديق رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ولازم الصدق، فلم تقع منه هناة، ما، ولا وقفة في حال من الأحوال، وكانت له في الإسلام المواقف الرفيعة؛ منها قصته ليلة الإسراء، وثباته، وجوابه للكفار في ذلك، وهجرته مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وترك عياله وأطفاله، وملازمته في الغار وسائر الطريق، ثم كلامه يوم بدر ويوم الحديبية حين اشتبه على غيره الأمر في تأخر دخول مكة، ثم بكاؤه حين قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن عبدًا خيره الله بين الدنيا والآخرة فاختار الآخرة"، ثم ثباته يوم وفاة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وخطبته الناس وتسكينهم، ثم قيامه في قضية البيعة لمصلحة المسلمين، ثم اهتمامه وثباته في بعث جيش أسامة بن زيد إلى الشام وتصميمه في ذلك، ثم قيامه في قتال أهل الردة ومناظرته للصحابة حتى حجهم بالدلائل، وشرح الله صدورهم لما شرح له صدره من الحق -وهو قتال أهل الردة- ثم تجهيزه الجيوش إلى الشام لفتوح وإمدادهم بالأمداد، ثم ختم ذلك بمهمّ من أحسن مناقبه وأجل فضائله، وهو استخلافه على المسلمين عمر -رضي الله عنه- وتفرسه فيه، ووصيته له، واستيداعه الله الأمة، فخلفه الله -عز وجل- فيهم أحسن الخلافة، وظهر لعمر الذي هو حسنة من حسناته وواحدة من فعلاته تمهيد الإسلام، وإعزاز الدين، وتصديق وعد الله تعالى بأنه يظهره على الدين كله، وكم للصديق من مناقب ومواقف وفضائل لا تحصى؟ هذا كلام النووي [١١٤]. أقول هذه بانوراما خاطفة لبعض بطولات الرجل؛ وإلا ففضائله وبطولاته لا تكفيها المجلدات الضخام — رغم أنف كل حاقد – خرج أبو داود والترمذي، عن عمر بن الخطاب، قال: أمرنا رسول الله -عليه الصلاة والسلام- أن نتصدق فوافق ذلك مالاً عندي، قلت: اليوم أسبق أبا بكر -إن سبقته يومًا- فجئت بنصف مالي، فقال رسو الله عليه الصلاة والسلام: "ما أبقيت لأهلك؟ " قلت: مثله، وأتى أبو بكر بكل ما عنده، فقال: "يا أبا بكر، ما أبقيت لأهلك؟ " قال: أبقيت لهم الله ورسوله، فقلت: لا أسبقه في شيء أبدًا. قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.. قلت: هكذا كان الرجل سابقاً دائماً إلى الإيمان والخير.. لا يفوته أبداً أن يكون الأول في مدرسة البطولة الإسلامية الخاصة للرجال.. أخرج الترمذي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله عليه الصلاة والسلام: "ما لأحد عندنا يد إلا وقد كافأناه إلا أبا بكر، فإن له عندنا يد يكافئه الله بها يوم القيامة، وما نفعني مال أحد قط ما نفعني مال أبي بكر".. أى شهادة أعظم ؟! ولقد شهد له ربه من قبل بالمعية الإلهية الخاصة ومحمداً صلى الله عليه

---

[114] تاريخ الخلفاء للسيوطي ٢٦/١ ط. مكتبة نزار/ مصطفى الباز ٢٠٠٤.

وسلم في ادق وأحرج وأعلى مواقف الدعوة في الهجرة المباركة.. وإن قلت أن مكانة أبي بكر في قلب رسول الله لا تدانيها مكانةٌ ما بالغتُ، كيف لا وقد سأل صلى الله عليه وسلم عن أحب الناس إليه فأجاب بلا تردد أنه أبو بكر.. والجزاء من جنس العمل فالرجل لم يتردد في قبول الإسلام طرفة عين.. قال ابن إسحاق: حدثني محمد بن عبد الرحمن بن عبد الله بن الحصين التميمي أن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– قال: "ما دعوت أحدًا إلى الإسلام إلا كانت له عنه كبوة وتردد ونظر، إلا أبا بكر، ما عتم عنه حين ذكرته، وما تردد فيه" عتم: أي لبثَ. قال البيهقي: وهذا لأنه كان يرى دلائل نبوة رسول الله –صلى الله عليه وسلم– ويسمع آثاره قبل دعوته، فحين دعاه كان قد سبقه له فيه تفكر ونظر، فأسلم في الحال؛ ثم أخرج عن أبي ميسرة أن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– كان إذا برز سمع من يناديه: يا محمد، فإذا سمع الصوت وَلَّى هاربًا، فأسر ذلك إلى أبي بكر، وكان صديقًا له في الجاهلية[١١٥]. قال العلماء: صحب أبو بكر النبي –عليه الصلاة والسلام– من حين أسلم إلى حين توفي، لم يفارِقه سفرًا ولا حضرًا، إلا فيما أذن له عليه الصلاة والسلام في الخروج فيه من حج وغزو، وشهد معه المشاهد كلها، وهاجر معه، وترك عياله وأولاده رغبة في الله ورسوله –صلى الله عليه وسلم– وهو رفيقه في الغار، قال تعالى: {ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا} (التوبة: ٤٠) وقام بنصر رسول الله –صلى الله عليه وسلم– في غير موضع، وله الآثار الجميلة في المشاهد، وثبت يوم أحد ويوم حنين، وقد فرّ الناس [١١٦].

إن الدرس الأول في حياة الصديق رضى الله عنه هو قوة الإيمان التي تصنع من البشر رجالاً، ثم تزرع في الرجال أبطالاً، وفي مثل أبي بكرٍ ترتقي بالرجولة إلى أعلى رتب الجندية لله التي توازي الملائكية بل تباهى بها الملائكة. أخرج ابن عساكر عن أبي هريرة قال: تباشرت الملائكة يوم بدر، فقالوا: أما ترون الصديق مع رسول الله –صلى الله عليه وسلم– في العريش؟. وأخرج أبو يعلى، والحاكم، وأحمد، عن علي قال: قال لي رسول الله –صلى الله عليه وسلم– يوم بدر ولأبي بكر: "مع أحدكما جبريل، ومع

---

[115] أورده ابن كثير في البداية والنهاية "٣/٢٧".نقلا عن تاريخ الخلفاء للسيوطى ٣٢/١.

[116] المرجع السابق ٣٢/١.

الآخر ميكائيل وَإِسْرَافِيلُ مَلَكٌ عَظِيمٌ يَشْهَدُ الْقِتَالَ – أَوْ قَالَ: يَشْهَدُ الصَّفَّ " [١١٧]. وأقول إن رجلا كأبي بكر ارتقى بالإيمان في نفسه من أول لحظة آمن فيها ليضع نفسه وماله وكل ما يمتلك من ملكاتٍ وصفاتٍ تحت تصرف الرسول صلى الله عليه وسلم في خدمة هذا الدين، وهذا المعنى خاصةً هو ما يرتقي من مجرد الرجولة – على عظم مكانتها – إلى أثر الرجولة في صنع الرجال.. ليصير أبو بكر– الرجل الثاني في الإسلام — نموذجا حيا للتدريب على صناعة الرجولة في مدرسة محمد صلى الله عليه وسلم..

(فأبو بكر صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو حسنة من حسناته عليه الصلاة والسلام، لم يكن إسلامه إسلام رجل، بل كان إسلامه إسلام أمة، فهو في قريش كما ذكر ابن إسحاق في موقع العين منها:

– كان رجلا مألفًا لقومه محببًا سهلاً.

– وكان أنسب قريش لقريش، وأعلم قريش بها، وبما كان فيها من خير وشر.

– وكان رجلاً تاجرًا.

– ذا خلق ومعروف.

– وكان رجال قومه يأتونه ويألفونه لغير واحد من الأمر، لعلمه وتجارته، وحسن مجالسته.

لقد كان أبو بكر كنزًا من الكنوز، ادخره الله تعالى لنبيه، وكان من أحب قريش لقريش، فذلك الخلق السمح الذي وهبه الله تعالى إياه، جعله من الموطئين أكنافا، من الذين يألفون ويؤلفون، والخلق السمح وحده عنصر كافٍ لألفة القوم، وهو الذي قال فيه عليه الصلاة والسلام: «أرحم أمتي بأمتي أبو بكر» وعلم الأنساب عند العرب، وعلم التاريخ هما أهم العلوم عندهم، ولدى أبي بكر الصديق – رضي الله عنه – النصيب الأوفر منهما، وقريش تعترف للصديق بأنه أعلمها بأنسابها، وأعلمها

١١١أخرجه أبو يعلى في مسنده "١/٣٤٠"، وأحمد في المسند "١/١١٧" بنحوه، والحاكم في المستدرك "٣/٦٨". وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي، قال محققي المسند ط. الرسالة إسناده صحيح على شرط مسلم. نقلا عن المرجع نفسه ٣٢/١.

بتاريخها، وما فيه من خير وشر، فالطبقة المثقفة ترتاد مجلس أبي بكر لتنهل منه علمًا لا تجده عند غيره غزارة ووفرة وسعة، ومن أجل هذا كان الشباب النابهون، والفتيان الأذكياء يرتادون مجلسه دائمًا، إنهم الصفوة الفكرية المثقفة التي تود أن تلقى عنده هذه العلوم، وهذا جانب آخر من جوانب عظمته، وطبقة رجال الأعمال، ورجال المال في مكة، هي كذلك من رواد مجلس الصديق، فهو إن لم يكن التاجر الأول في مكة، فهو من أشهر تجارها، فأرباب المصالح هم كذلك قصاده، ولطيبته وحسن خلقه تلقى عوام الناس يرتادون بيته، فهو المضياف الدمث الخلق، الذي يفرح بضيوفه، ويأنس بهم، فكل طبقات المجتمع المكي تجد حظها عند الصديق رضوان الله عليه.. كان رصيده الأدبي والعلمي والاجتماعي في المجتمع المكي عظيما، ولذلك عندما تحرك في دعوته للإسلام استجاب له صفوة من خيرة الخلق وهم:

* عثمان بن عفان – رضي الله عنه – في الرابعة والثلاثين من عمره.

*عبد الرحمن بن عوف – رضي الله عنه – في الثلاثين من عمره.

* سعد بن أبي وقاص – رضي الله عنه – وكان في السابعة عشرة من عمره.

* والزبير بن العوام – رضي الله عنه – وكان في الثانية عشرة من عمره.

* وطلحة بن عبيد الله – رضي الله عنه – وكان في الثالثة عشرة من عمره.

كان هؤلاء الأبطال الخمسة أول ثمرة من ثمار الصديق أبي بكر – رضي الله عنه –، دعاهم إلى الإسلام فاستجابوا، وجاء بهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فرادى، فأسلموا بين يديه، فكانوا الدعامات الأولى التي قام عليها صرح الدعوة، وكانوا العدة الأولى في تقوية جانب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبهم أعزه الله وأيده، وتتابع الناس يدخلون في دين الله أفواجًا، رجالاً ونساءً، وكان كل من هؤلاء الطلائع داعية إلى الإسلام، وأقبل معهم رعيل السابقين، الواحد، والاثنين، والجماعة القليلة، فكانوا على قلة عددهم كتيبة الدعوة، وحصن الرسالة لم يسبقهم سابق ولا يلحق بهم لاحق في تاريخ الإسلام.

إن تحرك أبي بكر – رضي الله عنه – في الدعوة إلى الله تعالى يوضح صورة من صور الإيمان بهذا الدين والاستجابة لله ورسوله صلى الله عليه وسلم، صورة المؤمن الذي لا يقر له قرار، ولا يهدأ له بال، حتى يحقق في دنيا الناس ما آمن به، دون أن تكون انطلاقته دفعة عاطفية مؤقتة سرعان ما تخمد وتذبل وتزول، وقد بقي نشاط أبي بكر وحماسته إلى أن توفاه الله جل وعلا لم يفتر أو يضعف أو يمل أو يعجز.

ونلاحظ أن أصحاب الجاه لهم أثر كبير في كسب أنصار للدعوة، ولهذا كان أثر

أبي بكر – رضي الله عنه – في الإسلام أكثر من غيره. وبعد أن كانت صحبة الصديق لرسول الله، مبنية على مجرد الاستئناس النفسي والخلقي، صارت الأنسة بالإيمان بالله وحده، وبالمؤازرة في الشدائد، واتخذ رسول الله عليه الصلاة والسلام من مكانة أبي بكر، وأُنس الناس به ومكانته عندهم قوة لدعوة الحق، فوق ما كان له عليه الصلاة والسلام من قوة نفس، ومكانة عند الله وعند الناس) [١١٨].

هذا هو الصديق أبو بكر النموذج الأرقى للعمل الإيماني.. إنه الإيمان الذي ينزرع في أرض الإسلام أشجاراً عظيمةً تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها.. الإيمان بالقلب والقول والعمل.. الإيمان بالنفس والمال والولد.. أخرج ابن عساكر عن علي –رضي الله عنه– قال: لما أسلم أبو بكر أظهر إسلامه، ودعا إلى الله وإلى رسوله صلى الله عليه وسلم... قال الله تعالى: {وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى، الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى} (الليل: ١٨، ١٧) إلى آخر السورة. قال ابن الجوزي: أجمعوا على أنها نزلت في أبي بكر.

وأخرج أحمد عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما نفعني مال قط ما نفعني مال أبي بكر" فبكى أبو بكر، وقال: هل أنا ومالي إلا لك يا رسول الله؟.

قال ابن كثير: وروى أيضًا من حديث علي، وابن عباس، وأنس، وجابر بن عبد الله، وأبي سعيد الخدري، رضي الله عنهم، وأخرجه الخطيب عن سعيد بن المسيب مرسلاً، وزاد: وكان رسول الله – صلى الله عليه وآله وسلم– يقضي في مال أبي بكر كما يقضي في مال نفسه.

---

١١٢ نقلا عن كتاب السِّيرةُ النّبوية – عرضُ وقائع وَتحليل أحدَاث، للعلامة: عَلي محمد محمد الصَّلاَّبي، دار المعرفة، بيروت – لبنان، ط.السابعة، ١٤٢٩ هـ – ٢٠٠٨ م، ١/٩٠،٨٩.

وأخرج ابن عساكر من طرق عن عائشة –رضي الله عنها– وعروة بن الزبير: أن أبا بكر –رضي الله عنه– أسلم يوم أسلم وله أربعون ألف دينار –وفي لفظ: أربعون ألف درهم– فأنفقها على رسول الله صلى الله عليه وسلم.... ، كل ذلك ينفقه في الرِقاب والعون على الإسلام. وأخرج ابن عساكر عن عائشة –رضي الله عنها– أن أبا بكر أعتق سبعة كلهم يعذب في الله [١١٩].

أقول: ولو امتلأ عشرة أضعاف هذا الكتاب بمواقف أبي بكر في البطولة لكان قليل، ولكن المعنى الذي أصلناه هنا بين جلى — والحمد لله تعالى.. وهنا أدعو كل من يدعي الرجولة: (اظهر إسلامك، واعلن إيمانك، فإن سلفك هو أبو بكر!).. وليزداد المعنى وضوحا اقرأ معي ما خرجه البزار في مسنده برقم ٧٦١— بسنده – عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَقِيلٍ، قَالَ: خَطَبَنَا عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَقَالَ: أَيُّهَا النَّاسُ أَخْبِرُونِي بِأَشْجَعِ النَّاسِ؟ قَالُوا: – أَوْ قَالَ – قُلْنَا: أَنْتَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ. قَالَ: أَمَا إِنِّي مَا بَارَزْتُ أَحَدًا إِلَّا انْتَصَفْتُ مِنْهُ، وَلَكِنْ أَخْبِرُونِي بِأَشْجَعِ النَّاسِ قَالُوا: لَا نَعْلَمُ، فَمَنْ؟ قَالَ: أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّهُ لَمَّا كَانَ يَوْمُ بَدْرٍ جَعَلْنَا لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَرِيشًا فَقُلْنَا: مَنْ يَكُونُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَيْلًا؟ يَهْوِي إِلَيْهِ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَوَاللَّهِ، مَا دَنَا مِنْهُ إِلَّا أَبُو بَكْرٍ شَاهِرًا بِالسَّيْفِ عَلَى رَأْسِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لَا يَهْوِي إِلَيْهِ أَحَدٌ إِلَّا أَهْوَى عَلَيْهِ؛ فَهَذَا أَشْجَعُ النَّاسِ. فَقَالَ عَلِيٌّ: وَلَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأَخَذَتْهُ قُرَيْشٌ فَهَذَا يَجَبُؤُهُ وَهَذَا يُتَلْتِلُهُ، وَهُمْ يَقُولُونَ: أَنْتَ الَّذِي جَعَلْتَ الْآلِهَةَ إِلَهًا واحداً، قَالَ: فَوَاللَّهِ مَا دَنَا مِنْهُ أَحَدٌ إِلَّا أَبُو بَكْرٍ، يَضْرِبُ هَذَا وَيُجَبأ هَذَا وَيُتَلْتِلُ هَذَا، وَهُوَ يَقُولُ: وَيْلَكُمْ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ.. ثُمَّ رَفَعَ عَلِيٌّ (رضى الله عنه) بُرْدَةً كَانَتْ عَلَيْهِ فَبَكَى حَتَّى اخْضَلَّتْ لِحْيَتُهُ، ثُمَّ قَالَ: أُنْشِدُكُمْ بِاللَّهِ أَمُؤْمِنُ آلِ فِرْعَوْنَ خَيْرٌ أَمْ أَبُو بَكْرٍ، فَسَكَتَ الْقَوْمُ، فَقَالَ: أَلَا تُجِيبُونِي فَوَاللَّهِ لَسَاعَةٌ مِنْ أَبِي بَكْرٍ خَيْرٌ مِنْ مِلْءِ الأرض مِنْ مُؤْمِنِ آلِ فِرْعَوْنَ ذَاكَ رَجُلٌ كَتَمَ إِيمَانَهُ وَهَذَا رَجُلٌ أَعْلَنَ إِيمَانَهُ. [١٢٠]. وأخرجه البخاري عن

---

[119] نقلا عن تاريخ الخلفاء ٣٤/١ بتصرف يسير.

١٢٧قَالَ أَبُو بَكْرٍ البزار: وَهَذَا الْحَدِيثُ لَا نَعْلَمُهُ يُرْوَى عَنْ عَلِيٍّ، إِلَّا مِنْ هَذَا الْوَجْهِ بِهَذَا الْإِسْنَادِ. يجبأ: أي يخرج، يقال: جبأ عليه يجبأ إذا خرج، وفي حديث أسامة: "فلما رأونا جبئوا من أخبيتهم" أي: خرجوا.. و يتلتله: هو في الأصل: السوق بعنف، وفي حديث ابن مسعود رضي الله عنه: "أتى بشارب فقال: تلتلوه" وهو أن يحرك ويستنكه ليعلم هل شرب أم لا.اخضلّت لحيته: أي ابتلت بالدموع، يقال: خضل، واخضل إذا ندى. انظر: النهاية في غريب الحديث" ٢٣٣/١"قلت: له شاهد عند البخارى تقدم في المتن، وله شاهد عند البيهقى في الدلائل، و ما رواه النسائى في الكبرى (كتاب التفسير —

عروة بن الزبير قال: سألت عبد الله بن عمرو بن العاص عن أشد ما صنع المشركون برسول الله –عليه الصلاة والسلام– فقال: رأيت عقبة بن أبي معيط جاء إلى النبي –عليه الصلاة والسلام– وهو يصلي، فوضع رداءه في عنقه، فخنقه خنقًا شديدًا، فجاء أبو بكر حتى دفعه عنه، فقال: أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبيانات من ربكم؟[١٢١]

لا أدري! فالكلمات أحيانا كثيرة تقف عاجزةً تماماً أمام عظمة الموقف.. إن بطلاً من أبطال قصة التاريخ الاسلامي كعلى بن أبي طالب رضى الله عنه في شجاعته وعلمه وحكمته– وهو من هو – ربيب بيت النبوة، وأنجب خريجي مدرسته، وحينما يزن بطولة أبي بكر بميزانه الذي لا يكاد يخطأ.. فهى إذن كلمات حقٍ تخرج من فمٍ حكيمٍ عليمٍ بأوزان الرجال.. ولكن في الحقيقة إنما استلفت نظري في هذه الرواية فكرة إعلان الإيمان.. فلقد درجت على رؤية تعليقٍ عجيبٍ في كتب التراجم والتاريخ الاسلامى؛ ألا وهو قولهم في الرجل (أسلم وحسن إسلامه)؛ وكأن هناك من المسلمين من هو سيئ الإسلام، وهو حقيقةً غير المنافق الذي– عند التحقيق– هو ليس بمسلمٍ.. إذن فنحن أمام واجبٍ يحتمه انتماءك للإسلام.. لكى تصل إلى رتبةٍ يكون فيها انتماءك للإسلام – وكما هو ارتقاء لك، وشرف عظيم– على أقل تقدير ليس قادحا فيه.. فما بالنا بمن أدى من الإسلام الواجب الذي يجعل إسلامه حسناً.. فهل تساءلنا يوما: هل أحسنا الإسلام أم أسأنا إليه؟!.. إن التاريخ يذكر لنا أن انتشار الإسلام في أصقاع بعيدة لم يكن بجيش أو بسيف، وإنما كان بأخلاق الإسلام يظهرها تجار مسلمين حسني الإسلام... وهذا الدرس الأهم للرجولة الإسلامية القدوة التي –وكما تعلمت من

سورة غافر ١١٣٩٨)قال:أَخْبَرَنَا هَنَّادُ بْنُ السَّرِيِّ، حَدَّثَنَا عَبْدة عَنْ هِشَامٍ –يَعْنِي ابْنَ عُرْوَةَ–عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ أَنَّهُ سُئِل: مَا أَشَدُّ مَا رَأَيْتَ قُرَيْشًا بَلَغُوا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ قال: مَرَّ بِهِمْ ذَاتَ يَوْمٍ فَقَالُوا لَهُ: أَنْتَ تَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا؟ فَقَالَ: "أَنَا ذَاكَ" فَقَامُوا إِلَيْهِ، فَأَخَذُوا بِمَجَامِعِ ثِيَابِهِ، فرأيتُ أَبَا بَكْرٍ مُحْتَضِنُهُ مِنْ وَرَائِهِ، وَهُوَ يَصِيحُ بِأَعْلَى صَوْتِهِ، وَإِنَّ عَيْنَيْهِ لَيَسِيلَانِ، وَهُوَ يَقُولُ: يَا قَوْمِ، {أَتَقْتُلُونَ رَجُلا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ} حَتَّى فَرَغَ مِنَ الْآيَةِ كُلِّهَا. وَهَكَذَا رَوَاهُ النَّسَائِيُّ مِنْ حَدِيثِ عَبْدَةَ، فَجَعَلَهُ مِنْ مُسْنَدِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .وقد سكت عليه ابن حجر في تحقيقه على أحاديث الكشاف. قلت: وإسناد النسائى صحيح إن شاء الله، فهناد بن السرى وعبدة ثقات، وعروة وإن رمى بالتدليس فإنه لم يثبت وقد وثقه ابن سعد وأبو حاتم وغيرهم .

١٢٨ أخرجه البخاري "٧/٣٦٧٨"...ا.هـ.من تاريخ الخلفاء للسيوطي ١\٣٣.

محمد صلى الله عليه وسلم- تعلم الدنيا كلها بالقدوة الصالحة.. تلك القدوة تكون - أول ما تكون الحاكم في حياتها، ثم تسري في الأمم الأخرى الباحثة عن الخير والحق، وهو بالضبط معنى الآية الكريمة " وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٤آل عمران).. (إن قيام هذه الجماعة ضرورة من ضرورات المنهج الإلهي ذاته. فهذه الجماعة هي الوسط الذي يتنفس فيه هذا المنهج ويتحقق في صورته الواقعية. هو الوسط الخير المتكافل المتعاون على دعوة الخير. المعروف فيه هو الخير والفضيلة والحق والعدل. والمنكر فيه هو الشر والرذيلة والباطل والظلم.. عمل الخير فيه أيسر من عمل الشر. والفضيلة فيه أقل تكاليف من الرذيلة. والحق فيه أقوى من الباطل. والعدل فيه أنفع من الظلم.. فاعل الخير فيه يجد على الخير أعوانا. وصانع الشر فيه يجد مقاومة وخذلاناً.. ومن هنا قيمة هذا التجمع.. إنه البيئة التي ينمو فيها الخير والحق بلا كبير جهد، لأن كل ما حوله وكل من حوله يعاونه. والتي لا ينمو فيها الشر والباطل إلا بعسر ومشقة، لأن كل ما حوله يعارضه ويقاومه... هذا الوسط الخاص يعيش بالتصور الإسلامي ويعيش له فيحيا فيه هذا التصور، ويتنفس أنفاسه الطبيعية في طلاقة وحرية، وينمو نموه الذاتي بلا عوائق من داخله تؤخر هذا النمو أو تقاومه. وحين توجد هذه العوائق تقابلها الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وحين توجد القوة الغاشمة التي تصد عن سبيل الله تجد من يدافعها دون منهج الله في الحياة. هذا الوسط يتمثل في الجماعة المسلمة القائمة على ركيزتي الإيمان والأخوة. الإيمان بالله كي يتوحد تصورها للوجود والحياة والقيم والأعمال والأحداث والأشياء والأشخاص، وترجع إلى ميزان واحد تقوم به كل ما يعرض لها في الحياة، وتتحاكم إلى شريعة واحدة من عند الله، وتتجه بولائها كله إلى القيادة القائمة على تحقيق منهج الله في الأرض.. والأخوة في الله. كي يقوم كيانها على الحب والتكافل اللذين تختفي في ظلالهما مشاعر الأثرة، وتتضاعف بهما مشاعر الإيثار. الإيثار المنطلق في يسر، المندفع في حرارة، المطمئن الواثق المرتاح.

وهكذا قامت الجماعة المسلمة الأولى على هاتين الركيزتين.. على الإيمان بالله: ذلك الإيمان المنبثق من معرفة الله- سبحانه- وتَمَثُّلِ صفاته في الضمائر وتقواه ومراقبته، واليقظة والحساسية إلى حد غير معهود إلا في الندرة من الأحوال. وعلى الحب. الحب الفياض الرائق، والود. الود العذب الجميل، والتكافل)

[١٢٢]. وحين يصل المسلمون لإقامة المجتمع على هذه الصورة، وقبلها إقامة صورة المجتمع هذه في أنفسهم علما وعملا.. حينها – وفقط- يكونون قد أحسنوا إسلامهم.. وأعلنوا إيمانهم، ويكونون قد انخرطوا في ركب أبي بكرٍ وعمرٍ و عليٍ وهذه الزمرة الرائعة من صحب محمد صلى الله عليه وسلم وخريجي مدرسته العالية للرجولة.... ..

ولكن.. لم نجب من هو مؤمن آل فرعون، وهو مثل حى للرجولة ضربه القرآن العظيم ؟

---

[122]كتاب في ظلال القرآن لسيد قطب ١/٤٤٤-٤٤٥ ط. الشروق مصر.

مؤمن آل فرعون.. الرجولة وسْط[١٢٣] العواصف!

تبدأ القصة بتقرير حقيقة هي الأكثر ترددا في أحداث التاريخ البشرى كله.. حقيقة أن الله تعالى أرسل النور لأهل الأرض بآياته مع رسله وأنبياءه؛ ليخرج الناس من الظلم والظلمات.. من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد.. من ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة... ولكن كما جرت العادة وتجرى.. يكون هناك دائما مَن يتسيدون ويتصيدون في الظلام.. يتغذون على حيوات الناس وآمالهم.. يخدعوهم بوجوه براقة مستعارة.. وهى في الحقيقة وجوه الذئاب والخفافيش، وفي كل حال فالظلام يحميهم، وأى محاولة لنشر النور هي في الحقيقة كشف وإهلاك لهم، ولذلك فهم أحرص الناس على محاربة نور السماء.. ولكن مهما كانت صولة الباطل؛ فلابد من انهزامها، بيد عدالة السماء؛ والتى تدافع عن نورها بكل سبيل.. بالحكمة والموعظة الحسنة؛ فإن لم يجدِ فبالسيف والنار والهلاك للمفسدين.. يقول الله سبحانه " أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ (٢١) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢٢غافر)"... يقول تعالى ذكره: أو لم يسر هؤلاء المقيمون على شركهم بالله، المكذبون رسوله من قريش (ومن غيرهم إلى يوم القيامة)، في البلاد، (فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ) يقول: فيروا ما الذي كان خاتمة أمم الذين كانوا من قبلهم من الأمم الذين سلكوا سبيلهم، في الكفر بالله، وتكذيب رسله (كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً) يقول: كانت تلك الأمم الذين كانوا من قبلهم أشد منهم بطشا، وأبقى في الأرض آثارا، فلم تنفعهم شدة قواهم، وعظم أجسامهم، إذ جاءهم أمر الله، وأخذهم بما أجرموا من معاصيه، واكتسبوا من الآثام، ولكنه أباد جمعهم، وصارت مساكنهم خاوية منهم بما ظلموا (وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ) يقول: وما كان لهم من عذاب الله إذ جاءهم، من واقٍ يقيهم، فيدفعه عنهم. وهذا الذي فعل الله بهؤلاء الأمم الذين من قبل مشركي قريش من إهلاكهم

---

١٣٠ جاء فى القاموس الوسط بالتحريك من كل شئ أعدله يقول ربنا " وكذلك جعلناكم أمة وسطا " أى عدلا فى الأمم وأقومها، والوسط بالتسكين يفيد الظرفية وقيل كل ما ينفع بدلا من بين وخاصة إذا كان بين أشياء مختلطة، ووسط الشئ بالتحريك أيضا هو ما بين طرفيه.. ا.هـ. بتصرف من القاموس المحيط مادة (وسط). وهى فائدة لغوية.

بذنوبهم فعل بهم بأنهم كانت تأتيهم رسل الله إليهم بالبيّنات، يعني بالآيات الدالات على حقيقة ما تدعوهم إليه من توحيد الله، والانتهاء إلى طاعته (فَكَفَرُوا) يقول: فأنكروا رسالتها، وجحدوا توحيد الله، وأبوا أن يطيعوا الله (فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ) يقول: فأخذهم الله بعذابه فأهلكهم (إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ) يقول: إن الله ذو قوّة لا يقهره شيء، ولا يغلبه، ولا يعجزه شيء أراده، شديد عقابه بمن عاقب من خلقه، وهذا وعيد من الله مشركي قريش (وغيرهم إلى يوم القامة)، المكذّبين رسوله محمدا صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّم يقول لهم جلّ ثناؤه: فاحذروا أيها القوم أن تسلكوا سبيلهم في تكذيب محمد صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّم وجحود توحيد الله، ومخالفة أمره ونهيه فيسلك بكم في تعجيل الهلاك لكم مسلَكَهم. ثم يقول تعالى ذكره مُسَلِّيا نبيه محمد صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّم (وكل من حمل لواء دعوته من أمته)، عما كان يلقى من مشركي قومه من قريش (وكل من عادى دعوة الحق إلى قيام الساعة)، بإعلامه ما لقي موسى ممن أرسل إليه من التكذيب، ومخيره أنه معليه عليهم، وجاعل دائرة السَّوْء على من حادّه وشاقَّه، كسنته في موسى صلوات الله عليه، إذ أعلاه، وأهلك عدوه فرعون (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا): يعني بأدلته. (وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ): يقول: وحججه المبينة لمن يراها أنها حجة محققة ما يدعو إليه موسى (إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ) يقول: فقال هؤلاء الذين أرسل إليهم موسى لموسى: هو ساحر يسحر العصا، فيرى الناظر إليها أنها حية تسعى. (كَذَّابٌ) يقول: يكذب على الله، ويزعم أنه أرسله إلى الناس رسولا. فلما جاء موسى هؤلاء الذين أرسله الله إليهم بالحق من عندنا، وذلك مجيئه إياهم بتوحيد الله، والعمل بطاعته، مع إقامة الحجة عليهم، بأن الله ابتعثه إليهم بالدعاء إلى ذلك (قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا) بالله (مَعَهُ) من بني إسرائيل (وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ) يقول: واستبقوا نساءهم للخدمة. (وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلا فِي ضَلالٍ) يقول: وما احتيال أهل الكفر لأهل الإيمان بالله إلا في جور عن سبيل الحقّ، وصدّ عن قصد المحجة، وأخذ على غير هدى (أى أن هذا الكيد والحرب الشنعاء على المؤمنين إنما هي للإبقاء على الضلال، والظلم، والظلماء، واستعباد الخلق لأجل شهواتهم. وأهل الضلال في كل زمان يسمون حروبهم تلك على النور بأسماء.. وهم اليوم يسمونها الحرب على الإرهاب، والحرب لتحرير الشعوب، والحرب من أجل الحرية.. وما هي إلا حريةٌ لشهواتهم وسيادتهم تعيث في الأرض الفساد!!!). يقول تعالى ذكره: (وَقَالَ فِرْعَوْنُ) لملئه: (ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ) الذي يزعم أنه أرسله إلينا فيمنعه منا (إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ) يقول: إني أخاف أن يغير دينكم الذي أنتم عليه بسحره. (وما خوفه – كما قلنا– إلا على الظلام الذي نسجه

وأمثاله على الناس سنين ليستعبدوهم، وهم يخشون- أشد ما يخشون - نور الإسلام يفضحهم ويحرر الناس من عبوديتهم.. وهم يحاربون ذلك بالكذب والتلبيس والإعلام الفاجر الداعر يتهمون النور بالفساد، وكما تقول العرب: رمتني بدائها وانسلت.. وأى عقلٍ يقبل أن النور هو الفساد، والظلمة هداية، فكيف تحكمون ؟!). عن قتادة قال: (إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ): أي أمركم الذي أنتم عليه (أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الأَرْضِ الْفَسَادَ) والفساد عنده أن يعمل بطاعة الله. "وقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ (٢٧)".. يقول تعالى ذكره: وقال موسى لفرعون وملئه: إني استجرت أيها القوم بربي وربكم، من كلّ متكبر عليه، تكبر عن توحيده، والإقرار بإلوهيته وطاعته، لا يؤمن بيوم يحاسب الله فيه خلقه، فيجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بما أساء؛ وإنما خص موسى صلوات الله وسلامه عليه، الاستعاذة بالله ممن لا يؤمن بيوم الحساب، لأن من لم يؤمن بيوم الحساب مصدقا، لم يكن للثواب على الإحسان راجيا، ولا للعقاب على الإساءة، وقبيح ما يأتي من الأفعال خائفا، ولذلك كان استجارته من هذا الصنف من الناس خاصة. وقوله: (وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ) اختلف أهل العلم في هذا الرجل المؤمن، فقال بعضهم: كان من قوم فرعون، غير أنه كان قد آمن بموسى، وكان يُسِرّ إيمانه من فرعون وقومه خوفا على نفسه. عن السديّ (وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ) قال: هو ابن عم فرعون. ويقال: هو الذي نجا مع موسى فمن قال هذا القول، وتأوّل هذا التأويل، كان صوابا الوقف إذا أراد القارئ الوقف على قوله: (مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ)، لأن ذلك خبر متناه قد تمّ.

وقال آخرون: بل كان الرجل إسرائيليا، ولكنه كان يكتم إيمانه من آل فرعون.

والصواب على هذا القول لمن أراد الوقف أن يجعل وقفه على قوله: (يَكْتُمُ إِيمَانَهُ) لأن قوله: (مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ) صلة لقوله: (يَكْتُمُ إِيمَانَهُ) فتمامه قوله: يكتم إيمانه. (قلت: هذا من بديع بلاغة القرآن وعجائبه، فإن كون الرجل من آل فرعون، أو من قوم موسى يكتم إيمانه من آل فرعون خوفا.. لا يهم، وإنما يهم إيمانه.. وتقدير تمام الكلام بهذا الوقف أو ذاك هو إعجاز على إعجاز). قال الطبري رحمه الله تعالى: وأولى القولين في ذلك بالصواب عندي القول الذي قاله السديّ من أن الرجل المؤمن كان من آل فرعون، قد أصغى (فرعون) لكلامه، واستمع منه ما قاله، وتوقف عن قتل موسى عند نهيه عن قتله. وقيله(أى قول هذا الرجل المؤمن) ما قاله. وقال له: ما أريكم إلا ما أرى، وما أهديكم

إلا سبيل الرشاد، ولو كان إسرائليا لكان حريا أن يعاجل (فرعون)هذا القائل له، ولملئه ما قال بالعقوبة على قوله، لأنه لم يكن يستنصح بني إسرائيل (أى يطلب النصح منهم)، لاعتداده إياهم أعداء له، فكيف بقوله ونهيه عن قتل موسى لو وجد إليه سبيلا؟ ولكنه لما كان من ملأ قومه، استمع قوله، وكفّ عما كان همّ به في موسى. (قلت: وهذا –والله– تحقيق العلماء وفقههم يؤتيه الله من يشاء). وقوله تعالى: (أَتَقْتُلُونَ رَجُلا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ) يقول: أتقتلون أيها القوم موسى لأن يقول ربي الله؟ فإن في موضع نصب لما وصفت (مفعول لأجله). (وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ) يقول: وقد جاءكم بالآيات الواضحات على حقيقة ما يقول من ذلك. وتلك البيّنات من الآيات يده وعصاه. وقوله: (وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ) يقول: وإن يك موسى كاذبا في قيله: إن الله أرسله إليك يأمركم بعبادته، وترك دينكم الذي أنتم عليه، فإنما إثم كذبه عليه دونكم (وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ) يقول: وإن يك صادقا في قيله ذلك، أصابكم الذي وعدكم من العقوبة على مقامكم على الدين الذي أنتم عليه مقيمون، فلا حاجة بكم إلى قتله، فتزيدوا ربكم بذلك إلى سخطه عليكم بكفركم سخطا (إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ) يقول: إن الله لا يوفّق للحقّ من هو متعد إلى فعل ما ليس له فعله، كذّاب عليه يكذب، ويقول عليه الباطل وغير الحقّ. وقد اختلف أهل التأويل في معنى الإسراف الذي ذكره المؤمن في هذا الموضع، فقال بعضهم: عني به الشرك، وأراد: إن الله لا يهدي من هو مشرك به مفتر عليه. والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن الله أخبر عن هذا المؤمن أنه عمّ بقوله: (إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ) والشرك من الإسراف، وسفك الدم بغير حقّ من الإسراف، وقد كان مجتمعا في فرعون الأمران كلاهما، فالحقّ أن يعم ذلك كما أخبر جلّ ثناؤه عن قائله، أنه عم القول بذلك. يقول تعالى ذكره مخبرا عن قيل المؤمن من آل فرعون لفرعون وملئه: (يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الأَرْضِ) يعني: أرض مصر، يقول: لكم السلطان اليوم والملك ظاهرين أنتم على بنى إسرائيل في أرض مصر (فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ) يقول: فمن يدفع عنا بأس الله وسطوته إن حل بنا، وعقوبته أن جاءتنا، قال فرعون (مَا أُرِيكُمْ إِلا مَا أَرَى) يقول: قال فرعون مجيبا لهذا المؤمن الناهي عن قتل موسى: ما رأيكم أيها الناس من الرأي والنصيحة إلا ما أرى لنفسي ولكم صلاحا وصوابا، "وما أهديكم إلا سبيل الرشاد". يقول: وما أدعوكم إلا إلى طريق الحق والصواب في أمر موسى وقتله، فإنكم إن لم تقتلوه بدل دينكم، وأظهر في أرضكم الفساد. (قلت: إنه لمن غاية الطرافة أن يدعي هذا المجرم وكل مجرم أنه صاحب نظرية وجيهةٍ في اجرامه بل ومنهج

هداية، ولكنها الهداية الى الغواية، الهداية التي تحارب النور. وتلك دعوى كل مفسد في الأرض، يدعى الاصلاح، وحمل لواء الحرية، والأحلام الوردية.. هؤلاء الذين يتاجرون بعقول الناس، وقلوبهم، وأرواحهم.. يتلاعبون بهم تلاعب الصبيان بالكرة، بلا أى وخزة ضمير، ولا إنسانية.. أسائل أمريكا: أين تحرير الشعوب من إبادة أكثر من مليونى شخص في العراق، ومثلهم في أفغانستان، وتدمير سبع عشرة مدينة تدميرا كاملا من أصل بضع وعشرين في كوريا الشمالية، وكذلك هيروشيما، ونجازاكى والقنبلة النووية التي أهلكت ما يقارب الملون نفسٍ في ساعة واحدة.. واستعمال الأسلحة الفسفورية والمشوِّهة المحرَّمة دوليا في العراق وأفغانستان وفلسطين والشيشان وغيرها ؟! أين الحرية من الأطفال المشوهين مُدمَّري الحياة بسبب عبثهم بالأسلحة المدمِّرة الفتاكة؟! أين الحرية والعدل من جياع الأرض الذين دفعوا فاتورة الأسلحة التي يشتريها حسالة الأرض بتأجيج الرجل الأبيض في كل مناطق التوتر في العالم؛ ليحاربوا بعضهم البعض؛ فيموت من يموت، ويجوع من يجوع.. ويتمتع الرجل الأبيض المفسد بدماء الضحايا ؟! أليس الإسلام هو المخلِّص الحق، والمنقذ من هذا التيه ؟!.. وكل دعاوى المفسدين بالإصلاح لا تساوى حتى المناقشة " وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (١١) أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ (١٢) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ (البقرة١٣)").. يقول الله تعالى " {وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الأحْزَابِ (٣٠) مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ (٣١) }.. يقول تعالى ذكره: وقال المؤمن من آل فرعون لفرعون وملئه: يا قوم إني أخاف عليكم بقتلكم موسى إن قتلتموه مثل يوم الأحزاب الذين تحزّبوا على رسل الله نوح وهود وصالح، فأهلكهم الله بتجرّئهم عليه، فيهلككم كما أهلكهم. وقوله: (مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ) يقول: يفعل ذلك بكم فيهلككم مثل سنته في قوم نوح وعاد وثمود وفعله بهم. وقوله: (وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ) يعني قوم إبراهيم، وقوم لوط، وهم أيضا من الأحزاب. وقوله: (وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ) يقول تعالى ذكره مخبرا عن قيل المؤمن من آل فرعون لفرعون وملئه: وما أهلك الله هذه الأحزاب من هذه الأمم ظلما منه لهم بغير جرم اجترموه بينهم وبينه، لأنه لا يريد ظلم عباده، ولا يشاؤه، ولكنه أهلكهم بإجرامهم وكفرهم به، وخلافهم أمره. يقول تعالى ذكره مخبرا عن قيل هذا المؤمن لفرعون وقومه: (وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ) بقتلكم موسى إن قتلتموه عقاب الله (يَوْمَ التَّنَادِ). قال ابن زيد، في قوله: (يَوْمَ التَّنَادِ) قال: يوم القيامة ينادي أهل الجنة أهل النار. (ثم قال بإسناده)عن أبي هريرة،

أن رسول الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّم قال: "يَأْمُرُ الله إِسْرَافِيلَ بالنَّفْخَةِ الأولَى، فَيَقُولُ: انْفُخْ نَفْخَةَ الفَزَعِ، فَفَزِعَ أَهْلُ السَّمَوَاتِ وأَهْلُ الأَرْضِ إلا مَنْ شَاءَ الله، وَيَأْمُرُهُ الله أَنْ يُدِيمَهَا وَيُطَوِّلَهَا فَلا يَفْتَرُ، وَهِيَ الَّتِي يَقُولُ اللهُ: (وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلاءِ إِلا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ) فَيُسَيِّرُ اللهُ الجِبَالَ فَتَكُونَ سَرَابًا، فَتُرَجُّ الأَرْضُ بأَهْلِها رَجًّا، وَهِيَ التي يَقُولُ اللهُ: (يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ) فَتَكُونُ كالسَّفِينَةِ المُرْتَعَةِ فِي البَحْرِ تَضرِبُها الأَمْوَاجُ تَكْفَأُ بأَهْلِهَا، أَوْ كالقِنْدِيلِ المعَلَّقِ بالعَرْشِ تَرُجُّهُ الأَرْوَاحُ، فَتَمِيدُ النَّاسَ عَلى ظَهْرِها، فَتَذْهَلُ المَرَاضِعُ، وَتَضَعُ الحَوَامِلُ، وَتَشِيبُ الوِلْدَانُ، وَتَطِيرُ الشَّيَاطِينُ هَارِبَةً حتى تأتي الأَقْطارَ، فَتَلَقَّاها المَلائِكَةُ، فَتَضْرِبُ وُجُوهَها، فَتَرْجِعَ وَيُوَلِّي النَّاسُ مُدْبِرِينَ، يُنَادِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَهُوَ الَّذِي يَقُولُ الله: (يَوْمَ التَّنَادِ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ) ".

فعلى هذا التأويل معنى الكلام: ويا قوم إني أخاف عليكم يوم ينادي الناس بعضهم بعضا من فزع نفخة الفزع. فمعنى الكلام: ويا قوم إني أخاف عليكم يوم ينادي الناس بعضهم بعضا، إما من هول ما قد عاينوا من عظيم سلطان الله، وفظاعة ما غشيهم من كرب ذلك اليوم، وإما لتذكير بعضُهم بعضا إنجاز إلله إياهم الوعد الذي وعدهم في الدنيا، واستغاثة من بعضهم ببعض، مما لقي من عظيم البلاء فيه. وقوله: (يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ) فتأويله على التأويل الذي ذكرنا من الخبر عن رسول الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّم: "يَوْمَ يُوَلُّونَ هارِبِينَ فِي الأَرْضِ حِذَارَ عَذَابِ اللهِ وَعِقابِهِ عِنْدَ مُعَايَنَتِهم جَهَنَّمَ". عن مجاهد، قوله: (يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ) قال: فارّين غير معجزين... ما لكم من الله مانع يمنعكم، وناصر ينصركم. قوله: (وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ) يقول: ومن يخذله الله فلم يوفّقه لرشده، فما له من موفّق يوفّقه له. [١٢٤])ا. هـ.

أقول: لقد اضطلع هذا الرجل المؤمن من آل فرعون بواجبات إيمانه أتم اضطلاع، واثبت مقتضيات رجولته أقوى إثبات.. فاستحق بذلك أن يصير مثلاً قرآنياً يُحتذى، ونموذجا يُدرس في مدرسة محمد صلى الله عليه وسلم للرجال والأبطال.. إن الرجل هنا انطلق من رحم الفساد والضلال ليعلى كلمة الحق.. يدافع عنها بكل ما أوتى من فصاحة، وبلاغة، وفهم دقيق، وعميق للقضية التي يناضل من أجلها.. لقد رسخ في قلب الرجل إيمانه، والذى تدلنا الآيات الكريمات أنه كمله بالعلم، والتدبر،

١٣١تفسير الطبرى جامع البيان، ٢١/٣٧١- ٣٨٣،تحقيق أحمد شاكر، مؤسسة الرسالة ط. الاولى٢٠٠٠ م، بتصرف يسير وحذف وتعليقات بين القوسين.

والفهم العميق للواقع المحيط، وطبيعة المخاطَبين بالدعوة إلى الحق، وكذا طبيعة الحرب على هذا الحق.. ثم إن الرجل استغل موقعه في صنع القرار والنصيحة في ملك فرعون.. استغل ذلك في خدمة دينه وعقيدته بلسانٍ فصيحٍ، وحججٍ قويةٍ، وإصرارٍ بالغٍ على الدفاع عن دعوة الحق ورموزها.. هذه الصفات التي تمتع بها هذا الداعية الفذ من الإيمان بالحق، والفهم الدقيق العميق لقضية الحق، والقوة على قول هذا الحق، واستغلال المواقف والمواقع لإعلاء كلمته، والإحاطة التامة بواقع الحرب على الحق وأهله، وينضاف إليها الفصاحة والبلاغة، وامتلاك لغة العصر في ترسيخ كلمة الحق.. هذه الملكات هي ما يعلمنا القرآن الرائع بآياته العظام في مدرسة محمد صلى الله عليه وسلم؛ لنكون أهلاً لحمل لواء هذا الدين ونشر النور الذي أتى به.. إن مؤمن آل فرعون لم يلبث أن وجد فرصة ينشر بها دينه ففعل دون تردد وبكل قوة وبيان، وهذا الإيمان بالقضية والاستماتة في سبيلها هو بالحقيقة أشد ما نحتاجه اليوم في زمن خارت فيه العزائم.. وقل الرجال.. فهل المؤمنون اليوم أقل من مؤمن آل فرعون إيمانا، أم أنهم –حقيقةً – يدعون الإيمان ؟! وَفِي حَدِيثِ حَارِثَةَ الْمَشْهُورِ – وَقَدْ رُوِيَ مِنْ وُجُوهٍ مُرْسَلَةٍ، وَرُوِيَ مُتَّصِلًا، وَالْمُرْسَلُ أَصَحُّ – «أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لَهُ: كَيْفَ أَصْبَحْتَ يَا حَارِثَةُ؟ قَالَ: أَصْبَحْتُ مُؤْمِنًا حَقًّا، قَالَ: انْظُرْ مَا تَقُولُ، فَإِنَّ لِكُلِّ قَوْلٍ حَقِيقَةً، قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، عَزَفَتْ نَفْسِي عَنِ الدُّنْيَا فَأَسْهَرْتُ لَيْلِي وَأَظْمَأْتُ نَهَارِي، وَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى عَرْشِ رَبِّي بَارِزًا، وَكَأَنِّي أَنْظُرُ أَهْلَ الْجَنَّةِ فِي الْجَنَّةِ كَيْفَ يَتَزَاوَرُونَ فِيهَا، وَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى أَهْلِ النَّارِ كَيْفَ يَتَعَاوَوْنَ فِيهَا. قَالَ: أَبْصَرْتَ فَالْزَمْ، عَبْدٌ نَوَّرَ اللَّهُ الْإِيمَانَ فِي قَلْبِهِ» [١٢٥]...

١٢٥من جامع العلوم والحكم لابن رجب ١٢٨/١، وقد أخرجه: الطبراني في " الكبير " (٣٣٦٧)، والبيهقي في " شُعب الإيمان " (١٠٥٩١)، من حديث الحارث بن مالك، به مرفوعاً، وأخرجه: البزار (٣٢)، والبيهقي في " شُعب الإيمان " (١٠٥٩٠) من حديث أنس بن مالك، به مرفوعاً. وهو ضعيف الإسناد.

الفرسان الثلاثة.. أو الأربعة

ليس هذا عنوانا لإحدى الروايات السخيفة التي تصنع أبطالا من ورقٍ، وربما كان للورقِ الذي سُطِرت الخيالات عنهم فيه.. ربما كان له قيمةٌ تفوق القيم الزائفة التي صنعت لهم من أجل خلق أى نوع من أنواع البطولة ولو كان رخيصا لا يمت للبطولة الحقة بأية صلة.. على أى مبدأ زائفٍ صنع هؤلاء أبطالهم الوهميين؟ على مبادئ القهر والغلبة بلا أخلاق، والحياة للا مبدأ.. بل أرادوا تصدير هذه البطولة الموهومة لنا، وقد ساعدهم في ذلك جهلنا الإجرامى بأبطالنا الحقيقيين أو بالأحرى تجهيلنا.. عن طريق العبث بتاريخنا ورموزنا، أو شغلنا بسفيه الفكر وألاعيب السفهاء.. ولقد سدد خطاهم أناسٌ من جلدتنا ملأهم النفاق والخنوثة، وادعوا التنوير والتقدمية والتجديد حتى اقنعوا أجيالا نشأت بعيدةً عن دينها وماضيها المجيد.. أقنعوهم بأن المستقبل الباسم في حضن هذا الغرب المجرم وطريقه المظلم.. ألا يعجب العالمون من أنهم جعلوا من (جيمس بوند) القاتل الماجن، وزير النساء الفاسد بطلا ينقذ العالم كل مرةٍ من الأشرار الذين يريدون السيطرة عليه، أو تدميره بفيروسٍ فتاكٍ، وقنبلةٍ كاسحةٍ مدمرةٍ.. إنه العجب العجاب وكلنا يعلم ما يصنعه الأمريكان والصهاينة والروس وأشباههم من قتل للنساء والأطفال، وتدمير للبلاد، وذل للعباد، وتجارب للفيروسات القاتلة، والأسلحة الإجرامية المحرمة على بني الإنسان.. ثم يهتفون لهؤلاء الأبطال المدمرين الذين ينشرون الحرية في أرجاء البلاد التي خربوها، وقتلوا أهلها!!!

ولكننا نتحدث ههنا عن أبطال حقيقيين.. أبطال صنعتهم أخلاق الإسلام، وتربوا في مدرسة محمد صلى الله عليه وسلم للرجولة؛ والتي شهد لها التاريخ ببناء أعظم، وأجمل، وأعدل حضارةٍ عرفها الزمان .. (ولا يستطيع دين من الأديان ومدنية من المدنيات تعيش في العالم المتمدن المعمور أن تدعي أنها لم تتأثر بالإسلام والمسلمين في قليل ولا كثير. يقول (Robert Briffault) في كتابه (The Making of Humanity): (ما من ناحية من نواحي تقدم أوربا إلا وللحضارة الإسلامية فيها فضل كبير وآثار حاسمة لها تأثير كبير).. ويقول في موضع آخر: (لم تكن العلوم

الطبيعية (التي يرجع فيها الفضل إلى العرب) هي التي أعادت أوربا إلى الحياة ولكن الحضارة الإسلامية قد أثرت في حياة أوربا تأثيرات كبيرة ومتنوعة منذ أرسلت أشعتها الأولى إلى أوربا).

فلو جرت الأمور هكذا وتمتعت الأمم الإنسانية بقيادة الجماعة التي خُلقت بقيادتها وأعطيت القوس باريها، وجرت المياه إلى مجاريها، لكان للعالم الإنساني تاريخ غير التاريخ الذي نقرؤه حافلاً بالزلازل والنكبات ناطقاً بطول بلاء الإنسانية ومحنها، لكان له تاريخ مجيد جميل يغتبط به كل إنسان ويقر عيناً، ولكن جرت الأقدار بغير ذلك، وبدأ الانحطاط في المسلمين أنفسهم) [١٢٦].

بدأ الانحطاط حينما فقد المسلمون ذاكرتهم، ونسوا مكانهم في الأمم وصاروا التابع الذليل، والممالئ الحقير.. حينما تنكروا لجذورهم، وهدموا بأيديهم، وبجهلهم تراثهم، وعقارهم.. ولكن رسولنا علمنا ألا نلعن الظلام، بل نشقه بالنور شقاً.. لنقيم حضارة النور ونهدم صروح الظلام.. بقلوب تحمل عظمة الإسلام، واستبسال أبطاله الذين نشروا نوره من قبل في كل الربوع...

يحكى لنا الزمان (أن رسول الله صلّى الله عليه وسلم بعث الحارث بن عمير الأزدي بكتابه إلى عظيم بصرى (ليوصل رسالته بنور الإسلام إلى قيصر الروم)، فعرض له شرحبيل بن عمرو الغساني- وكان عاملا على البلقاء من أرض الشام من قبل قيصر- فأوثقه رباطا، ثم قدمه، فضرب عنقه. (وهكذا يفعل أعداء النور.. لا شرف عندهم، ولا أخلاق، ولا رجولة).. وكان قتل السفراء والرسل من أشنع الجرائم، يساوي بل يزيد على إعلان حالة الحرب، فاشتد ذلك على رسول الله صلّى الله عليه وسلم حين نقلت إليه الأخبار، فجهز إليه جيشا قوامه ثلاثة آلاف مقاتل، وهو أكبر جيش إسلامي، لم يجتمع قبل ذلك إلا في غزوة الأحزاب [١٢٧]. (جهز جيشه صلى الله عليه وسلم ليقاتل مائتى ألف مقاتل من الفرنجة ونصارى العرب الذين مالئوهم - أو مائة وخمسين على رواية السهيلى— جهزهم ليشق النور طريقه عبر الظلام، ولو تكاثف الظلام وصار أمواجا بعضها فوق بعض.. فإن رجال محمدٍ بحَّارون مهرةٌ يعلمون جيداً كيف يديرون دفة التاريخ.. يقودون ركب الحضارة الإنسانية لبر الأمان.).. فلقد كان الإسلام يسرى سريان النور، والشام لم يكن بعيدا عن البلاد العربية، بل كانت به قبائل من

---

١٣٩. (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين) لأبى الحسن الندوي ص١١٨، مكتبة الإيمان / المنصورة

[127] الرحيق المختوم للمباركفورى دار العصماء / دمشق، ٣٢٦/١.

العرب، فالغساسنة منهم، وإذا كان الإسلام يسرى نوره فيعم الآفاق القريبة، فقد كان من عرب الشام من دخل في الإسلام، أو كان من العرب من سافر إلى الشام. وأولئك المسلمون، وإن كانوا عددا قليلا ضاقت بهم صدور النصارى حرجا، فقتل والى الشام من قبل الرومان من أسلم من عرب الشام، ولا بد أن يحمى محمد صلى الله تعالى عليه وسلم وأصحابه أولئك الذين يفتنون عن دينهم لتمنع الفتنة عنهم، ويقول في ذلك ابن تيمية في رسالة القتال: إن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ما بعث إلى حرب الروم في مؤتة إلا بعد أن قتل الوالي الروماني من أسلم في الشام[١٢٨]... وكان لا بد أن يقف أمام هذا الغدر بقوة، ولو كانت مقابل قوة الرومان. وذلك لأنهم فتنوا المؤمنين، بقتل بعضهم فكان ذلك إرهابا لمن يهم بالدخول في الإسلام، ولأنهم قتلوا رسول النبى الأمين صلى الله تعالى عليه وسلم في وقت قد صارت عند النبى صلى الله تعالى عليه وسلم القوة الفاصلة العليا في البلاد العربية، فكان لا بد لذلك من أن يقاوم ذلك الغدر، لأن السكوت يكون ذلة لأهل الإيمان، وذلة للعرب أجمعين، وهم بصدد أن يقوموا بدعوة الحق وحماية الشعوب من طغاتها. [١٢٩]...

بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بجيش وأمَّر رسول الله صلّى الله عليه وسلم على هذا البعث زيد بن حارثة، وقال: «إن قتل زيد فجعفر، وإن قتل جعفر فعبد الله بن رواحة» – وعقد لهم لواء أبيض، ودفعه إلى زيد بن حارثة. وأوصاهم أن يأتوا مقتل الحارث بن عمير، وأن يدعوا من هناك إلى الإسلام، فإن أجابوا وإلا استعانوا بالله عليهم، وقاتلوهم، وقال لهم صلى الله عليه وسلم: «اغزوا بسم الله في سبيل الله من كفر بالله، لا تغدروا، ولا تغيروا، ولا تقتلوا وليدا ولا امرأة، ولا كبيرا فانيا، ولا منعزلا بصومعة، ولا تقطعوا نخلا ولا شجرة، ولا تهدموا بناء» [١٣٠]. (قلت: هذه هي قمة الخلق الإنسانى الراقي حتى مع الغادرين في ساحة الحرب.. هذا هو الإسلام، وهذا سيف محمد صلى الله عليه وسلم كيف يضع مبادئ البطولة الحقة.. بطولة الرِقى في أى ظرف، وتحت أية ذريعة.. فأين المتشدقين بالحرية والحضارة وهم يقتلون الأطفال بسلاحهم الفسفوري والنووي والفيروسي، ويشوهون حياتهم لمئات السنين، أين هم من عظمة فرسان الإسلام ومبادئه ؟).. وتحرك الجيش الإسلامي في اتجاه الشمال حتى نزل معان، من أرض الشام، مما يلي الحجاز الشمالي، وحينئذ نقلت إليهم الاستخبارات

---

[128] خاتم النبيين، لمحمد ابي زهرة دار الفكر العربي / مصر، ٣/ ٨٤٦.

[129] المصدر السابق ٣/٨٤٦.

[130] الرحيق المختوم ١/٣٢٧.

بأن هرقل نازل بمآب من أرض البلقاء في مائة ألف من الروم، وانضم إليهم من لخم وجذام وبلقين وبهراء وبلي مائة ألف. لم يكن المسلمون أدخلوا في حسابهم لقاء مثل هذا الجيش العرمرم، الذي بوغتوا به في هذه الأرض البعيدة- وهل يهجم جيش صغير، قوامه ثلاثة آلاف مقاتل فحسب، على جيش كبير عرمرم، مثل البحر الخضم، قوامه مائتا ألف مقاتل؟ حار المسلمون، وأقاموا في معان ليلتين يفكرون في أمرهم، وينظرون ويتشاورون، ثم قالوا: (نكتب إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلم، فنخبره بعدد عدونا، فإما أن يمدنا بالرجال، وإما أن يأمرنا بأمره فنمضي له). ولكن (عبد الله بن رواحة) عارض هذا الرأي، وشجع الناس، قائلا: (يا قوم والله إن التي تكرهون للتي خرجتم تطلبون، الشهادة، وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به، فانطلقوا، فإنما هي إحدى الحسنيين، إما ظهور وإما شهادة). وأخيرا استقر الرأي على ما دعا إليه عبد الله بن رواحة[١٣١].

(هكذا الرجال لا تهاب الموت، وإن الأمر برمته لهو عمليةٌ استشهاديةٌ بكل المقاييس.. فماذا يفعل الرجل الواحد بقليل تجهيزه وعتاده أمام ما يقارب السبعين من الرجال الأكثر عتادا وتجهيزا.. إن الشجاعة وبأى تقديرٍ في موقفٍ كهذا لتتبخر وتطير في الهواء.. ولكنه الإيمان الذي جعل (أنس بن النضر) رضى الله عنه يرى الناس يفرون وهو المقبل يعانق الموت.. يقول " إني لأشم ريح الجنة من وراء أحد".. لقد جاوزوا بيقينهم وصدقهم حدود الظروف، وكأنهم صاروا في عوالم من العبير الإيمانى صنعتها بطولتهم، فهم في الحقيقة أقوى من الموت؛ لأنهم يصنعون منه حياةً لا تنتهي أبداً...) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: شَهِدْتُ مُؤْتَةَ فَلَمَّا دَنَا مِنَّا الْمُشْرِكُونَ رَأَيْنَا مَا لَا قِبَلَ لأحدٍ بِهِ مِنَ الْعُدَّةِ وَالسِّلَاحِ وَالْكُرَاعِ وَالدِّيبَاجِ وَالْحَرِيرِ وَالذَّهَبِ، فَبَرِق بصري، فقال لي (ثابت بن أرقم): يَا أَبَا هُرَيْرَةَ كَأَنَّكَ تَرَى جُمُوعًا كَثِيرَةً؟ قلت نعم! قال إنك لم تشهد بدراً معنا، إِنَّا لَمْ نُنْصَرْ بِالْكَثْرَةِ.. رَوَاهُ الْبَيْهَقِيُّ [١٣٢].. هذا هو المبدأ.. فحين يكون الرجل منا بمليون لا يكون للكثرة حساب ولا للعدة وزن.. وهاهنا ندرك كيف صنع الإسلام رجاله، وأعدهم لشق المستحيل بسيوف الحق...

---

[131] المرجع السابق ٣٢٨/١.

[132] كذلك فى البداية والنهاية لابن كثير ٢٧٨/٤ ط.دار إحياء التراث العربي.

ألهم صلى الله عليه وسلم، أن حملة الراية سيكونون المقصودين، فرتب الولاية بينهم فجعلها لزيد بن حارثة لقوة إيمانه، وليعلم أنه لا شرف إلا بالإيمان والعمل الصالح، ثم تكون لجعفر بن أبي طالب الذي هاجر مرتين، لكي يعلم الناس أنه لا يضن بأهله عن مواطن الردى، ثم لعبد الله بن رواحة شاعر الإسلام وفارسه وبطله من الذين آووا ونصروا رضى الله عنهم أجمعين.. وهناك في مؤتة التقى الفريقان، وبدأ القتال المرير، ثلاثة آلاف رجل يواجهون هجمات مائتي ألف مقاتل. معركةٌ عجيبة تشاهدها الدنيا بالدهشة والحيرة، ولكن إذا هبت ريح الإيمان جاءت بالعجائب. (فلمّا كانوا بتخوم البلقاء، لقيتهم الجموع من الروم والعرب، بقرية من قرى البلقاء، يقال لها «مشارف» ودنا العدوّ، وانحاز المسلمون إلى قرية يقال لها «مؤتة» والتقى الناس، واقتتلوا.

وقاتل زيد بن حارثة– رضي الله عنه– براية رسول الله صلى الله عليه وسلم حتّى استشهد، وقد أخذت الرماح منه كلّ مأخذ، ثمّ أخذها جعفر فقاتل بها، حتّى إذا أرهقه القتال، اقتحم عن فرسه فعقرها، ثم قاتل، فقطعت يمينه، فأخذ الراية بيساره، فقطعت يساره، فاحتضن الراية بعضديه حتّى قتل، وله ثلاث وثلاثون سنة، ووجد المسلمون ما بين صدره ومنكبيه وما أقبل منه تسعين جراحة، ما بين ضربة بالسّيف، وطعنة بالرمح كلّها في الأمام، فقد كان هذا البطل العظيم مقبلاً معانقاً للموت لا يهابه، روى البخاري عن نافع أن ابن عمر أخبره أنه وقف على جعفر يومئذ وهو قتيل، فعددت به خمسين بين طعنة وضربة، ليس منها شيء في دبره. يعني ظهره. وفي رواية أخرى قال ابن عمر: كنت فيهم في تلك الغزوة، فالتمسنا جعفر بن أبي طالب فوجدناه في القتلى، ووجدنا ما في جسده بضعا وتسعين من طعنة ورمية. وفي رواية العمري عن نافع زيادة «فوجدنا ذلك فيما أقبل من جسده».

ومات فتى الفتيان وهو يحنّ إلى الجنّة، ويتغنّى بنعمائها، ويستهين بالعدوّ وعَدده وعُدده، وبزخارف الدنيا. وأثابه الله بجناحيه جناحين في الجنة، يطير بهما حيث يشاء، ولذلك سمي بجعفر الطيار، وبجعفر ذي الجناحين. ولما قتل جعفر بعد القتال بمثل هذه الضراوة والبسالة أخذ الراية عبد الله بن رواحة، وتقدم بها، وهو على فرسه، فجعل يستنزل نفسه، ويتردد بعض التردد حتى حاد حيدة، ثم قال:

أقسمت يا نفس لتنزلنه.... .... كارهة أو لتطاوعنه

إن أجلب الناس وشدوا الرنه... مالي أراك تكرهين الجنه

ونزل عن فرسه، وأتاه ابن عمّ له، بعظم عليه بعض لحم، وقال: شدّ بهذا صلبك، فإنّك قد لقيت في أيامك هذه ما لقيت، فأخذ بيده وأخذ منه بفمه يسيرا، ثمّ ألقاه من يده، وأخذ سيفه فتقدّم وقاتل حتى قتل. وحينئذ تقدم رجل من بني عجلان- اسمه ثابت بن أرقم- فأخذ الراية وقال: يا معشر المسلمين، اصطلحوا على رجل منكم، قالوا: أنت. قال: ما أنا بفاعل، فاصطلح الناس على خالد بن الوليد، فلما أخذ الراية قاتل قتالا مريرا، فقد روى البخاري عن خالد بن الوليد قال: لقد انقطعت في يدي يوم مؤتة تسعة أسياف، فما بقي في يدي إلا صفيحة يمانية. وفي لفظ آخر: لقد دق في يدي يوم مؤتة تسعة أسياف، وصبرت في يدي صفيحة لي يمانية. وقد استدل ابن كثير بهذه الرواية على انتصار المسلمين في المعركة فانكسار الأسياف في يد خالد رضي الله عنه توحي بكثرة القتلى والجرحى في صفوف العدو.. واستدل كذلك برواية البخاري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يصف الموقف بعد تولى خالد القيادة بالفتح.. وبذلك رد ابن كثير قول ابن اسحق بأن المسلمين فقط نجحوا بالانحياز والخروج غير مغلوبين.. وقد وافق ابن كثير من أهل المغازى موسى بن عقبة والواقدى والبيهقى والزهرى في بحث وافٍ في البداية فراجعه [١٣٣].. وقد قال رسول الله صلّى الله عليه وسلم يوم مؤتة- مخبرا بالوحي، قبل أن يأتي إلى الناس الخبر من ساحة القتال-: أخذ الراية زيد فأصيب، ثم أخذ جعفر فأصيب، ثم أخذ ابن رواحة فأصيب- وعيناه تذرفان- حتى أخذ الراية سيف من سيوف الله، حتى فتح الله عليهم. ومع الشجاعة البالغة والبسالة والضراوة المريرتين كان مستغربا جدا أن ينجح هذا الجيش الصغير في الصمود أمام تيارات ذلك البحر الغطمطم من جيوش الروم، ففي ذلك الوقت أظهر خالد بن الوليد مهارته ونبوغه في تخليص المسلمين مما ورطوا أنفسهم فيه.

واختلفت الروايات كثيرا فيما آل إليه أمر هذه المعركة أخيرا. ويظهر بعد النظر في جميع الروايات أن خالد بن الوليد نجح في الصمود أمام جيش الرومان طول النهار، في أول يوم من القتال، وكان يشعر بمسيس الحاجة إلى مكيدة حربية، تلقي الرعب في قلوب الرومان؛ حتى ينجح في الانحياز بالمسلمين

١٣٣راجع البداية والنهاية ٤/٢٨٣ دار إحياء التراث. وراجع كذا هناك (فَصْلٌ فِي فَضْلِ هَؤُلَاءِ الْأُمَرَاءِ الثَّلَاثَةِ زَيْدٍ وَجَعْفَرٍ وَعَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ) ٤/٢٩٠.

من غير أن يقوم الرومان بحركات المطاردة، فقد كان يعرف جيدا أن الإفلات من براثنهم صعب جدا لو انكشف المسلمون، وقام الرومان بالمطاردة.

فلما أصبح اليوم الثاني غير أوضاع الجيش، وعبأه من جديد، فجعل مقدمته ساقة، وميمنته ميسرة، وعلى العكس، فلما رآهم الأعداء أنكروا حالهم، وقالوا: جاءهم مدد، فرعبوا، وصار خالد- بعد أن تراءى الجيشان، وتناوشا ساعة- يتأخر بالمسلمين قليلا قليلا، مع حفظ نظام جيشه، ولم يتبعهم الرومان ظنا منهم أن المسلمين يخدعونهم، ويحاولون القيام بمكيدة ترمي بهم في الصحراء. وهكذا انحاز العدو إلى بلاده، ولم يفكر في القيام بمطاردة المسلمين، ونجح المسلمون في الانحياز سالمين، حتى عادوا إلى المدينة [١٣٤]. (انتهت هذه الغزوة بنجاة الجيش الإسلامي من أن يقع فريسة لجيش الكفر، المتكاثف، وحسب ذلك نصرا مبينا، وإن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أدرك قبلها نتيجة المعركة، فإنه عندما علم أن خالدا تولى القيادة، وحمل الراية قال: تولى الراية سيف من سيوف الله يفتح الله تعالى عليه، وما كانت لتسمى النتيجة فتحاً لو كانت النهاية أن يرضى الجيش من الغنيمة بالإياب. ولقد قال بعض كتاب السيرة أن النتيجة كانت السلامة، ولم تكن نصرا. ولكنا نقول أنها كانت نصرا لأسباب:

منها: أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم سماها فتحا، وسمى الذين عادوا إلى المدينة المنورة كرارا. ومنها: أن المسلمين ساقوا غنائم ولم يؤخذ منهم شيء.

ومنها: أن قتلى المؤمنين كانوا اثنى عشر، وقتلاهم لا تحصى عددا، فقتلى المسلمين كانوا أقل عددا، وفيها كان النصر المؤزر، وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله تعالى هي العليا.

ولقد قال في ذلك الحافظ ابن كثير في تاريخه[١٣٥]: «هذا عظيم جدا، أن يتقاتل جيشان متعاديان في الدين أحدهما وهو القلة التي تقاتل، في سبيل الله وعدتها ثلاثة آلاف، وأخرى كافرة، وعدتها مائتا ألف مقاتل، من الروم مائة ألف، ومن النصارى العرب مائة ألف، يتبارزون ويتصاولون، ثم مع هذا كله

---

[١٣٤] السيرة النبوية لابى الحسن النبوى دار ابن كثير / دمشق ١/ ٤٣٨.والرحيق المختوم ١/٣٣١،٣٣٠،٣٢٩.بتصرف وزيادة..

[135] راجع البادية ٤/٢٩٥ دار إحياء التراث.

لا يقتل من المسلمين إلا اثنا عشر، وقد قتل من المشركين خلق كثير، هذا خالد وحده يقول: لقد اندقت في يدي تسعة أسياف وما بقيت في يدي إلا صفحة يمانية، فماذا ترى قد قتل بهذه الأسياف كلها.

دع غيره من الأبطال الشجعان من حملة القرآن الكريم وقد تحكموا في عبدة الصلبان، عليهم لعنة الرحمن ذلك الزمان وفى كل أوان، وهذا مما يدخل في قول الله تعالى: «قد كان لكم آية في فئتين التقتا فئة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة يرونهم مثليهم رأى العين، والله يؤيد بنصره من يشاء إن في ذلك لعبرة لأولى الأبصار». وإننا نرى أن هذا يشبه ما قرره الله تعالى من أن عشرين صابرين يغلبوا مائتين، وأن مائة صابرة تغلب ألفا، وأنه عند قوة الإيمان وقوة الصبر يكون المؤمن الصابر يغلب مائة. وقد كان ثلاثة آلاف قد غلبوا مائتى ألف، وصدق قول الله تعالى: «يا أيها النبى حرض المؤمنين على القتال، إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين، وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفا من الذين كفروا، بأنهم قوم لا يفقهون» هذا هو الحق)ا. هـ.. إن غزوة مؤتة أول غزوة تخرج عن دائرة الجزيرة العربية إلى دائرة أراض تحت سلطان الرومان، فإذا كانت النتائج تكون على هذه الشاكلة، فإن النصر سيكون لجيش الحق بإذن الله تعالى، وقد كان، فكانت اليرموك وما بعدها في عهد الراشدين، فكانوا يفرون كما تفر الشاة أمام الأسود. وإذا كانت بدر أول انتصار في الأرض العربية، فمؤتة أول انتصار مؤزر خارج الجزيرة العربية، وهو ابتداء ليس له انتهاء أو مبتدأ له خبر[١٣٦].

هؤلاء هم الفرسان الثلاثة.. أو الأربعة.. (هؤلاء زيد، وجعفر، وابن رواحة استشهدوا ثلاثتهم في سبيل الله في موقعة واحدة. وقال فيهم صلى الله عليه وسلم: لقد رفعوا إلىّ الجنة فيما يرى النائم على سرر من ذهب، فرأيت في سرير عبد الله بن رواحة ازورارا عن سرير صاحبيه؛ فسأل: لم هذا؟ فقيل: مضيا، وتردّد عبد الله بعض التردد ثم مضى. أترى إلى هذه العبرة والموعظة الحسنة! فإنما معناها أن المؤمن لا يجوز له أن يتردد أو يخاف الموت في سبيل الله؛ بل يجب عليه، كلما مضى في أمر يؤمن بأنه لله، أن يحمل حياته على كفّه، وأن يلقى بها في وجه من يقف في سبيله؛ فإما فاز وظفر فبلغ ما يؤمن به من حق الله والوطن، وإمّا استشهد فكان المثل الحيّ لمن بعده والذكر الباقي لروح عظيم عرف أن قيمة الحياة ما يضحّى بالحياة في سبيله، وأن الإمساك على الحياة في مذلة إهدار للحياة، فما يستحق

---

[136] خاتم النبيين، ٣/٨٥١.

صاحبها بعد ذلك في الحياة ذكرا؛ وأن الرجل يلقي بيديه إلى التهلكة إذا هو عرّض حياته تعريضا تذهب معه ضحيةَ غرضٍ وضيعٍ، وأنه كذلك يلقي بيديه إلى التهلكة إذا هو أمسك على حياته حين يدعوه داعي الحق جلّ شأنه ليقذف بها في وجه الباطل ليسحقه، فيواريها هو بالحجاب ويخاف عليها الموت خوفا هو شرّ من الموت. وإذا كان التردّد القليل من ابن رواحة مع إقدامه بعد ذلك واستشهاده، قد جعله في غير مكانة زيد وجعفر اللذين اقتحما صفوف الموت اقتحاما وطارا للاستشهاد فرحا، فما بالك بالذي ينكص على عقبيه طمعا في جاهٍ أو مالٍ أو غرض من أغراض الحياة! إنه إذا للحشرة الحقيرة وإن عرض عند السواد جاهه، وإن بزّ مال قارون ماله. وهل لنفس إنسانية أن تغتبط حقّا لشيء اغتباطها للتضحية في جانب ما تؤمن بأنه الحقّ، حتى تنتهي من ذلك إلى الاستشهاد في سبيل الحق، أو إلى تمليك الحق الحياة [١٣٧]!

إن أهم ما يثير الدهشة، في هذه الغزوة، تلك النسبة الكبيرة من الفرِق بين عدد المسلمين فيها وعدد مقاتليهم من الروم والمشركين العرب!.... . ومكان الدهشة في الأمر، أن تجد المسلمين بعد هذا كله– وهم سرية ليس فيها رسول الله صلّى الله عليه وسلم– مقبلين غير مدبرين، لا يقيمون لكل هذه الحشود الهائلة أمامهم وزنا، مع أنها– فيما يبدو ويظهر– لو التفّت من حولهم وطوقتهم من جهاتهم، لانقلبوا إلى ما يشبه نواة صغيرة في جوف قطعة أرض سوداء!.. ثم إن مكان الدهشة بعد ذلك، أن يصمد المسلمون لقتال هذا اليمّ المتلاطم. يقتل أميرهم الأول، ثم الثاني، فالثالث، وهم يقتحمون أبواب الشهادة في نشوة بالغة وإقبال عجيب، حتى يدخل الرعب الإلهي في أفئدة كثير من المشركين، دون أن يكون له سبب ظاهر، فينكشفون عن مواقعهم ويدبر منهم الكثير، وتقتل منهم خلائق لا تكاد تحصى!.. ولكن الدهشة كلها تزول، والعجب ينتهي، إذا تذكرنا ما يفعله الإيمان بالله، والاعتماد عليه، واليقين بوعده... فالمسلمون– كما قال عبد الله بن رواحة رضي الله عنه– لا يقاتلون بعدد ولا قوة، ولا كثرة، وإنما يقاتلون بهذا الدين الذي أكرمهم الله به[١٣٨]..

إنه ما نتحدث عنه مراراً وتكراراً من صناعة الرجال في مدرسة الإيمان؛ ثم تركهم يصوغون معاني البطولة على أرقى ما يكون في دفاتر التاريخ، وعرصات الحياة.. لم يكن معهم محمد صلى الله عليه

---

[137] حياة محمد صلى الله عليه وسلم لمحمد حسين هيكل الهيئة العامة للكتاب / مصر، ص٢٥٧.

[138] فقه السيرة للبوطى دار الفكر / دمشق ١/ ٢٦١.

وسلم سوى بالقلب والدعاء والفخر الذي يملأ روحه وهو يراهم يسطرون في جبين الدهر أسماءهم.. لم يكن معهم ولكن بحجم تربيته فيهم لأقصى الحدود.. ولا أدل على ذلك من فخر الله سبحانه وتعالى ومباهاته بهم في أشرف كتبه يقول " مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (٢٩ من سورة الفتح).. ولعل ختام سورة الفتح بهذه الآية يرسم التفاؤل في قلوب أتباع محمد صلى الله عليه وسلم وصحبه ويبشرهم بالنصر والفتح والتمكين من رب العالمين.. وإنها المرة الوحيدة التي تنعي فيها السماء رجالا تسميهم من أهل الأرض.. وما ذلك إلا لأن إيمانهم ويقينهم وبطولاتهم.. قد حازت رضا الله سبحانه.. فشهدت لهم السماء قبل شهادة الأرض.. لقد أبلغ الوحى ببطولاتهم، واستشهادهم، ومنازلهم في جنة رب العالمين، فأى منقبةٍ بعد ذلك ؟!هل علمت الآن أن مجرد ذكر الفوارس والفروسية في غير الإسلام سفهٌ وجهلٌ وخنوثةٌ.. فما بالنا بمن يفرضهم في الثقافة والأدب والإعلام على أنهم؛ ولا غيرهم ؟!!!

أول النهار سحرةً كفرةً، وآخره مؤمنين أبطالاً.

موعد جديد مع قصةٍ جديدةٍ للرجولة كما أراد الله سبحانه أن يعلمها عباده، ويريهم عليها في قرآنه العزيز؛ والذي اعتمد المنهج الأول في مدرسة محمد صلى الله عليه وسلم الخاصة للرجال.. إنها المعركة الأبدية بين الإيمان والكفر.. بين الجزع واليقين.. بين الصدق في نصرة الحق والتخاذل المهين.. موعدنا مع قصةٍ تبيح بسر هذا الإعجاز الذي يصنعه الإيمان في القلوب حتى أنها لا تلوي على أحد ولا تخشى في سبيل رفعة إيمانها أى شئ....

تبدأ القصة.. وهنا يبدأ المشهد الأول بين موسى ممثلاً للحق، وفرعون الباطل.. يقول ربنا تعالى في سورة الأعراف: " وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠٤) حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٠٥) قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٠٦) فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ (١٠٧) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ (١٠٨) قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (١٠٩) يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (١١٠) قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (١١١) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ (١١٢) وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ (١١٣) قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (١١٤) قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ (١١٥) قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ (١١٦) وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (١١٧) فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١١٨) فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ (١١٩) وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (١٢٠) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٢١) رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ (١٢٢) قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (١٢٣) لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (١٢٤) قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ (١٢٥) وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ (١٢٦)"

يقول صاحب الظلال: (إنه مشهد اللقاء الأول بين الحق والباطل، وبين الإيمان والكفر.. مشهد اللقاء الأول بين الدعوة إلى «رب العالمين» وبين الطاغوت الذي يدعي ويزاول الربوبية من دون رب العالمين!

يقول موسى عليه السلام: «يا فرعون».. لم يقل له: يا مولاي! كما يقول الذين لا يعرفون من هو المولى الحق! ولكن ناداه بلقبه في أدبٍ واعتزاز. ناداه ليقرر له حقيقة أمره، كما يقرر له أضخم حقائق الوجود: «إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ»..

لقد جاء موسى- عليه السلام- بهذه الحقيقة التي جاء بها كل رسول قبله. حقيقة ربوبية الله الواحد للعالمين جميعاً.. ألوهية واحدة وعبودية شاملة..

ولقد واجه موسى- عليه السلام- فرعون وملأه بهذه الحقيقة الواحدة، التي واجه بها كل نبي- قبله أو بعده- عقائد الجاهلية الفاسدة.. واجهه بها وهو يعلم أنها تعني الثورة على فرعون وملئه ودولته ونظام حكمه..

إن ربوبية الله للعالمين تعني- أول ما تعني- إبطال شرعية كل حكم يزاول السلطان على الناس بغير شريعة الله وأمره وتنحية كل طاغوت عن تعبيد الناس له- من دون الله- بإخضاعهم لشرعه هو وأمره.. واجهه بهذه الحقيقة الهائلة بوصفه رسولاً من رب العالمين.. ملزماً ومأخوذاً بقول الحق على ربه الذي أرسله.

«حَقِيقٌ عَلى أَنْ لا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ».. «قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ»..

تدلكم على صدق قولي: إني رسول من رب العالمين.

وباسم تلك الحقيقة الكبيرة.. حقيقة الربوبية الشاملة للعالمين.. طلب موسى من فرعون أن يطلق معه بني إسرائيل..

وإذ كان فرعون إنما يعبِّد بني إسرائيل لهواه فقد أعلن له موسى أن رب العالمين هو الله. وإعلان هذه الحقيقة ينهي شرعية ما يزاوله فرعون من تعبيد بني إسرائيل! إن إعلان ربوبية الله للعالمين هي بذاتها

إعلان تحرير الإنسان. تحريره من الخضوع والطاعة والتبعية والعبودية لغير الله. تحريره من شرع البشر، ومن هوى البشر، ومن تقاليد البشر، ومن حكم البشر في أمثالهم البشر.

ولم تغب على فرعون وملئه دلالة هذا الإعلان. إعلان ربوبية الله للعالمين.. لم يغب عنهم أن هذا الإعلان يحمل في طياته هدم ملك فرعون. وقلب نظام حكمه، وإنكار شرعيته، وكشف عدوانه وطغيانه.. ولكن كان أمام فرعون وملئه فرصة أن يظهروا موسى بمظهر الكاذب الذي يزعم أنه رسول من رب العالمين بلا بينة ولا دليل:

«قالَ: إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِها إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ»..

ذلك أنه إذا اتضح أن هذا الداعية إلى ربوبية رب العالمين كاذب في دعواه سقطت دعوته، وهان أمره ولم يعد لهذه الدعوة الخطيرة من خطر- وصاحبها دعيّ لا بينة عنده ولا دليل! ولكن موسى يجيب:

«فَأَلْقى عَصاهُ فَإِذا هِيَ ثُعْبانٌ مُبِينٌ. وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذا هِيَ بَيْضاءُ لِلنَّاظِرِينَ»..

إنها المفاجأة! إن العصا تنقلب ثعباناً لا شك في ثعبانيته.. «مبين».. ثم إن يده السمراء- وقد كان موسى عليه السلام «آدم» أي مائلاً إلى السمرة- يخرجها من جيبه فإذا هي بيضاء من غير سوء، بيضاء ليست عن مرض، ولكنها المعجزة، فإذا أعادها إلى جيبه عادت سمراء! هذه هي البينة والآية على الدعوى التي جاء بها موسى.. إني رسول من رب العالمين.

ولكن هل يستسلم فرعون وملؤه لهذه الدعوى الخطيرة؟ هل يستسلمون لربوبية رب العالمين؟ وعلام إذن يقوم عرش فرعون وتاجه وملكه وحكمه؟ وعلام يقوم الملأ من قومه ومراكزهم التي هي من عطاء فرعون ورسمه وحكمه؟

علام يقوم هذا كله إن كان الله هو «رب العالمين» ؟

إنه إن كان الله هو «رب العالمين» فلا حكم إلا لشريعة الله، ولا طاعة إلا لأمر الله.. فأين يذهب شرع فرعون وأمره إذن، وهو لا يقوم على شريعة الله ولا يرتكن إلى أمره؟.. كلا! إن الطاغوت لا يستسلم هكذا من قريب. ولا يسلم ببطلان حكمه وعدم شرعية سلطانه بمثل هذه السهولة!

وفرعون وملؤه لا يخطئون فهم مدلول هذه الحقيقة الهائلة التي يعلنها موسى. بل إنهم ليعلنونها صريحة، ولكن مع تحويل الأنظار عن دلالتها الخطيرة، باتهام موسى بأنه ساحر عليم:

«قالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ: إِنَّ هذا لَساحِرٌ عَلِيمٌ. يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ. فَماذا تَأْمُرُونَ؟»..

إنهم يصرحون بالنتيجة الهائلة التي تتقرر من إعلان تلك الحقيقة. إنها الخروج من الأرض.. إنها ذهاب السلطان.. إنها إبطال شرعية الحكم.. أو.. محاولة قلب نظام الحكم!.. بالتعبير العصري الحديث! إن الأرض لله. والعباد لله. فإذا ردت الحاكمية في أرض لله، فقد خرج منها الطغاة، الحاكمون بغير شرع الله! أو خرج منها الأرباب المتألهون الذين يزاولون خصائص الألوهية بتعبيد الناس لشريعتهم وأمرهم.

وخرج منها الملأ الذين يوليهم الأرباب المناصب والوظائف الكبرى، فيعبدون الناس لهذه الأرباب! هكذا أدرك فرعون وملؤه خطورة هذه الدعوة.. وكذلك يدركها الطواغيت في كل مرة.. لقد قال الرجل العربي- بفطرته وسليقته- حين سمع رسول الله- صلى الله عليه وسلم- يدعو الناس إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله: «هذا أمر تكرهه الملوك!». وقال له رجل آخر من العرب بفطرته وسليقته: «إذن تحاربك العرب والعجم».. لقد كان هذا العربي وذاك يفهم مدلولات لغته. كان يفهم أن شهادة أن لا إله إلا الله ثورة على الحاكمين بغير شرع الله عرباً كانوا أم عجماً! كانت لشهادة أن لا إله إلا الله جديتها في حس هؤلاء العرب، لأنهم كانوا يفهمون مدلول لغتهم جيداً. فما كان أحد منهم يفهم أنه يمكن أن تجتمع في قلب واحد، ولا في أرض واحدة، شهادة أن لا إله إلا الله، مع الحكم بغير شرع الله! فيكون هناك آلهة مع الله! ما كان أحد منهم يفهم شهادة أن لا إله إلا الله كما يفهمها اليوم من يدعون أنفسهم «مسلمين».. ذلك الفهم الباهت التافه الهزيل!...

«قالُوا: أَرْجِهْ وَأَخاهُ، وَأَرْسِلْ فِي الْمَدائِنِ حاشِرِينَ، يَأْتُوكَ بِكُلِّ ساحِرٍ عَلِيمٍ»..

وكانت أرض مصر تموج بالكهنة في شتى المعابد. وكان الكهنة هم الذين يزاولون أعمال السحر. ففي الوثنيات كلها تقريباً يقترن الدين بالسحر ويزاول السحر كهنة الديانات وسدنة الآلهة!.. وقد استقر رأي الملأ من قوم فرعون، على أن يرجىء فرعون موسى إلى موعد. وأن يرسل في أنحاء البلاد من يجمع له كبار السحرة. ذلك ليواجهوا «سحر موسى» - بزعمهم- بسحر مثله. ويطوي السياق القرآني إجراء فرعون وملئه في جمع السحرة من المدائن ويسدل الستار على المشهد الأول، ليرفعه على المشهد

التالي.. وذلك من بدائع العرض القرآني للقصص، كأنه واقع منظور، لا حكاية تروى!.. «وَجاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ، قالُوا: إِنَّ لَنا لَأَجْراً إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغالِبِينَ؟ قالَ: نَعَمْ، وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ»..

إنهم محترفون... يحترفون السحر كما يحترفون الكهانة! والأجر هو هدف الاحتراف في هذا وذاك! وخدمة السلطان الباطل والطاغوت الغالب هي وظيفة المحترفين من رجال الدين! وكلما انحرفت الأوضاع عن إخلاص العبودية لله، وإفراده- سبحانه- بالحاكمية وقام سلطان الطاغوت مقام شريعة الله، احتاج الطاغوت إلى هؤلاء المحترفين، وكافأهم على الاحتراف، وتبادل وإياهم الصفقة: هم يقرون سلطانه باسم الدين! وهو يعطيهم المال ويجعلهم من المقربين! ولقد أكد لهم فرعون أنهم مأجورون على حرفتهم، ووعدهم مع الأجر القربى منه، زيادة في الإغراء، وتشجيعاً على بذل غاية الجهد.. وهو وهم لا يعلمون أن الموقف ليس موقف الاحتراف والبراعة والتضليل إنما هو موقف المعجزة والرسالة والاتصال بالقوة القاهرة، التي لا يقف لها الساحرون ولا المتجبرون! ولقد اطمأن السحرة على الأجر، واشرأبت أعناقهم إلى القربى من فرعون، واستعدوا للحلبة.. ثم هاهم أولاء يتوجهون إلى موسى- عليه السلام- بالتحدي.. ثم يكون من أمرهم ما قسم الله لهم من الخير الذي لم يكونوا يحتسبون، ومن الأجر الذي لم يكونوا يتوقعون:

«قالُوا: يا مُوسى، إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ.. قالَ: أَلْقُوا»..

ويبدو التحدي واضحاً في تخييرهم لموسى. وتبدو كذلك ثقتهم بسحرهم وقدرتهم على الغلبة.. وفي الجانب الآخر تتجلى ثقة موسى- عليه السلام- واستهانته بالتحدي: «قالَ أَلْقُوا».. فهذه الكلمة الواحدة تبدو فيها قلة المبالاة، وتلقي ظل الثقة الكامنة وراءها في نفس موسى. على طريقة القرآن الكريم في إلقاء الظلال، بالكلمة المفردة في كثير من الأحايين.

ولكن السياق يفاجئنا بما فوجىء به موسى- عليه السلام - وبينما نحن في ظلال الاستهانة وعدم المبالاة، إذا بنا أمام مظهر السحر البارع، الذي يرهب ويخيف:

«فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ، وَجاؤُ بِسِحْرٍ عَظِيمٍ».

وحسبنا أن يقرر القرآن أنه سحر عظيم، لندرك أي سحر كان. وحسبنا أن نعلم أنهم سحروا «أعين الناس» وأثاروا الرهبة في قلوبهم: «واسترهبوهم» لنتصور أي سحر كان. ولفظ «استرهب» ذاته لفظ مصور.

فهم استجاشوا إحساس الرهبة في الناس وقسروهم عليه قسراً. ثم حسبنا أن نعلم من النص القرآني الآخر في سورة طه، أن موسى عليه السلام قد أوجس في نفسه خيفة لنتصور حقيقة ما كان! ولكن مفاجأة أخرى تطالع فرعون وملأه، وتطالع السحرة الكهنة، وتطالع جماهير الناس في الساحة الكبرى التي شهدت ذلك السحر العظيم:

" وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (١١٧) فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١١٨) فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ (١١٩)"

إنه الباطل ينتفش، ويسحر العيون، ويسترهب القلوب، ويخيل إلى الكثيرين أنه غالب، وأنه جارف، وأنه مُحيق! وما هو إلا أن يواجه الحق الهادئ الواثق حتى ينفثىء كالفقاعة، وينكمش كالقنفذ، وينطفىء كشعلة الهشيم! وإذا الحق راجح الوزن، ثابت القواعد، عميق الجذور.. والتعبير القرآني هنا يلقي هذه الظلال، وهو يصور الحق واقعاً ذا ثقل: «فوقع الحق».. وثبت، واستقر.. وذهب ما عداه فلم يعد له وجود: «وبطل ما كانوا يعملون».. وغلب الباطل والمبطلون، وذلوا، وصغروا، وانكمشوا بعد الزهو الذي كان يبهر العيون: «فَغُلِبُوا هُنالِكَ وَانْقَلَبُوا صاغِرِينَ».. ولكن المفاجأة لم تختم بعد. والمشهد ما يزال يحمل مفاجأة أخرى.. مفاجأة كبرى.. «وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ ساجِدِينَ. قالُوا: آمَنَّا بِرَبِّ الْعالَمِينَ. رَبِّ مُوسى وَهارُونَ»..

إنها صولة الحق في الضمائر. ونور الحق في المشاعر، ولمسة الحق للقلوب المهيأة لتلقي الحق والنور واليقين.. إن السحرة هم أعلم الناس بحقيقة فنهم، ومدى ما يمكن أن يبلغ إليه. وهم أعرف الناس بالذي جاء به موسى إن كان من السحر والبشر، أم من القدرة التي وراء مقدور البشر والسحر. والعالم في فنه هو أكثر الناس استعداداً للتسليم بالحقيقة فيه حين تتكشف له، لأنه أقرب إدراكاً لهذه الحقيقة، ممن لا يعرفون في هذا الفن إلا القشور.. ومن هنا تحول السحرة من التحدي السافر إلى التسليم المطلق، الذي يجدون برهانه في أنفسهم عن يقين.. ولكن الطواغيت المتجبرين لا يدركون

كيف يتسرب النور إلى قلوب البشر ولا كيف تمازجها بشاشة الإيمان ولا كيف تلمسها حرارة اليقين. فهم لطول ما استعبدوا الناس يحسبون أنهم يملكون تصريف الأرواح وتقليب القلوب- وهي بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء-.. ومن ثم فوجيء فرعون بهذا الإيمان المفاجئ الذي لم يدرك دبيبه في القلوب ولم يتابع خطاه في النفوس ولم يفطن إلى مداخله في شعاب الضمائر.. ثم هزته المفاجأة الخطيرة التي تزلزل العرش من تحته: مفاجأة استسلام السحرة- وهم من كهنة المعابد- لرب العالمين. رب موسى وهارون. بعد أن كانوا مجموعين لإبطال دعوة موسى وهارون إلى رب العالمين!.. والعرش والسلطان هما كل شيء في حياة الطواغيت.. وكل جريمة يمكن أن يرتكبوها بلا تحرج في سبيل المحافظة على الطاغوت: هكذا.. «آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ!».. كأنما كان عليهم أن يستأذنوه في أن تنتفض قلوبهم للحق- وهم أنفسهم لا سلطان لهم عليها- أو يستأذنوه في أن ترتعش وجداناتهم- وهم أنفسهم لا يملكون من أمرها شيئاً- أو يستأذنوه في أن تشرق أرواحهم- وهم أنفسهم لا يمسكون مداخلها. أو كأنما كان عليهم أن يدفعوا اليقين وهو ينبت من الأعماق. أو أن يطمسوا الإيمان وهو يترقرق من الأغوار. أو أن يحجبوا النور وهو ينبعث من شعاب اليقين! ولكنه الطاغوت جاهل غبي مطموس وهو في الوقت ذاته متعجرف متكبر مغرور!

ثم إنه الفزع على العرش المهدد والسلطان المهزوز: «إِنَّ هذا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْها أَهْلَها»..

وفي نص آخر: «إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ»! والمسألة واضحة المعالم.. إنها دعوة موسى إلى «رب العالمين».. هي التي تزعج وتخيف.. وفرعون كان يعرف، وملؤه كانوا يعرفون.. ولقد فزعوا للدعوة من موسى وهارون إلى رب العالمين. فأولى أن يفزعوا الآن وقد ألقي السحرة ساجدين. قالوا: آمنا برب العالمين. رب موسى وهارون! والسحرة من كهنة الديانة الوثنية التي تؤله فرعون، وتمكنه من رقاب الناس باسم الدين! وهكذا أطلق فرعون ذلك التوعد الوحشي الفظيع: إنه التعذيب والتشويه والتنكيل.. وسيلة الطواغيت في مواجهة الحق، الذي لا يملكون دفعه بالحجة والبرهان.. وعدة الباطل في وجه الحق الصريح..

ولكن النفس البشرية حين تستعلن فيها حقيقة الإيمان تستعلي على قوة الأرض، وتستهين ببأس الطغاة وتنتصر فيها العقيدة على الحياة، وتحتقر الفناء الزائل إلى جوار الخلود المقيم. إنها لا تقف

لتسأل: ماذا ستأخذ وماذا ستدع؟ ماذا ستقبض وماذا ستدفع؟ ماذا ستخسر وماذا ستكسب؟ وماذا ستلقى في الطريق من صعاب وأشواك وتضحيات؟.. لأن الأفق المشرق الوضيء أمامها هناك، فهي لا تنظر إلى شيء في الطريق..

" قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ (١٢٥) وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ (١٢٦)"... إنه الإيمان الذي لا يفزع ولا يتزعزع. كما أنه لا يخضع أو يخنع. الإيمان الذي يطمئن إلى النهاية فيرضاها، ويستيقن من الرجعة إلى ربه فيطمئن إلى جواره: «قالُوا: إِنَّا إِلى رَبِّنا مُنْقَلِبُونَ»..

والذي يدرك طبيعة المعركة بينه وبين الطاغوت.. وأنها معركة العقيدة في الصميم.. لا يداهن ولا يناور.. ولا يرجو الصفح والعفو من عدوٍ لن يقبل منه إلا ترك العقيدة، لأنه إنما يحاربه ويطارده على العقيدة: «وَما تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآياتِ رَبِّنا لَمَّا جاءَتْنا».. والذي يعرف أين يتجه في المعركة، وإلى من يتجه لا يطلب من خصمه السلامة والعافية، إنما يطلب من ربه الصبر على الفتنة والوفاة على الإسلام:

«رَبَّنا أَفْرِغْ عَلَيْنا صَبْراً وَتَوَفَّنا مُسْلِمِينَ»..

ويقف الطغيان عاجزاً أمام الإيمان، وأمام الوعي، وأمام الاطمئنان.. يقف الطغيان عاجزاً أمام القلوب التي خيل إليه أنه يملك الولاية عليها كما يملك الولاية على الرقاب! ويملك التصرف فيها كما يملك التصرف في الأجسام. فإذا هي مستعصية عليه، لأنها من أمر الله، لا يملك أمرها إلا الله.. وماذا يملك الطغيان إذا رغبت القلوب في جوار الله؟ وماذا يملك الجبروت إذا اعتصمت القلوب بالله؟ وماذا يملك السلطان إذا رغبت القلوب عما يملك السلطان! إنه موقف من المواقف الحاسمة في تاريخ البشرية. هذا الذي كان بين فرعون وملئه، والمؤمنين من السحرة.. السابقين..

إنه موقف حاسم في تاريخ البشرية. بانتصار العقيدة على الحياة. وانتصار العزيمة على الألم. وانتصار «الإنسان» على «الشيطان»! إنه موقف حاسم في تاريخ البشرية. بإعلان ميلاد الحرية الحقيقية. فما الحرية إلا الاستعلاء بالعقيدة على جبروت المتجبرين وطغيان الطغاة. والاستهانة بالقوة المادية التي

تملك أن تتسلط على الأجسام والرقاب وتعجز عن استذلال القلوب والأرواح. ومتى عجزت القوة المادية عن استذلال القلوب فقد ولدت الحرية الحقيقية في هذه القلوب.

إنه موقف حاسم في تاريخ البشرية بإعلان إفلاس المادية! فهذه القلة التي كانت منذ لحظة تسأل فرعون الأجر على الفوز، وتمنى بالقرب من السلطان.. هي ذاتها التي تستعلي على فرعون وتستهين بالتهديد والوعيد، وتُقبل صابرة محتسبة على التنكيل والتصليب. وما تغير في حياتها شيء، ولا تغير من حولها شيء- في عالم المادة- إنما وقعت اللمسة الخفية التي تسلك الكوكب المفرد في الدورة الكبرى. وتجمع الذرة التائهة إلى المحور الثابت، وتصل الفرد الفاني بقوة الأزل والأبد.. وقعت اللمسة التي تحوّل الإبرة، فيلتقط القلب إيقاعات القدرة، ويتسمع الضمير أصداء الهداية، وتتلقى البصيرة إشراقات النور.. وقعت اللمسة التي لا تنتظر أي تغيير في الواقع المادي ولكنها هي تغير الواقع المادي وترفع «الإنسان» في عالم الواقع إلى الآفاق التي لم يكن يطمح إليها الخيال! ويذهب التهديد.. ويتلاشى الوعيد.. ويمضي الإيمان في طريقه. لا يتلفت، ولا يتردد، ولا يحيد! ويسدل السياق القرآني الستار على المشهد عند هذا الحد ولا يزيد.. إن روعة الموقف تبلغ ذروتها وتنتهي إلى غايتها. وعندئذ يتلاقى الجمال الفني في العرض مع الهدف النفسي للقصة، على طريقة القرآن في مخاطبة الوجدان الإيماني بلغة الجمال الفني، في تناسق لا يبلغه إلا القرآن.... ونقف بعد ذلك أمام إدراك السحرة- بعد أن أشرق نور الإيمان في قلوبهم، وجعل لهم فرقاناً في تصورهم- أن المعركة بينهم وبين فرعون وملئه هي معركة العقيدة وأنه لا ينقم منهم إلا إيمانهم برب العالمين.. فهو الله تعالى وحده الذي أهَّل هؤلاء المؤمنين للاستهانة بما يلقونه في سبيله.. إنهم يقدمون على الموت مستهينين ليقينهم بأنهم هم المؤمنون برب العالمين وأن عدوهم على دين غير دينهم لأنه بمزاولته للسلطان وتعبيد الناس لأمره ينكر ربوبية رب العالمين.. فهو إذن من الكافرين.. وما يمكن أن يمضي المؤمنون في طريق الدعوة إلى رب العالمين- على ما ينتظرهم فيها من التعذيب والتنكيل- إلا بمثل هذا اليقين بشقيه: أنهم هم المؤمنون، وأن أعداءهم هم الكافرون، وأنهم إنما يحاربونهم على الدين، ولا ينقمون منهم إلا الدين.)[١٣٩] ا. هـ.

139في ظلال القرآن لسيد قطب م٣/بدءاً من ص١٣٤٥.

تم بحمد الله تعالى الجزء الأول، ونتبعه بإذن الله تعالى بأجزاء أخر... علَّ الله سبحانه أن يحيي به قلوبا غلفا، ويوقظ به أمةً من سباتها، ويجعله لنا زخرا وشفيعا يوم لا ينفع مال ولا بنون..

والحمد لله رب العالمين.

الفهرس

مقدمة منهجية: لماذا نكتب عن صناعة الرجولة ؟!..... ٣

لأن هُوَيَّتنا الإسلامية في خطر... ..... ٣

ولأن هذه طريقتهم في محونا...! ٦

ومن هاهنا لابد أن تتضح معاني.. الوجود والهدف.. ..... ٩

ولكن أين المشكلة؟ ١٤

ولماذا إذن نكفر بحضارتنا وأبطالنا، ونستورد نماذجهم ؟!..... ١٧

الغزو التاريخي ١٨

فما الخلاص؟ ٢٠

وهنا لا بد من صناعة الرجال ٢٧

ولكن.. من أين ننطلق ؟!..... ٣٠

التوحيد دائما هو البداية والهدف.. محمد ورجاله ورسالتهم! ٣٩

خذها صريحةً دينك.. دينك.. لحمك.. دمك؛ هكذا سادوا! ٤٥

من أسدٍ إلى أسد ٥٠

أما هؤلاء فرجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه... ..... ٥٤

ورجل آخر منهم في هذا الزمان..... ٥٩

نساءٌ..!! الواحدة بألف رجل وأكثر!!!؟..... ٦٤

حتى أطفالهم رجال!! فأين من يدعون الرجولة اليوم ؟! ٧٣

نماذج من علو همة الشباب ٧٧

هكذا أحبوه.. وهكذا سادوا.. ..... ٨١

فساد الذوق واختلال معايير الرجولة. ٨٥

الصبر رجولة.. والصبر تمكين!! درسٌ جديدٌ.. ..... ٨٦

مرةً بعد مرةٍ.. رجالٌ صدقوا ما عاهدوا الله عليه.. ..... ٩١

فما الصدق؟ ٩١

فصلٌ للكلام عن الصدق. ٩٣

ونعود مرة أخرى.... ..... ٩٩

فهل تعرف الآن كيف انتصر صحْبُ محمدٍ صلى الله عليه وسلم ؟! ١٠٢

رجل المهمة المستحيلة.. أخطر رجل في استخبارات المسلمين.. رجل بمليون.. والمليون قليل!؟ ١٠٨

هؤلاء بايعوا الله ورسوله.. هؤلاء هم الرجال! ١١١

تعليق قرآني خالد... ..... ١١٩

والدرس تارة أخرى في ساحة التاريخ... ..... ١٢١

هؤلاء عرفوا الله، وعرفوا أنفسهم.. فعرفتهم الدنيا كلها، وخلدهم التاريخ... ..... ١٢٦

هكذا توزن الرجال.. فكم تزن ؟! ١٣١

مؤمن آل فرعون.. الرجولة وسْط العواصف! ١٥٠

الفرسان الثلاثة.. أو الأربعة ١٥٧

أول النهار سحرةً كفرةً، وآخره مؤمنين أبطالاً. ١٦٧